محمد شويحنة

ورد الليل

رواية

ورد الليل

ورد الليل
المؤلف: محمّد شويحنة
الطبعة الأولى ٢٠١٢
تصميم الغـلاف: الفنّـان رائـد خليـل
نـون٤ للنشر والطباعة والتوزيـع
المنشيـة القديمـة ـ حلـب ـ سوريـة ص.ب: ٤٤٤
هاتف ٠٠٩٦٣٢١٢١٢١٣٣٢ خليوي ٠٠٩٦٣٩٤٤٨٨٩٠٧٨
بريـد إليكتروني: news@scs-net.org

الهيئة الاستشارية للدار			
	أ. وليـد إخلاصـي	د. فـؤاد المرعـي	أ. جمـال بـاروت
	د. رضـــوان قضـــماني	د. ســـعد الـــدين كليـــب	
	أ. عطيـــــة مســـــوح	أ. نـــــذير جعفـــــر	

جميع الحقوق محفوظة

محمّد شويحنة

ورد الليل

رواية

كان عمرو بن أدهم يعصب عينيه إذا خرج إلى السوق لا يـرى كـافراً ولا غافلاً عن الله، وكان له غلام يقوده، فقال لغلامه يوماً:

– أين نحن؟

قال:

– في المقابر.

فحلَّ العصابة عن عينيه فوقع بصره على القبور، فخرَّ ميتاً.

الشعراني/تنبيه المغترين

١

الحزن خيمة كتيمة، الحزن غمامة الروح، إنه حزن النهايات، عندما تنظر إلى العمر الآفل وقد خلفك وحيداً بعد أن نفضت يدك من كل شيء، لكن ثمة بارق ما، يدفعك لأن ترى كل ما فيك يموت بينما قلبك يحيا أكثر.. صحيح أنه لا فعل ولا قدرة على الفعل، لا أمل بعدُ في آت قريب، لكن يظل لك ما تبقى، كلمات.. كل ما تبقى كلمات، فلا أقل من القول، لعل القول يسعف.. أنا لن أصمت، سأقول ما أقول بأية وسيلة، القول كما كان المسير قدري وقدرتي، به أسعى الآن، تتباعد الجدران المحيطة بي هنا حتى تتلاشى، أعود حراً، أصنع حريتي على هواي، أشرب من ظلامي حتى أرتوي، تؤنسني الوحشة فلا أفارقها..

كان خضر العليوي قد غاب عني، لحظات فقط شهدَتْه عيناي ثم لم أعد أراه، لم أعلم أين اقتادوه! أحزَنُ الآن وتنتابني غصة وأنا أفكر أن ما اجتناه من مصير كان بسببي.. الخيط الذي بقي هنا يصلني بمن هم في الخارج هو آهات الشيخ حسيب التي تمزق نومي، وتضفي آلاماً على حزني..

أنا مطيع العبّادي، كنت قد علمت أني من سلالة الإمام الكبير، زاهد العصر وشيخ الحضرة نوّار أبي سالم العبّادي. هل كان علمي سبب شقوتي؟! وهل باتت سيرته رصداً أفسد حياتي؟!.. على أيّة حال، أنا لم أفكر لحظة أني كنت مضللاً، ولا أقول ما أقوله على سبيل الندب والأسف، لأنه لو قدر لي أن أخطو من جديد لمشيت في الدرب ذاته..

الحاصل أنه في آخر المطاف، ومنذ أن ألقيت هنا وجدت أني قد سلبت

كل إرادة، لا فعل، ولا أثر يذكر في الناس.. لقد قُطِعَ بي. زنزانتي ضيقة بحجم قبر، بتُّ أجدها بمرور الوقت جزءًا من جسدي، صرنا واحداً مادامت هي الأخرى تشبهني عندما يملؤها الظلام ساعات طويلة، كوة واحدة في أعلى الجدار ينز منها ضوء ناعس، لا يكاد يظهر حتى يسارع في الاختفاء. في هذه الأوقات القليلة سيتاح لي أن أكتب ما أكتب، أسوِّد صفحات كأنما أزيل بها ظلامي، لكن مهلاً! أنا لم أكن عدو الظلام يوماً، كان على الدوام رفيقي وأنيسي، وحكايتي معه تدفعني أبداً أن أضيق بكل من يذكر النور أو مفرداته.. على أية حال قد تسعف الصفحات الآتية في إيضاح ما غمض، على الأقل بالنسبة لي، أو في بعث الخفايا من أعماق نفسي بعد أن أترعت وفاضت، وأول ما خطر في بالي وأنا أخط هذه السطور أن أسمي اليد التي قذفتني هنا يدَ الرحمة، فقد وجدت فيها رفقاً طالما انتظرته، بعد أن التقيت بظلامي الذي نشدته سنوات العمر.

لم يكن جدي الأكبر فيما قرأت من سيرته يلتفت إلى شيء مهما عظم من أمر الدنيا، كان يقول: أفضل الأعمال مخالفة هوى النفس.. أما أنا فتأملت نصيبي من ميراث جدي، ولم أر إلا هذا التشهي لأن أعيش الحياة بكل ما فيها، فما بلغت طوع النفس، وبقيت عطشاً ما ارتويت من كأس شراب قط، قصدت وجهدت واجتهدت، وخرجت من ذلك كله بأن بت معلقاً في نقطة كالمشنقة بين الآخرة والأولى.. الآن أعود إلى كلمات جدي الشيخ نوّار، وأدرك أن حروفها جمعت الحكمة من أطرافها، وأنها كانت هي الأصدق والأبقى..

في زنزانتي أصبحت أهفو إلى سويعات الضوء، أخط فيها ما جال وما يجول في خاطري، ما ضاق به صدري وما يطير إليه قلبي، لكن ما الذي تبقى من كهل في عقده الخامس، بل ماذا كان ليفعل لو أنه ظل خارجاً، هناك حيث الضوء والبشر!. أنظر إلى هذا الجسد الآن فأجد كل ما فيه قد

شاخ سوى هذا الرأس الذي ظل يجوب الآفاق.. هنا في هذا الخانق، وعلى الرغم من تلال الظلام، وجدت الأمداء الفسيحة.. في الليل أصنع حكاياتي، وفي هدايا الضوء الراشح أخط فحواها.. ثم في آخر الرمق أحبس دمعة وأنام..

سنوات تمر هنا، لا أدعى إلى محاكمة، لا أخرج، لا أقابل بشراً، حتى بت لا أنتظر شيئاً، ومنذ وقت قريب سمح لي بدقائق قليلة كلَّ يوم أقضيها في الخارج، تقودني يد الرحمة، أقضي حاجات البشر، وأعب حفنات من هواء لا ينتظرني، وأعود كأنني الاستسلام عينه، لأمضي في مركبة الوقت، على مهل، فلا شيء يدعوني لأن أسبقه، سوى ما تمنحني إياه لحظات الشعاع المتسلل، لأواصل رحلة الغواية، غواية الورق والحكايا..

الحكايا كانت قد انغرست في دم الطفولة، أنا تربيت على الحكايا، لكنني اليوم أدرك أنها هي التي أفسدت كل شيء، أو ربما كانت هي السببَ في كل ما حصل، فقد أمسى الخيال عندي واقعاً، والواقع ضاع في الخيال، أيام الجدة ذاتها أصبحت عنوان الخيال الأرحب، أيام بعيدة مضت، أيام كان العمر يبدو لا طويلاً فحسب، بل عمراً أشبه بمشروع لم يبدأ الخطوة الأولى بعد.. الحياة كلها صارت ماضياً وحكايا، وبوابة الأنا مشرعة على الآتي، اليوم أدخلها وغداً أدخلها.. وما زال في العمر متسع.. جدي يرحل مثقلاً بحسراته الصامتة، والجدة تتبعه آخذة معها الحكايا، أودع انطفاءها وألتفت إلى حزن قادم سيأخذ آخرين، وإلى حزن أشد على صبوات ميتة وعمر ضائع، حزن سيتحول إلى أسى تلقي أمامه كل سلاح.

شيخي جابر العثمان قدس سره، مذ عرف أني من سلالة العبّادي الأكبر قبَّل رأسي وخشع.. خصني بعدها بنظرات كانت الحضنَ الذي غفوت فيه.. حتى وجدتني أصحو متأخراً على يد تسقط على وجهي، وأقدام تطيح برأسي وبخاصرتي..

– أنت منهم، من هم أتباعك؟

– ولكن هل يكفي أن أعرفهم حتى أكون منهم..؟

قلت للمحقق. رد بضحكة وبصاق. شعرت بإهانة وعدت أصلح ما فسد:

– سيدي أنا العبّادي، وجدنا الأكبر أبو سالم..

أطلق شتيمة فاجرة وأسكتني، كتب شيئاً أمامه ووقع كأنما ينفض يده من دنس..

الشيخ حسيب نزيل الحضرة وصفيُّ أيام الهيام، يصبح جاري في الزنزانة، أراه مصادفة مرات في الساحة ينحني تحت الضوء وهو يجر شيخوخته، يقتاده حارس إلى زنزانته، أهتف باسمه فلا يلتفت، أظن أنه فقد السمع هنا.. تمر شهور ولا أراه، ولا تعود تصلني آهاته، أتلهف أن أسمع خبراً عنه، الحارس يقول إنهم نقلوه من هنا،لا يدري إلى أين.. إبراهيم يرحل ويورثني كل هذا الظلام، وعبد القادر بدا واثقاً وهو يسير إلى نهايته على نحو طالما حسدته عليه، طائرة (هيلو كبتر) عسكرية تهبط فجراً في قريته كما علمت، وتلتقطه من الفراش ثم تطير إلى المجهول.. الآخرون بدورهم اختفوا تباعاً وانطفأ ذكرهم..

أقول ما أقوله الآن وقد انتهى كل شيء، هدأت الطلقات، اختفت الحواجز والدوريات، انتهت أيام منع التجول والطرق المقطوعة والملاحقة وتفتيش الدور، وأنا تحللت أيضاً من كل شيء، فهل نجوت؟! لم يكن لي حيلة، ولست نادماً على ما حصل من تضييع وفقد، كانت كل خطوة قد دفعتني إلى أن أبيع دنياي، وكل ما أرجوه الآن أن تسلم لي آخرتي.

كان التوقيف الأول قد استمر ساعات، تعرفت خلاله على بكور مراد، والصحيح أن أقول: إن يدانا تعارفتا بالملامسة قبل أن يستبين أحدنا وجه الآخر، عدنا على أزيز الطلقات التي تضرب الأرصفة والنوافذ، هرعنا في

طرقات فارغة مسكونة بالوحشة والموت، وصلنا محمولين على أنفاسنا المقطعة.. دخل بكور معي البيت، وأيقنت حينها أن حياة جديدة قد كتبت لنا، وأنا أنظر إليه وهو يلهث، وإلى رجلي التي حظيت بجرح طلقة طائشة أقعدني أياماً.

أعود بالذكرى الآن إلى زمن مضى، إلى قرية الطفولة، القرية التي باتت ملتبسة بخواطر شتى، كأنما من عصر آخر.. وكأن الطفل الذي كنته ليس أنا الآن.. أيامها كنت منشداً إلى الأفق الأرحب، أحاول أن أهرب من الصورة المرسومة المتكررة أمامي، فحيثما نظرت كنت أرى من سميتهم أطفال الذباب، بأرجل حافية وبلا سراويل، جلد مسمر على عظام نحيلة، حبيبات حمراء تتوزع في أنحاء مختلفة من الجسم من أثر لسع البعوض، ومخاط يقف على المنخر كعلامة فارقة. أنظر أيضاً فأرى ضيق الحواري في القرية وساحاتها المنسدة، فيبدو لي حياة ضيقة منسدة، وكل هذا المدى المترامي من التراب بين قرية وأخرى كنت أجده جدباً لا روح فيه، كان سرٌّ ما قد أخذ يشدني إلى ما وراء الأفق، إلى المدينة الماثلة هناك وفي أحلامي.

في زمن بات بعيداً الآن لم تكن حلب قصدنا فحسب، بل إن كلَّ من في القرية نشط في وقت من الأوقات إلى حلب المدينة، لكن الأطراف لا المدينة حقيقة كانت موطننا الجديد وقدرنا النهائي، بالنسبة إلينا تعثرنا طويلاً في البداية، حتى وصلنا إلى أن ضمتنا أحياء بعينها، وبدا لنا الأمر وسط فرحتنا كما لو أننا نقلنا القرية إلى هنا. بيوت مؤجرة كثيرة تتقاذفنا، حتى ينتهي المطاف بنا في حي الحيدرية المفتوح في أعلاه على الريف الشرقي، والمفضي في أدناه إلى بساتين كثيرة يتحتم عليك قطعها وصولاً إلى أحياء ما يعرف بخارج السور، ثم ما يسمونه القلب النابض بالتاريخ، القلعة وما حولها..

الآن كل شيء ينتهي، على الأقل بالنسبة إليَّ، ماذا أفعل غير أن

أكتب؟ الصحو يسعف وسويعات ضوء، سمائي ضيقة، لكنها سماء على أية حال، ففي النهاية كل ما علاك فهو سماك. لكن ماذا كنت لأفعل لو أعطيت السماوات السبع؟ كل ما أفعله أن أسرح في الملكوت حتى أصل إلى البرزخ، وما أفعله الآن شيء شبيه بذلك.

عمر ورفاقه، الجرَّاح أمير الدعوة وعبد القادر السالم وحسون الراعي وحتى إبراهيم وآخرون غيره، لم يسعهم أن يجرونني يوماً إلى ساحتهم، لكن ما حصل أني اليوم في الساحة الأضيق.. ولو كان لي أن أفعل لفعلت على طريقتي وكما أحب وأشتهي..

قبل الارتحال الأخير والتوطن الدائم والنهائي في أطراف المدينة، كنت من القلائل في قريتي والقرى المجاورة ممن حظي بشهادة التعليم الإعدادي، وعقبها أفوز بالسكنى في حلب، طالباً داخلياً في دار المعلمين، نظام السنوات الأربع.. سنوات باهتة مرت كحلم، ذكريات عادية لا شيء فيها يستحق الذكر، بعدها مباشرة أنقذف إلى المجاهل والأقاصي، معلماً وحيداً، أتنقل مع البدو والقرباط. أبحث عنهم في البادية، يرشدني مختار قرية نائية إلى عدد منهم، يتجمعون أياماً ثم ينفرطون كحفنة حصى تلقى بعيداً.. سنوات تضيع أيامي بينهم، فيما يبحثون هم عن ضَياعهم. الموجه التربوي يعدني بالنقل كمن ينزل ثقلاً من على كتفيه، ويصر على الدوام أن لا ينظر في وجهي، بل يخط شيئاً أمامه على الورق، ويطلق بلهجة وقور عبارة: التعليم رسالة. كان يجب منذ البداية أن تكون قد وطنت نفسك على أداء مثل هذه الرسالة!.

* * *

٢

أمي كان لها رسالة أخرى، أرادت أن تكحل عينيها بزواجي، ظلت تلح سنوات، ترجوني أن أفرّح قلبها.. يا عيني حتى أبوك يذكرني، خطية، لا زال يشتهي الأولاد، وأنا أموت كل يوم عندما أفكر بك وبالأيام التي تكر..

يومها لم يكن كلامي بكلام، الوعود بأن أؤجل الزواج حتى يتم النقل فأكون في المدينة، في مركزها أو في الأطراف حتى.. هذه الوعود لم تسمع أصلاً، أنا أطلقتها وابتلعتها في آن، ابتلعت معها غصة بطعم غريب، شعرت أني أتجرعها لأول مرة.. بعد أشهر من إلحاح أمي ستكون سعاد حصتي ونصيبي من الدنيا، أنا لا أدري كيف تمت الخطوبة، وصولاً إلى زواج سريع، ترتب الأمر كله في أيام، كان شرطي الوحيد الذي تحقق أن تكون الخطيبة حلبية، سألتْ أمي واستدلت، ووجدتها أخيراً في حارة من حارات جب القبة، طلبت رؤيتها فتمنّع أهلها، وسمحوا بعد توسل برؤية خاطفة.. مرت أمامي متلفعة بخجلها، لم أر شيئاً، واشتدت لهفتي لأن أرى، وكدت أتراجع رافضاً مثل هذا الزواج، لكن أمي طمأنتني.. وأصبحت زوجاً في عطلة صيفية باتت بعيدة الآن، بعيدة وقريبة، لأن ذكراها لا تزول.. في دارنا أعطيت، مادمت الولد الأكبر وفرحة القلب، غرفة وحيدة، هي المربع العلوي الوحيد على السطح، والآن أنا مع امرأة تحت سقف واحد وانتهى الأمر، أقصد أن أقول: انتهى كله في الشهور الأولى سريعاً وبطيئاً، مجللاً في النهاية بطعم الأسى.

بعد الزواج ستسير الأمور من سيئ إلى أسوأ. بدأ هذا السيئ بزيارات متكررة لأم سعاد في كل صباح وهي تسأل عما لم يحصل بعد!. وكل الأطعمة والمكسرات والمشهيات التي جلبتها لم تسعف في جعل المستحيل ممكناً، فظل الشق يتباعد كل يوم بيني وبين سعاد، وانتهى الأمر بأمها مرة إلى شهقات بكاء تتسول طفلاً.

أمي هي الأخرى انتظرت، دون أن تدرك حقيقة ما بيننا، مرات حاولَت أن تطوي المسألة كلها بزواج آخر، أسمعها وأصطدم بجدار، ثم أحار بماذا أرد، ظلت تقول: لا يمكن أن يكون السبب منك، أنت ابن ولادات أباً عن جد.

في تلك الأيام، وفي أقصى حارة في حي الحلوانية، كان كل شيء قد بدأ يدفعني إلى الغثيان.. أدركت منذ رأيت وجه سعاد لأول مرة في ليلة الدخلة أن هذا الزواج لن يستمر، كانت البداية أني اصطدمت بنظرتها، شيء ما انهار في قلبي، حائط ثقيل سقط بيننا من اللحظة الأولى، نظرة ماكرة متحفزة محتقنة بالعداء، وأنا احتقنت بالرفض، حدَّثت نفسي: سيكون الطريق قصيراً، ومقطوعاً، وهذا ما كان.. خيبة فظيعة حلت بي، وحلّ معها نفور شلني.. وبدت محاولاتي المتكررة في قهر هذا العجز تخذلني، فأبكي في فراشي بصمت وأواري دموعي، لكن إحساسي بالعجز تحول في أيام تالية إلى شعور بالنقمة على كل من حولي، وبدأ الأمر بطبيعة الحال بزوجتي سعاد، أراها أو أرى كل من يزورنا من عائلتها حتى صغار إخوتها؛ فتثور معدتي، في الصباح خاصة، ومع رؤية أمها المصبحة، أسارع إلى دلق ما في جوفي من صفراء، وامتد الأمر ليصير قرفاً من كل شيء، من البيت بما فيه، من الأب والأم، الأخوة الصغار، الحارة والأطفال والحظائر، الكلاب والقطط وروائح الروث.. النسوة وثرثراتهن

والقعدة أمام الدور الواطئة.. النظرات في كل مكان أخذت تلاحقني.. كل شيء أصبح يدعو إلى الهرب.. المنجاة كان الباص الوحيد الذي يظهر كل ساعة تقريباً بصفرته ووجهه المائل، أنقذف فيه لأصير في المنشية، خطوات وأدخل الحديقة العامة، أسير صامتاً أحاول أن أبعد ما ينهال عليَّ من حزن لمجرد تفكيري في العودة إلى البيت.. أمي تلاحظني وتكتوي بالحسرات، تتأمل وجهي كأنها تحاول أن تخترق مسامات جلده، تلحق بي ذات يوم فتصعد الباص خلفي، يفاجئني وجودها في الباص، تداري المفاجأة بابتسامة محمرة وهي تقول إنها ذاهبة إلى سوق الزهر في بانقوسا، لشراء ثياب ديارة لمولودي الآتي، أراها في تلك اللحظات أماً طيبة، ككل الأمهات، وهي تريد أن تطبخ فرحها على نار هادئة، فأبتلع غصة أخرى.. ها هي تعيش في عالم آخر، في أحلام تفصّلها على هواها.. أقول لها:

– الأفضل أن تعودي يا أمي فهذا سابق لأوانه.

وتقول هي:

– أوانه آت، وكل آت يمسك بيد أخيه.

كانت سعاد قد فاجأتني بعد أيام من الزواج بطلب الطلاق. قالت:

– إذا لم تكن رجلاً فعيب أن تتزوج!.

طار عقلي وأنا أحس بالإهانة تصفعني، حاولت أن أشرح لها وأفهمها حقيقة مشاعري وما أنا فيه.. ووجدت أني زدت الأمر سوءاً. دفعتني مرة لأزور شيخاً في باب النيرب، ليقرأ لي، استقبلني الشيخ بجفاء، شرحت حالتي ولم أكمل، أسكتني وقرأ شيئاً ثم أعطاني حجاباً وطلب مني أن أحضر زوجتي في المرة المقبلة، أخبرت سعاد بما طلب الشيخ، ظلت صامتة لا تجيب بشيء، وفي الليل سمعت صوت نحيبها.. في الصباح لم أجدها،

صحت من الأعلى أسأل أمي عنها، أمي شهقت وهي تسأل إن كانت قد ذهبت إلى بيت أبيها، أنا أعلم أنها لا يمكن أن تذهب بمفردها، فهي لا تعرف الطريق، أمي تضع ملفحها لتخرج وتبحث عن كنتها التي أصبحت عرضها، تتردد قليلاً، وفي غمرة الحيرة يفتح أبي باب الدار ويعود بها، قال إنه وجدها جالسة على الرصيف قرب موقف الباص، كانت شاردة وبدون غطاء رأس، رأته ولم تعرفه.. قال لأمي وهو يتأفف:

– من أين أتيتم بهذه البلية؟!

عدت أفكر بالشيخ، وجدت أن ما طلبه من ضرورة إحضار الزوجة كان محقاً فيه، في اليوم التالي أقنعتْ أمي سعاد أن تذهب معنا إلى الشيخ، سعاد تهز رأسها ذاهلة، توافق وتمشي خلفنا بتسليم.. الشيخ يستقبلنا بابتسامة غامضة، ربما عرف أن الأمر قد ساء أكثر، هز برأسه كمن يريد أن يفهمنا أن هذا ما كان يتوقعه، ضيّق عينيه ونظر إلى سعاد باستغراب، ثم لوى شفته دلالة أن الوقت قد تأخر.. ألاحظه وأفهم من الآخر، أقول:

– إنها الآن بين يديك.

– أتمنى أن لا يكون الوقت قد فات.

– ماذا تقصد يا شيخي؟

– الجماعة أمسكوا بها وأصبح من الصعب تخليصها..

– كيف؟

– لن يخرجوا!

– من هم؟

– دعنا الآن من السؤال يا أخي!

– ما العمل يا شيخي؟

– العمل أن لا تسألوني عن شيء.

– ازداد قلقي، وتعلقت نظرات أمي المتوسلة بالشيخ الذي عاد فقال مسدداً عينيه في عينيَّ:

– بالنسبة إليك.. أنت صاغ سليم.. أنا لم أقل لك في المرة السابقة، لكنني الآن تأكدت، الآن لا بد من إخراجه..

– من؟

– قلت لا تسأل وإلا سحبت يدي!.

أمي رجته ووصلت لأن تبوس يده التي يريد سحبها.. وأخيراً قال:

– الأفضل دعونا نعمل..

نهض فجأة، وفك حزام الجلد من وسطه، ثم أسقطه بحركة مفاجئة على كتف سعاد.. صرخت، اهتز جسدها كله وانكمش، نظرنا أنا وأمي بذهول إلى ما يفعل، بدأ يضرب في أعلى كتفيها وفي أسفل خصرها، استلقت سعاد على الأرض وتكورت مثل جنين واشتد صراخها، أمي بدأت تصيح:

– يا شيخي أبوس إيدك يكفيها!..

الشيخ يضرب ويضرب وهو صامت يلهث، ثم فاهَ بعبارة:

– لا بد أن يخرج هذا الابن الحرام.

أفلحت أمي أخيراً في إمساك يده، تراجع الشيخ دون أن يشتفي من خصمه الذي في جسدها، هدأت الأصوات وظل اللهاث يتردد مع جسد سعاد المرتجف.

– الآن تأخذونها إلى البيت وتأتوني بها بعد غد.

يقول الشيخ.

أمي تتوسل:

– ارحمها يا شيخي أبوس إيدك، أما يكفي اليوم؟

ويرد الشيخ:

– شيطانها كبير يا حاجّـة، يحتـاج إلى عصـي وجنـازير لا إلى حـزام جلد.

في البيت استلقت سعاد كالقتيلة وظلت ترتجف في نومها حتى المساء، عندما أفاقت نظرت حولها بعينين زائغتين، أمي تكلمها وهي لا تسـمع، لم تأكل أي طعام، خلعـت عنهـا قميصـها فبـدا جسـدها مرعبـاً، كانـت علامات الحـزام ترتسـم عليـه زرقـاء ومتصـالبة، نظـرت أمـي يائسـة إلى السحجات الزرق المستقيمة في ظهر سعاد وهمست في أذني:

– إذا علم أهلها بما حصل سيفرموننا.

ظلت سعاد صامتة، شيء ما انطفأ في عينيها اللتين تنظران إلى الفراغ، لم تأكل شيئاً، ونحلت، انسحب لون وجهها وبات كاماداً بلـون العظـم، تذكر أمها مثل طفلة وتطلبها، أمي ترد عليها:

– أمك ستأتي يا عيني.. لا بد أن تأتي.

صعدتُ بسعاد إلى غرفتنا في الأعلى على السطح، آنستها بكلمات، أظن أنها لم تسمع منها شيئاً، أمضيت الليل بطوله أحدثها لعلها تسـتجيب، في النهاية بدا كما لو أنني أحدِّث نفسي، حاولت مرة أخرى، ضممتها إلى صدري كطفل وقبلت شفتين باردتين وعينين مفتوحتين على بلاهة. الليـل يتقدم، وشيء ما أخذ يراودني، فكرت أنها شـيطانة حقـاً، وأن مـا بهـا يجب أن لا ينطلـي علـيَّ.. اسـتحال ضـعفي في لحظـة إلى قـوة. قلـت في نفسي: الشـيخ لـن يكـون أشـد مـني في عقـاب شـيطانها.. رفعـت يـدي وصفعتها. صرخت سعاد بجنون وبدأت تعول.. ارتحت كمن قطع شوطاً في الطمأنينة وأنا أبصر في بكائها دليلاً على عودة المشاعر إليها، وجهت إليها لطمتين أخريين، أسقطَتْها الثانية علـى الأرض وظلـت تزعـق وترتجـف.

فاجأتني أمي بعيون نائمة وهي تصعد إلينا وتلطم صدرها، قالت:

– ماذا تفعل؟

قلت:

– لا حاجة للشيخ يا أمي بعد الآن، أنا سأعرف كيف سأخرج الشياطين من جسدها.. سترين كيف ستصحو!.

بكت أمي على صبا سعاد، دفعتني جانباً واحتضنتها، بعد قليل نامت سعاد على صدرها، وسدتها أمي على الكنبة وخرجَت، بينما ظلت الشياطين تتقافز في رأسي وتستوطن جسدي.

في ليلة أخرى أجلس قبالة هذا الشيء الصامت، فم تتدلى شفته السفلى، وعينان انطفأتا تنظران إلى الفراغ.. أحدثها فلا تبدو أنها في هذا العالم، يشتد ما بي ثم يتفجر، ألعنها وأسب أهلها فتخرج فجأة عن صمتها وتهاجمني مثل ذئبة، ترفع يدها في وجهي، ألوي يدها وأصفعها.. تندفع إلى الباب لكني أسده وأمنعها من الخروج فتستكين، وتُمضي الليل بطوله تنتحب على الكنبة.. أمُّها تحضر في الصباح.. ترى ابنتها وترتعب، تحدق في وجه أمي، ثم في وجهي، تلسعنا بشرر عينيها وتسأل.. أنا أنظر إلى سعاد في توجس، فأرى أمامي نصف عاقلة ونصف مجنونة، بنصفها العاقل تقف أمام أمها بعينين محمرتين أرقهما البكاء والأسى، ثم تصيح مع بكاء يتفجر:

– أمي ي ي ي!..

عينا حماتي بدتا زائغتين فقدتا كل صواب.. في تلك اللحظات أشيح بوجهي وأخفض بصري..

– أمي ي ي ي.. أنا لسه بنت يا أمي!.

اندفعت سعاد إلى أمها، وكشفت عن ظهرها ثم أرتها كيف حاولوا

إخراج الشياطين من جسدها، الأم شهقت و شخصت عيناها، لامست رأسها بكفيها كمن يعجز عن إدراك ما يحصل.. وفي تلك اللحظات ضربت سعاد وجهها بكفيها مرات واندفعت نحو الغرفة بجنون، أطلقت الأم صرخات وراءها تندب حظ ابنتها.. بصقت على الدنيا وعلى الرجال.. وقفت ذاهلاً وأنا أحس أني أفقد شيئاً من عقلي.. شيء ما بدأ يتكسر أمامي وفي داخلي.. أمي تصعد إلى السطح بصينية الشاي وهي تسمع أصوات الصراخ والعويل، أرادت أن تفهم ما جرى، لكن سعاد فاجأتنا في تلك اللحظات وهي تخرج من الغرفة وتمسك بزجاجة الكاز ثم ترفعها إلى فمها.. لم تستطع الأيدي تخليص الزجاجة من يدها، كانت قد ابتلعت شيئاً عندما قذفت بها بعيداً وركضت، اندفعتُ خلفها وأمسكت بها، لكنها أفلتت من يدي وانطلقت باتجاه الأسفل، فتحتْ باب الدار وخرجت.. كل من في الدار خرج وراءها، أمها تصيح وتولول، هي تعثرت واستلقت على الرصيف تلهث، نظرت إليها وأدركت أنه لم يتبق من نصفها العاقل شيء.. أنهضتها وجررتها إلى البيت، تجمع بعض الجيران، امتلأت أرض الدار في دقائق بخلائق أعرفها ولا أعرفها.. وذاع خبر جنون سعاد، تناقله الناس في الحارة، ثم امتد لينتشر في الحارات القريبة.

آلمتني فضيحة خروجها، والأدهى خبر جنونها الذي شاع.. سعاد لم تعد تتكلم، احتضنتها أمها وهي تبكي، كلمتها أمي ولم ترد بحرف، ها هي أمامي كأني أراها الآن، كانت تجلس على أرض الدار منفوشة الشعر تبكي وقد أحنت رأسها، أنهضتها أمها فاستكانت ومشت أمامها.. وقفتُ عاجزاً أتأمل وأرى سعاد أخرى غير التي أعرفها، أقول بيقين هذه المرة: سعاد فقدت عقلها. نظرت في وجهها كأنما أتأكد من ظنوني، لم تبادلني أيَّة نظرات، كانت ساهمة تنظر إلى لا شيء، أمي تجلس أمامها بوجه

يتوسل وتضع يدها على رأسها وتقرأ شيئاً، أمها بدت مذهولة وهي تلبسها ملابس الخروج، تجمع أشياء ابنتها على عجل، تسندها وتخرجان، سمعتها تدعو عليَّ وعلى أهلي جميعاً بالانتقام من رب العالمين..

بعد أيام تدفعني أمي برجاء لأن أزورها وأرطب خاطرها، وفعلاً كان قد تملكني أسى يرفق بها.. لكني لم أتوقع أن يحصل ما حصل، هناك تواجهني عيون كالسكاكين، لم تظهر سعاد أمامي، أبوها نظر إليَّ كمن يتذوق حامضاً، همَّ إخوتها بضربي بعد كلمات مريرة ابتلعتها وآثرت الصمت، الأخ الأكبر قال:

– لولا أنك في بيتنا لكان لنا معك حساب آخر..

ووجدت أني أضعف من أن أواجه عيونهم المسددة نحوي، فوافقت على طلاقها وانتهى بيننا كل شيء.

* * *

٣

كانت نهاية قصة زواجي من سعاد على هذا النحو قد كسرت شيئاً في داخلي، أو صدعت صدعاً لا يلتئم، ظل يراودني هذا الإحساس أياماً، لكن الأدهى ما جاء بعد، أقصد النظرات المتهمة الواخزة من كل من أعرف وربما لا أعرف.. ثم ما تلا من عيون تلاحقني، أخذت أحس بها في كل مكان، حتى صرت أسمع همسات تتدحرج خلفي عند البقال، أو لدى مروري قرب تجمع ما في الحارة.. وفي مسجد الحلوانية، أحسست بعيون المصلين تتفحصني، لكن الكلمات التي تفوه بها خطيب الجمعة كانت كأنما تتوجه إلى شخصي، وهي تنحو باللائمة على الظلم وأعوانه، بل كل من يظلم النساء، لأنهن مكسورات الجناح، فالرفق الرفق بالقوارير، والويل الويل لكل من يتسبب في أذيّتهن. وقد استحضر الشيخ كلمات من حديث نبوي تقول: «ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم..».

ما حصل ظل حكاية من سيرتي مع النظرات، حكاية لاحقة تتصل بما سبق، وأنا حقيقة لا أعرف كيف يمكن للإنسان أن ينسى ما حصل، أن يقتلع من رأسه شيئاً ما ظل يطارده ثم يقذف به بعيداً خارج رأسه وإلى الأبد.. كان أبي قد أفسد سنوات عمري الأولى، ظللت أشعر أنه لاصق بي، نظرت إلى أفعاله كأنها أفعالي أنا، حملت اسم العائلة وملامح تكاد تتطابق مع ملامحه، لكن السيرة ذاتها لم أحملها، على الرغم من ذلك لم يكن شيء في نظر أبناء الحارة يفرق فرداً في أسرتنا عن فرد، امتدت الألسن حتى القصيرة منها لتلوك سيرتنا، ثم تبصق هكذا لقمة، أبي بسيرته الذائعة أصبح

نحن، حتى الأطفال أخوتي صاروا أنجاساً أولاد حـرام، وهـذه عيلـة وسـخ، بلية الحارة وإذا شئت بالوعتها.. أظن أن أحداً لم يخطر في بالـه مـن تكـون عائلة العبادي هذه، أو يعرف أو سمع عن الشيخ الأكبر، البلد غربة، والغربة مضيعة الأصول حقيقة، وأنا في ذلك الحين لم أكن أفهم مـا يجـري، جـدي يجلس طيلـة النهـار في شـباكه، يسـبح الله ويظـل صـامتاً، كأنمـا يتأمـل في مشيئتة ولا يملك إلا التسليم بها، أبي قلما يكلمه أو يشعر بوجوده، لكن هل كان يحسب حساباً لأحد أصلاً!. الذي يفـتح عينيـه في الصـباح علـى الكفـر واللعن هل يهمه أب أو جد!. على أية حال كانت ساعات وجوده في البيـت قليلة، لكنها ساعات نكد أغبر يتنزل على كل من في البيـت، نحـن الصـغار نبكي، أمنا تصلها لطمة وتصد الأخـرى، جـدتي تصـيح وتهـدد بغضـب الله دنيا وآخرة.. كان يظهر في البيت بعد غياب يطول أو يقصـر، غاضـباً يسـب ويلعن، يشتم أمي ويضربها ثـم يخـرج، أو يمضـي سـاعات في سـهوم وربمـا يضحك دون سبب، جـدتي تصـبِّر أمـي أو تصـلي وتـدعو لـه، جـدي يظـل صامتاً، أنظر إليه وأحار بصمته.. البيت يهدأ حين يغادره أبي، عنـدما يمـد يده إلى جيبه ولا تخرج بنقود، يخرج هو إلى البازار، نرتاح أياماً وهو هنـاك، نعود للصراخ والشتائم عندما يعود، حتى كان ذلـك اليـوم.. قـوة مداهمـة مـن الشرطة حاصرت بيتنا، ظلوا يطرقون الباب، فيما كان بعضـهم ينزلـون علـى السطح الخلفي للدار ويفاجئون أبي في غرفة العلية وحيداً مع حمامه.. جدتي بكت ودعت على الجيران الذين اشتكوا من كش الحمام.. اقتادوا أبي ونزلـوا على الدرج، تركوا الحمام، العسكري أحكم قبضته على ذراع أبي وأمر جدتي بإفساح الطريق لتفتيش البيت، وقفت أنظر، فتشـوا البيـت كلـه، لا حقـتهم جدتي من غرفة لأخرى وعادت فدعت على أولاد الحرام، لم يتركوا مكانـاً، حتى المرحاض فتشوه، صعدوا إلى سقيفة المطبخ وبحثوا في كراكيـب جـدتي..

أبي ينظر إليهم بصمت وعيون تتوسل، عينا أمي تبدوان محمرتين في ملفح الشاش، ظللت ألاحق الوجوه، لم أكن أدري عما يبحثون، كان الحمام كله قد اصطف على السور يطل على ساحة الدار، لم يكترثوا به، تساءلت لماذا لم يأخذوه؟ لماذا لم يجمعوه في كيس خيش ويأخذوه كما يفعل أبي عندما يذهب إلى البازار ؟!.. جدتي تهز رأسها علامة أنهم ما كان يجب أن يصدقوا شكوى الجيران، وأننا ناس على قد حالنا ولا علاقة لنا بأولاد الحرام، هم يريدون أن يجروا ابني إلى مصيبة. قالت جدتي تحدث الشرطي.. وسع طريقه أمامها وانسل باتجاه الباب، تهلل وجه جدتي باقتراب الفرج برحيلهم، أبي نظر إليهم ببسمة ساخرة، أنا لحقت بهم إلى الباب، وقعت عيني على الخزانة التي بجنب الباب، ثبت عينيَّ على الطاسة المقلوبة، بدوره نظر الشرطي، ثم تابعته وهو يمد يده ويرفع الطاسة، ثم يفلتها ويمسك بقطعة ملفوفة بشيء ما ويشمها، يهز رأسه ويطلق زفرة، ثم يشير إلى الآخر أن يضع (الكلبشات) في يدي أبي ويلحق بهم، يقتادون أبي وسط صراخ جدتي وأمي التي راحت تولول، كل الجيران تجمعوا، وإلى المساء ظل أولاد الحارة، رفاقي في المدرسة، يصيحون: الحشاش انمسك.

اختفى أبي خمس سنوات كاملة، كنت خلالها أرى من يشير بالأيدي نحوي، أو يضع عينيه في عيني حتى أكسر نظري، وصار اسمي ابن الحشاش.. تأثرت جدتي وصمتت ثم ماتت بعد أيام، ومرت سنوات لا أدري كيف كانت أمي فيها تتدبر أمر معيشتنا، وكان يمكن لارتحالنا إلى حي آخر أن يخفف من وطأتها، لكن أمي لم تفعل.. سنوات تمر، يسعفني في آخرها انتقالي إلى حلب، لأمضي فترة دراستي الإعدادية، وألحقها بسنوات أربع في دار المعلمين، فأتخفف من النظرات أول الأمر وأريح عينيَّ إلى حين.

وأعود في الزمن الآن إلى ما بعد انفصالي المرغم عن سعاد، حيث أصبحت فكرة الانتقال إلى مدرسة في المدينة هاجسي اليومي، أردت على أي نحو أن أحزَّ هذا الماضي بسكين وأرميه ورائي، بعيداً.. نظرت بلهفة إلى سكن جديد ووجوه جديدة وأيام أخرى، أسلُّ فيها نفسي من نفسي.. فتكررت مراجعاتي لمديرية التربية، وتكرر الرفض وإهمال الطلب، ولم أيأس، صار نزولي إلى المدينة بهدف التوجه نحو المديرية، ومر وقت صرت أرى فيه الخيبة قبل الذهاب، وفي مرة أجد نفسي على الرصيف الدائري للقلعة أسير بتكاسل، أفكر بالعودة، لكني أعود فأجر خطاي، يظهر لي خلف الأشجار مبنى التربية بطرازه الأثري، بمقرنصاته ونوافذه العالية، يستلقي غافياً عند أقدام القلعة، أتقدم ببطء وأعبر حديقته الظليلة.. في البهو المعتم أطل على غرف مفتوحة تفوح منها رائحة المكاتب بطاولاتها الضخمة التي من خشب الجوز، أدخل إلى غرفة الموجه التربوي، أنظر يائساً إلى طاولته الفارغة، أحدهم يجلس إلى المكتب المقابل، أتقدم، أسأله عن الأستاذ جهاد الياسين، ينظر إليَّ وعلى فمه ابتسامة ساخرة، يقول بصوت رخو:

– انظر ألا ترى!.. هل هو موجود؟!.

أتجاهل كلماته، أمسك بكرسي قريب وأهمُّ بالجلوس، يلاحظ مستاءً كمن اضطر للخروج عن وقاره:

– أستاذ هذه ليست غرفة انتظار، إذا سمحت، الأستاذ ذهب في جولة، انتظره في الخارج!.

أخرج إلى الخارج، أتسكع قليلاً في الممرات المعتمة، أعود ثانية وأتصفح الغرفة، هذه المرة أنفض يدي من أمل عودة الأستاذ من الجولة، أتوجه خارجاً، لكنْ تقودني قدماي إلى أسفل، ها هو الآذن في عطفة

الممر، أسأله عن غرفة ما للانتظار، ينظر إلى وجهي ويظل صامتاً، أتركه وأنعطف، أنزل درج القبو، تطالعني غرفة وحيدة هناك، على بابها خطت كلمة (المسجد)، أقول هذا مكان مناسب للانتظار والنوم، كان يجب أن أعثر عليه من البداية، أدخل، وأجد نفسي وحيداً في الصمت، أخلع حذائي، أتثاءب وأجلس أنتظر على بساطه الوحيد الرطب.. وأفكر: هل هي البداية الخاطئة التي انزلقت أقدامي فيها؟!. المنعطف الأقل حظاً والأكثر امتلاءً بالأوحال، الأوحال التي طالما هربت منها!.. ولكن كيف قادتني أقداري لأكون معلماً في المرحلة الابتدائية، هذا أنا كما أنا منذ سنوات، ولا أمل في أي تغيير، لا أقول هذا من باب اليأس، فمثلي لا يطمع في آمال وأحلام، لكنْ ماذا أفعل وأنا أجد الواقع يسير في سبيل لا تبدو معه صفحة حياتي تشي بتحسن أو تغير. أمضيت سنوات أخدم في المدارس التي في الأطراف، وسط القرف، حيث السكن العشوائي والأزقة، أوحال الشتاء وأتربة الصيف، والقاذورات التي تفيض من نفايات البشر، ومن المجاري التي تسير مع السائرين عارية مكشوفة، بل حافية شأن الأطفال والماشية.. هم يرفضون جميع الكتب التي أرفعها إلى دائرة التوجيه التربوي، أطلب فيها الانتقال إلى المدينة.. سنوات التعليم في الريف قضيتها، البداية معلم صف وحيد، ثم قذفوا بي بعد انتظار إلى جهة أخرى بحجة الشواغر، منذ سنوات صار من حقي أن أنتقل إلى المدينة، ليس إلى المدينة كما أحلم، بل إلى المدارس الأقرب إلى مركزها، فهذه مسألة تحكمها الشواغر والقدم، كما أقنعني السيد الموجه التربوي، في آخر زيارة له لمدرستنا التي في حارة (التبانة) كما يسمونها هناك.

من طالب داخلي في معهد إعداد المعلمين إلى حارة التبانة، هذه المسيرة أصبح عمرها أكثر من عشرة أعوام.. لكن هدفي واضح محدد، لم أغفل عن

السعي وراءه، وخاصة بعد بليتي بجنون سعاد، وما تلا ذلك من نظرات تتهم، وعبارات عابرة تسقط في سمعي.. على أية حال، أنا أريد ألا أهدر بقية عمري في المدارس التي في الأطراف، وهذا من حقي.. لكن نصيبي هو نفسه في كل مرة أزور فيها الموجه التربوي، يعود فيسألني إذا كنت قدمت طلباً، أجيبه بنعم، يقول: ولم تنسّ أن تضع رقم عضويتك؟ وفي كل مرة أذكره أني غير منظم، فيصمت وينظر إلى الفراغ، أعود فأسأله، هذه المرة يصر ألا ينظر في وجهي، بل يرد على أسئلتي كأنما من وراء حجاب، هذا إذا تكرم وتفضل بالرد، والعبارة التي تتكرر: «خليك فترة الآن، ونحن ندرس طلبك.. وأرى أن لا تأتي.. نحن نرسل إليك إن جدّ جديد..»

أتنبه من جلوسي الطويل في مسجد المديرية، أنهض وأتحرك بتثاقل، أتناول حذائي وأصعد الدرج.. أعود فأقف أمام غرفة الموجه، أجدها فارغة هذه المرة، ومن وراء الباب المفتوح يبرز الآذن يحمل مكنسته.. ينظر إليَّ كشيء مهمل، يتجاهلني.. يعود فينظر.. بدوري أتأمل سحنته كأنما أسأل.. يقول بصوت مرتفع:

– التربية انصرفت.. ما الذي يبقيك هنا؟!..

أقول:

– هل رجع الأستاذ جهاد؟..

لم يرد على السؤال.. أمشي في الممر المعتم نحو الباب الخارجي.. في الحال يغشى الضوء عينيَّ، وتظهر القلعة أمامي، أجدها عالية شامخة، أتمهل لحظات أرنو إلى جلالها فتبادلني النظر، ولأول مرة بدت لي غامضة تتطلع نحوي بعين وحيدة..

أغادر مبنى التربية، وأقترب من قوس باب سوق الزرب، الذي بدا لي

كسرداب أسود، ألتفت فألقي نظرة أخيرة على القلعة، ثم أغوص في السوق المعتم نزولاً باتجاه الجامع الأموي، أدخل من بابه القبلي، وأنغمس في جلال مقام سيدنا زكريا، أقرأ له الفاتحة وأنظر إلى أطلسه ونحاسه وزيته وخضرته، ثم أخرج مطمئناً إلى ساحة الجامع، أسير مرتاحاً في صحنه الفسيح، فترفرف هيبة المكان على روحي، أسعى إلى وسط باحته وأتوضأ.. أتوجه نحو الرواق القبلي، حيث يظهر لي جمال الواجهة الشمالية، أصلي فريضة الظهر قضاءً، وأجلس مستنداً إلى برودة الجدار متأملاً وجوه الزائرين.. ويلامس عينيَّ وَسَنٌ حلو، ونظرة، نظرتان.. أنتبه إلى أعمى حارتنا الشيخ عبد الجليل وهو يقرأ للنساء، أتأمله وأنتظر حتى ينتهي من قراءته، أقترب منه وأسلّم، يعرفني من صوتي، يرد على الفور:

– أهلاً بالأستاذ مطيع.

ويمسك بيدي ويرجوني أن أزوجه كالعادة.. هذه المرة كان طلبه ملحًّا، قلت:

– يا شيخ عبد الجليل انتظر حتى أتزوج أنا..

يرد الشيخ:

– لا! لا تتهرب! أنت جربت حظك.. على كل حال أنا في طريقك حتى تزوجني، ولا فرق عندي.. أرملة، مطلقة، عانس..

أحسّ بصمتي فعاد وأمسك بكفي.. دعكه قليلاً وابتسم في شرود.

أترك الشيخ عبد الجليل لزبائنه، وأجلس ملتمساً برودة الحجر الأملس، أطوف ببصري ماسحاً الجدران والأعمدة والأقواس، وأبدأ أحصي عدد العميان الذين يقرؤون الأوراد، أو المسبحين الصامتين تدور رقابهم بين الأكتاف.. في لحظة ما أجد فيهم منجاتي.. هم لا يعبؤون بالنظرات كما أعبأ أنا، وهذه العاهة الربانية وجدتها منحة ثمينة، نعمة لا نقمة،

فأنت على الدوام لن تجد من يحدق فيك ويطيل النظر، لن ترهق روحَك سهامُ العيون.. يطيب لي العمى، وفي الحال أغمض عينيي، وأدخل في سرداب العدم، يبدو لي المكوث في الغياب حلواً، لذيذاً ومريحاً، بعد أن انطفأ ما أمامي، وبقي نور يشع.. أغيب في صحوه الجميل، يتغلغل في داخلي، أجد نفسي بعد لحظات كأنما أطير وأحلق بعيداً وعالياً.. يخفّ جسدي وتصفو روحي وتشف.. أقول هذا أجمل خلاص.. أغضن وجهي وأحرك رأسي بالتفاف متوازن.. ترفّ حمامة قربي، لا أراها، أشعر بها تتقافز أمامي، أستحلي لعبة الغياب، وتتصاعد من نفسي مسرات كأنما من أعماق دفينة فتعبر صحوي، ترقص أحلامي وتدوس بأرجلها قسوة العيون.. وفجأة يرتجف الجسد.. تغوص الأحلام في العتمة وينطفئ السراج، كانت يد أحدٍ ما قد دسّتْ في يدي المدودة قطعة نقود.

أغرق في الخجل وأنهض فأودع الشيخ عبد الجليل ثم أغادر الجامع.. أمشي طويلاً باتجاه الحلوانية، حيث الحارات المتراصة، لا تعرف لها عدداً ولا أولاً من آخر.. أترك المدينة تتراجع وتتضاءل خلفي، وأحس أني أنسحب من المسرات إلى الخيبة والأحزان، ويتناهى إلى خاطري في تلك اللحظات أن المدينة أمُّ الحضارة لا القرى، المدينة خلاصة جهود الإنسان عبر التاريخ لتحسين صورة الحياة وجعلها محتملة، المدينة ثمرة ناضجة، ومائدة عامرة، وما شئت من صفات الامتلاء والشغف والسلوان.. للمدينة طعم آخر، هو طعم الحرية ذاته، طعم التفرد والانعتاق.. من هنا سميتها المنقذ من وخز العيون، وظللت أتلهف إلى ذكرى رؤيتها لأول مرة، أستحضرها متى سئمت من المدى الأغبر، متى داهمتني النظرات أو حاصرتني الأعين.. كانت قد سحرتني حقيقة، عندما قادتني يد أبي يوماً في أسواقها وساحاتها، وسط الزحام والحركة.. فتحت أمامي نافذة أخرى

للحياة، لم أكن قد أطللت منها يوماً، فكرت لحظتها أني في دنيا أخرى غير الدنيا، كل شيء بدا لي هنالك مرسوماً بمهارة فنان، الشوارع والأرصفة، المحلات الكبرى وصالات السينما والسيارات، الحارات والساحات والحدائق.. وحتى الناس بدوا لي مخلوقات من طينة أخرى.. ظلت الذكرى الأولى تدفع بي إلى التطلع باستمرار نحو عالم بطعم مختلف، وظل حلم الإقامة بها يفوق أي حلم، الدهشة بأحيائها وبالبشر، ولا سيما في الأحياء الأرقى، المغسولة بالنظافة والبريق، هناك في مركز المدينة، وفي شارعها الأشهر المعروف باسم شارع بارون، نسبة إلى أشهر فندق وأعرقه في المدينة في الخمسينات، ثم على امتداده مقهى البرازيل، وأمامهما في الجهة المقابلة مقهى بالانجيان.. وحقيقة الأمر أن هذه الدهشة لم تكن هي الأكبر، بل كان ثمة شيء بعينه قد شدني بقوة، لا أجد معها طوال السنين التي انصرمت إمكان الفكاك، كان منظر السياح الأجانب بالبرنيطة القش والشورت الخاكي، قد سلبني القدرة على النطق، بل كان الأهم بالنسبة إليَّ أني مهما نظرت في وجوه أولئك المنتشرين بكثرة هناك على الأرصفة، وفي حديقة الفندق، وعلى مقهى الرصيف، فإني لن أثير انتباه أحد فيبادلني النظر، أو يحدق فيَّ.. وبت أتأمل هيئاتهم، أتطلع في عيونهم مباشرة، لأتأكد في كل مرة من إحساسي، ولم ألفت نظر أي منهم، وهذا ما سيظل يبعث راحة عجيبة في نفسي، إلى حد أني أصبحت أرى في ذلك إمكانية التخلص نهائياً من عقدتي التي عقدتني فانعقدت.

حلب، حلب، سأتزوج في المستقبل، وستكون لي ابنة أحبها، وسأسميها حلب.

* * *

٤

ليس في الأمر عقدة تبعث على القلق، أنا أعلم ذلك، وأعلم أن الزمن كفيل بحل أكبر العقد، حياتنا ذاتها، كل ما في الأمر أن سيرة أبي وسجنه، ثم قصتي مع سعاد وما حصل من فضيحة، قد جعلني أكثر انتباهاً للعيون، بل أشد التقاطاً لأية نظرات، أظن ذلك!. لكني أعود فأتساءل: متى لبستني تلك المشاعر فأصبحت كثيابي اللاصقة بجسدي؟.. السؤال في كل مرة سيقودني إلى إحدى الذكريات التي لا تزال تهيمن على جميع ما عداها في طفولتي الأولى، حيث أجدني وأنا أقف جامداً في الحارة القديمة، مسكن الجد، في حي الحيدرية، المتاخم للريف الشرقي للمدينة، قبل الانتقال الأخير إلى سكني المنفرد في حي باب الله..

من بعيد تعود الصورة حيث أقف متابعاً بعيني معزاة تتقدم باستقامة من دالية جدتي، تهاجم الجذع النحيل وتسلخ لحاءه الغض بأسنان كالفأس.. كانت جدتي قد زرعت الدالية في الشتاء الماضي قرب باب الدار لتجعلها تتسلق إلى عريشة القصب التي نصبتها على السطح، وكانت قد شدتها من هنا وقومتها من هناك بأربطة وأسلاك.. وقفت أتأمل وأتابع انقصاف العود وتثنيه، المعزاة أطبقت بأسنانها هذه المرة على فرع غض وثبتت قائمتيها الأماميتين بتكالب على الجدار وشدت.. تقطعت الأربطة وانسلخ الغصن عن جسد الدالية، فجرت المعزاة به مبتعدة، كانت جدتي قد خرجت في تلك اللحظات وشهدتني أقف وأتأمل.. نظرت في عينيَّ أولاً، ثم التاثت وفقدت عقلها وهي تلاحق المعزاة، إلى أن أفلحت بضرب

بطنها بقدم هائجة، المعزاة تقفز هاربة، تجر معها لبلاب الدالية بطوله الملآن بالأوراق الخضر، لاحقتها جدتي بالشتائم والدعوات المرة، وشاهدت دمعة تنحدر من عينها وهي تعود خطوات، لتقف أمام حوض الدالية وتنظر إلى ما حل بها من خراب، وكأنها انتبهت إلى شيء فوقفت الآن ونظرت إليَّ مستغربة وجودي بقربها.. يطل جدي بعد قليل من باب الدار يستطلع ما جرى، يقول لها معزياً:

– لماذا تبكين! أنت تعلمين.. من المستحيل أن يجتمع عرق أخضر ومعزاة.

مرة أخرى شهدت قطيع الماعز يقترب ويتشتت في أنحاء الزقاق ناثراً بعراته السود، ووقفت أتأمل ما أرى.. انفصلت معزاة عن القطيع وسارت بشكل موارب، توقفت أمام باب الدار، رفعت رأسها وتأملته لحظةً، ولما كان بلا قفل نطحته ودخلت في الدهليز المفضي إلى أرض الفسحة الخضراء، في لحظة تالية تبعتها معزاة أخرى، اقتحمت الدهليز خلفها، تقدمت الاثنتان من الزرع وسحقتا سريعاً عدداً من الأغصان، خرجت جدتي من غرفتها بسحنة غضب، لحقت بهما، قفزتا بسرعة بهلوان إلى النافذة المقابلة، وحكتا قرونهما بها، ثم قحمتا شيئاً من خشب الإطار، هذه المرة استطاعت جدتي أن تلقي خلف المعزاتين قبقابها الخشبي الذي رنَّ مرتطماً بالجدار، ارتقت المعزاتان بقفزة هائلة، وانطلقتا باتجاه الباب الخارجي، تشكت الجدة ودعت على عمرها، وكأنما انتبهت إلى وجودي قربها، فأطلقت للمرة الثانية من عينيها مباشرة نظرة ثاقبة متهمة، جعلتني اشعر أني المسؤول عما حدث. وحقيقة الأمر أن جدتي قد بدت في أيامها الأخيرة شديدة الغضب، تقبع عقدة كبيرة بين عينيها، وصرت ألاحظ بنظرات سادرة طويلة كيف بدأت تنمو شعرات شامات وجهها وأسفل ذقنها.

ظهر جدي في النافذة يتأمل ما جرى، وتحركت شفتاه بكلمات.. أبي هدَّأ جدتي المرتجفة، قال لها:

– لا عليك أنا سأكلم صاحب الزريبة.

ردت هي:

– نعم أَفْهِمْهُ! العمى في عيونه، أيظنُّ أن الحارة أصبحت كلها زريبة له ولحيواناته؟!.

ظهرت أمي تتساءل عما يجري، وعندما فهمت ابتسمت وقالت:

– سنتحملها يا امرأة عمي، فنحن نشرب من حليبها كل يوم.

ودفعت إليَّ بسطل الحليب لأملأه وأعود كما في كل يوم.

جلس جدي في الشباك صامتاً كأنما يعود ليتأمل ما جرى، بعد قليل ارتفع صوته يواسي جدتي:

– في الضيعة يا مخلوقة الله لم نفلح في رؤية شجرة توحد ربها حتى يكون لنا هنا عرق أخضر، في كل حياتي هناك لم أستطع أن أرى شجرة تنمو وتسلم من أذى الماعز، ليس غير التراب الخانق في الصيف، والطين الثقيل في الشتاء، طين عاقر لا يلد عرقاً أخضر يوحد ربه. أتعلمين!.. حسب ما رأيت، طوال عمري، حيث يكون الوز والدجاج والأبقار والخراف والماعز يكون القحط.. أرض قرعاء.. حيوانات الله هذه تعطيك شيئاً، أشياء، لكنها تأخذ كل شيء، الماء والخضرة، تخمد أنفاس الطبيعة، تدوس كل ما فيها، تفنيه على الآخر، حتى تأخذ حياتنا، وماذا تخلف في ظنك! البعر وروائح الزرائب والخمام.. شيء يقصر العمر.. دعينا من كل هذا.. لقد زهقت روحي..

في مرة تالية سيكون شعوري بعبء النظرات أقوى.. كنت واقفاً أتأمل جدي وهو يجلس في مكانه المعهود في أحد شبابيك الغرفة المطلة على ساحة

الدار.. يسهم قليلاً ثم يعود ويتطلع نحوي، وأمي وقد ارتفعت بطنها أمامها شبراً تشتهي لحم الدجاج. أبي يخرج يده من جيب بنطاله بخمس ليرات ويدفع بي إلى جارنا الحاج موسى صاحب الخان الأشبه بالزريبة.. زريبة عجيبة، كنت أراه يخرج منها كل يوم الجمال والحمير والخرفان والماعز، ومنها تسرح أيضاً في الصباح وطوال النهار في نفايات الحارة الملقاة هنا وهناك أسراب البط والإوز والدجاج.. في الخان وقفت أتأمل، الساطور يضرب اللحم، ترتفع اليد وتهوي، ينشق العمود الفقري للخروف نصفين، يعض الحاج موسى على الساطور ويحمل الشقة التي انفصلت فيعلقها على كُلاب آخر.. ينتبه لوجوي، يثبّت عينيه في وجهي، يتأملني، ثم يكف عن أيّ عمل. أعطني دجاجة.. قلت محاولاً أن أقطع ذهوله، ومددت يدي بالليرات الخمس، نظر الحاج في وجهي وعلق ابتسامة ظفر على فمه، ثم أمسك بوزة سوداء كانت تتهادى إلى جانبه، وجعلني أقبض بقوة على قدميها المرصوصتين في يده.. أمسك بيدي الأخرى وجعلها في حضن كفه، تناول منها الليرات الخمس، ثم عاد ودسها في جيب قميصي بعد أن قرص شفتي مرسلاً سلاماً إلى أبي وجدي..

أبي أخذ الوزة مني وابتسم، وعندما أعدت خمس الليرات مع السلام ضحك بانشراح وأفلت من يده الوزة التي ركضت في أرض الدار تميل على الجانبين كما لو أنها حبلى تخوض سباقاً.. لعبتُ مع الوزة، وبقيت أركض خلفها وجدي يتطلع من شباكه نحونا.. سأرى من سيسبق أنت أم الوزة. قال أبي.. أنا ألهث خلف الوزة وأشعر بعطش.. أقف وألتقط أنفاسي، أحمل الكأس المعلقة على الجدار وأمدها في داخل الخابية، أشرب بارتواء، أعود وأجري خلف الوزة، أرى أنها عطشى ويجب أن ترتوي فأرتمي فوقها وأمسك بها بكل قواي، أضمها إلى

صدري.. تحاول هي أن تفك جناحيها، تلوح برأسها على الجانبين.. أسير بها نحو الخابية، جدي يصيح بي أن أفلتها.. أتقدم.. تضرب كتفي برأسها كما لو أنها تستخدمه عصا.. أصل إلى حافة الخابية وأمي تصيح.. أدفع برأس الوزة في الفوهة المظلمة.. تنتشل نفسها، تنفلت من يديَّ وتتحرر جميعاً في بطن الخابية، رشاش يتصاعد من الفوهة مع صوت زعيقها، الخابية تهتز وتكاد تنقلب، أمي تركض نحوي.. أنا أبتعد قليلاً.. أمي تمد يدها في بطن الخابية تحاول إمساك الوزة، تخرجها سريعاً وعليها شطبتين حمراوين، بدا ظهر كفها كأنما ضرب ببوز سكين.. يجن جنونها وترفس بالخابية بعيداً.. يتطوح البطن المغزلي للفخار، ثم ترتطم الخابية بالجدار وتتشظى قطعاً حادة كثيرة، ومن بين الكسرات والماء تنتفض الوزة واقفة، مرتعبة ومبلولة، تصيح بجنون وتهرع باتجاه الغرف والأرجل.. داخت ووقعت.. ثم نهضت وعادت فتعثرت، أبي أمسك بأقرب سكين.. وحيث صادفته أقرب بالوعة، أمسك بالرأس ومرر سكينه سريعاً وسط العنق الطويلة، وارتفعت في الحال نافورة حمراء مقوسة، تضاءلت قليلاً ثم تحولت إلى خيط سريع يسير نحو البالوعة، تتصاعد حمرته وأبخرته.. نظرت إلى الجسد الذي خمد بعد أن اهتز مرات قليلة.. تجمدت عيناي وأنا أشهد موت الوزة.. وفي تلك اللحظات.. في تلك اللحظات وحسب، التفتُّ إلى جدي، فوجدته يحملق في عيوني ويديم النظر.. كانت نظرة غريبة، أصابتني بشيء من دوار..

الحقيقة أن جدي تطيّر مما رأى، ورفض أن يأكل لقمة واحدة من لحم الوزة.. وفي صباح اليوم التالي توجه إلى أبي يأمره بحسم أن يبحث عن دار أخرى للسكنى في غير هذه الحارة..

كان عمل أبي في بيع الخردوات، سواء في سوق الجمعة أو بازارات الأرياف، قبل سجنه؛ يدفعه باستمرار لتغيير البيوت المؤجرة طلباً للقرب من أماكن الأسواق، علماً أن أكثر ليالي البازار كان يقضيها نوماً على البسطة حتى الصباح.. قليلاً ما كنت أراه في البيت، وعربة البازار نفسها كانت كافية لنقل أثاث يعد بضع قطع مع أواني المطبخ، ولاحظت كيف أصبحت حياتنا أشبه بحياة النَّوَر الذين يخيمون قربنا على الدوام، دائماً على مرمى حجر، وأينما حللنا، ولم أكن أنتهي عادة من كشف معالم المكان أو الغوص في أسراره، حتى يتم الانتقال إلى آخر، لكن لا بأس! فشغف ما كان يدفعني وراء الأمكنة.. جدي وحده هو من ظل يتأفف من هذا التنقل المتواصل، لذلك أعجب كيف يأتي الانتقال هذه المرة بطلب منه، فتشت وقتها عن مبرر يدفع جدي لمثل هذا الطلب، لكني لم أجد.. بعد يومين اثنين أبصر العربة واقفة أمام الدار تتلقف فرش الصوف وتكايا القطن والبسط والأواني.. قطعنا حارات وطرقاً ترابية ليحملنا الإسفلت أخيراً ويضعنا في أقاصي حي الحلوانية، دار عربي بماء وكهرباء، وحارة تناسلت من قرى عديدة، لم أجد في المكان فارقاً يذكر، ولم أدرك الحكمة من أمر جدي بالانتقال، عدت من جديد إلى ما سميته لعبة كشف الأسرار، في الحارات والبيوت وعلى الطرقات، لكن هنا ثمة فارق، فقد بات علي أن أخوض في الأوحال وأقطع حارات تمتد حتى أصل إلى مدرستي الابتدائية في الطرف الآخر من حي الصاخور، المتاخم لحارات الحلوانية، وكالعادة اختار جدي شباكاً في الدار وجلس فيه، لم يَرُقه وبدا متضايقاً، أيام قليلة بعد الانتقال وأخذت صحته تسوء، ضجِرَ من شباكه ومن أرض الدار ومن كرسي القش تضعه الجدة على الباب لجلوسه في المساء.. انقطع في غرفته أياماً، لم يعد يغادر البيت للصلاة في المسجد

القريب، وصار يخرج من غرفته بهزاله وصفرته، فيتبرم من كل شيء ويحوقل، ينظر في وجوه مَنْ حوله ويحوقل، ومن بين الوجوه يديم النظر في وجهي، يقطع عليَّ لهوي، أنظر إليه خلسة، أراه لا يُحوّلُ عينيه عني، بعد أيام لم يعد يُرى في أرض الدار، احتضنه فراش المرض، ظل يسعل على نحو متواصل، يشهق طويلاً ثم تتسارع أنفاسه، عندما اجتمعنا حوله، فرت من عينيه دمعتان.. داراهما ثم قال:

– أيامي أصبحت معدودة، لكن البكاء يخفف، أنا لا أبكي على نفسي، أنا أبكي على من بقي.

عاد وخصني بنظرة..

– أبكي على الدموع من بعدي!.

وتلاحقت عبارات جدتي وأبي تخففان عنه.. بدا جدي كأنه لا يسمع شيئاً من كلمات من حوله، وظل يلاحقني بنظراته الصامتة، ينظر في وجهي ويتحير.. ووجدت جدتي ترشقني بعينين قاسيتين وتدفعني دفعاً من أمامه، تشير بتأفف إلى الخارج وتأمرني ألا أعود.. وقفت أرقب جدي من خلف الزجاج، شيء ما كان يشدني لأن أكون قربه في تلك اللحظات، عندما ثقلت أنفاسه نهض قليلاً وأخذ جرعة ماء، ثم عاد وتمدد في فراشه، عدت وتسللت إلى غرفته، هذه المرة أوكلت إليَّ أمي مهمة الجلوس قرب رأسه، أخذت أحرك كشاشة كرتون بيدي، أجلب إليه بعض الهواء، ومع صفير الأنفاس المتلاحق ظل يلاحقني بنظراته، وهكذا أصبح نظره إلى وجهي مهمة تفوق مسألة الانشغال بمرضه، ووجدت نفسي أقول له:

– جدي أنت تنظر إلي دائماً، من يوم الوزة إلى الآن حتى أصبحت عيناي تؤلمانني كما يؤلمك صدرك!.

هـز رأسـه وأطـال النظـر هـذه المـرة، ثـم همـس بكلمـات أقـرب إلى الحشرجة:

– إذا عاد أبوك اليوم، في المساء، قل له إنـني أوصـي بـأن تنتقـل إلى حارة أخرى.. تلك وصيتي، لا تنس!.

أطبق جفنيـه، صـفر صـفرة واحـده ونفـث هـواء كمـن يطفـئ شمعـة، انتظرت أن يفتح عينيه، لم يفعل، كان قد سكن إلى الأبد.

جدي الصامت الذابل يرحل من شباكه، ظللت طويلاً أنظر إلى الفـراغ الذي خلفه وكأنه عين محملقة.

* * *

٥

صورة عمر لا تفارقني، هو الآن القريب البعيد، ربما لا تفصلني عنه سوى جدران قليلة، عمر العريان وحده فيما مضى كان شيئاً آخر.. تقرَّب مني فتآلفنا سريعاً دون أن تشغلني عيناه، ظلَّ الصديقَ الأوفى سواء في أيام الدراسة في دار المعلمين، أو في سنوات الخدمة الإلزامية.. افترقنا بعد التسريح وغابت عني أخباره.. ثم التقيته مصادفة في بهو المديرية بعد غياب طال أكثر من عشرة أعوام، رفع حاجبيه بدهشة ينظر في وجهي غير مصدق، فتح ذراعيه كما لو أنه يريد أن يجمع بهما كل ما مضى من ذكريات وعانقني، عاد وشد على يدي بقوة، لحظات معلقة تمر، أسأله عن حاله، يجيب بكلمات ما، يلحقها بما يفيد أن يعلم عن حالي أنا.. أرد بكلمات مجاملة، يعود فينظر في عينيَّ ويثني على أيام الدار والإقامة الليلية، يذكرني بأشخاص ومواقف لا تنسى من دورة الأغرار.. سألني عن عملي، وأبدى استغرابه من أن أكون لا أزال أعلِّم في المدارس التي في الأطراف، نقترب من مقهى السعد في باب الفرج، يدعوني إلى فنجان قهوة، بعد قليل ينضم إلينا عدد من أصدقاء عُمَر، نتعارف، تختلط الأحاديث وأعود إلى عمر، وأجد نفسي أسأله عما إذا كان قد تزوج، فيرد بأن لذلك حكاية سيحكيها لي، عدت وسألت وأنا ألمّح إلى أمر:

– ما أخبار الرفاق؟

أجاب عمر بحيادية جعلتني أفهم أن الرسالة لم تصله، فعدت أسأل:

– أعتقد أنك انتسبت أخيراً إلى الحزب الشيوعي!.

رد لأول مرة باستياء:

– ماذا تقصد بأخيراً!. أنا من البداية في صفوف الحزب، هذا ليس سراً!

صمت أنظر إليه، فسألني:

– لكن أنت!. ماذا عنك؟!. لا بد أنك تزوجت!

قلت:

– وطلقت..

أثارته الكلمة، فالتفت إليَّ يرغب في أن يعرف كل شيء.. قلت:

– دعك من ذلك لأن السيرة تعذبني باستمرار.

أصرَّ أن أتحدث، قال:

– إذا شئت جلسنا منفردَين..

لم يكمل، اعتذر من رفاقه وجلسنا إلى طاولة أخرى.. بدأت بسرد كل التفاصيل فيما يتعلق بقصتي مع سعاد، حاولت أن أكون صريحاً ولم أخف شيئاً.. عمر يبدو مصدوماً يتابعني، هو لا يريد أن يصدق ما يسمع.. عاد ودقق في ما أقول، طلب إعادة بعض التفاصيل، لم أكن أحسب أن قصتي ستثير اهتمامه وتدفعه للتأسي، فقد نظر إليها على أنها حصيلة قهرية لا بد أن تتسلسل فصولها وصولاً إلى النهايات الأشد مأساوية.. إنها مصائر يا صديقي.. مصائر تعززها باستمرار مجتمعات التخلف والانقسام الطبقي، بحيث نفوز نحن في النهاية بحصة الأسد من كل الظلم والفشل والأحزان!.

صمت يفكر ثم عاد فقال:

– هذا نصيبنا يا مطيع! صدقني أنا أنظر إلى قصتك على أنها قصة الشعب المقهور الذي يهرب من الحياة إلى شكل من أشكال الموت، عندما يكون الموت أقلَّ قسوة، عندما يكون الحضن الأكثر رحمة ببني البشر، وإلا لماذا يدفع

الإنسان بروحه إلى الهاوية إذا كان بمقدوره أن يعيش في المسرات، أقصد في مجتمع العدالة.. أنت تفهمني!.. أنا أنظر إلى ما جرى على أنه إحدى قصص كثيرة عن حياة المقهورين، ممن يعانون مع مطلع كل شمس وفي غياهب أي ليل أو أي سجن.. لكن الحياة لا تموت، هي أقوى من أن تقهر، أنا أعلم أن ذلك لن يطول.. النضال كفيل بتخليصنا من شرك الجنون والعجز والهلاك، ووعينا بالضرورات يقودنا إلى الإيمان بحتمية التغيير.. أنا لا أريد أن تنظر إلى ما جرى على نحو ما ذكرت من القسمة؛ فتسمي نفسك جلاداً وتسمي زوجتك ضحية!. أنتما يا صديقي معاً ضحية. أنت لست جلاداً إلا بقدر ما تجلد نفسك على فعل لم تتسبب به أساساً.. هنالك الجلاد الأكبر، الجلاد الذي قادك وقادها إلى النهاية الظالمة.. الظلم الطبقي هو جلادنا يا صديقي! لكن هذا الظلم شعاع، كيف؟! إنه شعاع نسير خلفه إلى ما هو أبهى وأجمل، إلى أيام رغد لم نعشها بعد، وما لم يكن الأمر كذلك سيصبح الظلم قبراً لنا جميعاً، أنا أريدك حقاً أن تخرج من هذا السرداب المعتم الذي سجنت نفسك فيه، اخرج إلى الحياة ثانية وصافح النور، انظر من تحب وتزوجْ.. لا يمكن أن يكون ما حصل لك هو النهاية!. كما قلت لك: إذا لم تكن معاناتك شعاعاً فكل الظلم خسران، أقصد: إذا كان لقهرنا من قيمة فهي أن يكون خلاصاً وسحقاً للظلم وأعوانه.. أنا ربما وجدت في علاقتك بزوجتك وما انتهت إليه على النحو الذي ذكرت أمراً غريباً وقاسياً فعلاً.. لكني أرى النهاية خلاصة طبيعية للجهل، وبالنسبة إليك أنا لن أكون أكثر قدرة على الغوص في مشاعرك وأفكارك، لكني أعلم أن ما جرى على الصورة التي ذكرت ما كان ليصل إلى خاتمة أفضل.. لكن رغم ذلك، أسألك، ما الذي دفعك لأن تسير بقدميك إلى الشيخ؟!.. سأرد أنا عنك فأقول: إنه العجز الحقيقي، لا عجزك أنت، بل العجز الكبير الذي نحياه، العجز الذي يدفع إلى الهاوية!.

نفترق على موعد.. بعد أقل من أسبوع، يجمعنا مقهى السعد بترتيب من عمر مع بعض رفاق دار المعلمين وآخرين أقابلهم أول مرة.. عرفت من اللحظات الأولى، وبكل هذا الاحتفاء، أني ضيف شرف على الجلسة، التي صارت أشبه بحفل تعارف جديد.. وفي زحمة ما سمعت أقف بأحمالي، وأشعر بثقلها، وأجد أن أحداً لم تطحنه الأيام ليحمل مثلها، لحظات أغيب في دفتر أيامي، أقلب صفحاته التي اهترأت، وأجد فرصة لأن أقول ما عندي، بتشجيع أقرؤه في عيني عمر، فأنطلق بحديث يفيض، لا عن معاناتي أنا، بل عن القاع الاجتماعي المنسي الذي أنتمي إليه، عن واقع الأطراف والأرياف، وهذا الذي تراكم عبر عصور، وزادته الفترة الراهنة شقاء ينضاف إلى شقاء.. شعرت بعد قليل أني شددت أسماعهم، واستطعت أن أقرأ الذهول في أعينهم، ما جعلني أوغل أعمق في تصوير التردي الصعب والعجز الشامل، والعيش خارج الزمن، وبواعث التخلف وموانع التغيير.. يمر وقت وتتقاطع الأحاديث، أحس أني قائد الجلسة، البؤرة التي شدت الأنظار، يبهجني هذا الإحساس فأسترسل مع شعوري، ويخطر ببالي أن لكل مطاف نهاية، وأنه يجب أن أكون القائد الحقيقي للجلسة، مادامت قد عقدت للتعرف بي، والاحتفاء بشخصي، فأهب واقفاً كما لو أني أعلن انفضاض اللقاء، ويسرني أن الجميع يستجيب وينهض للخروج، أصافحهم مودعاً بمشاعر ود حقيقية، يشدون على يدي ويدعونني لأن أتردد على المقهى مرات أخرى.. عمر يغادر معي، يشبك بذراعي ويصر أن أكون ضيفه اليوم:

– طعام مما حضر وكأس بيرة.

يقول.

أتمنع ويزيد عمر في إلحاحه، ثم يضحك ويقول:

– أنت طول حياتك كنت مسيّراً، الآن معي أنا بالذات ستكون مخيّراً؟!..

في الطريق إلى حي السريان، استطعت أن أتلمس وهج عواطف عمر الصادقة نحوي، وقد أصبحت كلماته على نحو ما تأسرني، وأراه في ذلك اليوم ينعطف إلى مسار آخر، عادت الذكريات فأخذتنا إلى أيام الدار مستعرضين عدداً من الوجوه والأسماء، نتبادل التذكر، لكن عمر يتوقف فجأة، يلتفت إليَّ وينظر في عينيَّ مباشرة وهو يقول:

– صدقني يا مطيع أنا منذ تلك الأيام كنت أنظر إليك على نحو مختلف، أنت الأكثر حضوراً وجلباً للانتباه من بين معظم من عرفت، حتى إنني فكرت صراحة أنك على الدوام كنت في المكان الخاطئ، حيث يجب ألا تكون.. في الوقت الذي أجد نفسي تلح دائماً بفكرة أن تكون معنا وفي صفوفنا، لأنك الأصلح أساساً لكل ما يعلنه الحزب من قضايا وما يكافح من أجله، انظر في معاناتك، وتفحص في همومك، تجد معاناة وهموم الملايين من الناس العاديين المسحوقين تحت وطأة ظلم يزداد شراسة يوماً بعد يوم، وأنا متفائل الآن أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من كل ما يتهددنا وما يحاك ضدنا من دسائس ومؤامرات، أنا أنظر إليك الآن وأعرف ما تعانيه، لا بل أنظر إليك وأرى فيك عنصراً مهماً يفيد في استقطاب كثيرين ممن يعانون أشد أنواع الشقاء والاضطهاد، ليكونوا في صفوفنا، نشتد بهم ويشتدون بنا، وإلا فكيف تنهض الشعوب في ظنك؟! إن أهم ما يشغلنا اليوم وما نخصه في معظم نقاشاتنا واجتماعاتنا بالبحث، هو كيف نسعى إلى رفد الحزب وعلى نحو متواصل بأعضاء جدد من الأحياء في الأطراف، وأظن أنك أفضل من يمتلك الخبرة والمعرفة الحقيقية بمثل هذه البيئة، وبمثل هذا الوسط المثقل بحاجاته، ألم نكن نسميك أيام الدراسة شيخ حارة

باب الله وتوابعها!. ضحك.. هناك حيث البيئة كما تعلم مناسبة للعثور على دماء جديدة للحزب، من الشغيلة أو ممن نسميهم بالبروليتاريا، و ثمة اصطلاح ينعتها بالرثة، بما يتطابق مع واقع مجتمعاتنا العربية، وإن كنت أنا لا أنسجم مع مثل هذا المفهوم، المهم..

في الطريق ظل عمر يتحدث.. لحظات أخرى تمر ولم أعد أطيق سماع كلمة، فكرت بالاعتذار والعودة.. بعد قليل وجدت نفسي في بيته، وأمام العائلة المتشكلة في الحقيقة من عدد من الرفاق، أم تلبس السواد حزناً على أحد رحل، شقيق أكبر قدمه عمر على أنه صاحب ورشة ميكانيك في الميدان.. اليوم أحد وهو عطلته. أضاف. أختان أصغر، إحداهما تقرأ في كتاب، رفعت نظرها وحيّت بسلام أشبه بهمسة، الأخرى تضع نظارة جادة، أشار عمر إليها بابتهاج وقدمها باسم عاشقة الموسيقا، طلب إليها أن تسمعنا شيئاً.. حملت الكمان ودوزنت أوتاره ثم بدأت تميس على ألحان (رقصة البجع).. في الغرفة تناثرت الأشياء واختلطت بالكتب التي حمل أكثرها اسم جهة الطباعة والنشر: (دار التقدم – موسكو)، صور كثيرة تلتصق على الجدران، الأكبر حجماً مؤطرة وغير ملونة لوجه ماركس بلحيته العريضة البيضاء. بورتريه بقسمات حادة لليـنين محفورة بالكاوي على خشب. أيقونات خشبية ملساء ملونة ومتدرجة في الحجم، وتتوسط كلاً منها صورة سيدة سمينة وديعة من العهد الرعوي تأسر بألفتها، قال عمر:

– هذه ماروشكا وهو اسم التدليل للأم الروسية..

في الطرف الآخر من المنضدة الكبيرة اصطفت زجاجات خمر كثيرة، تتقدمها واحدة كبيرة تطوقها سلسلة فضية.. رائحة المكان سكنت أنفي، شيء من صديد روائح، كحول وكتب وسجائر، عمر لا يكف عن التدخين، الأم الصامتة تدخن هي الأخرى، ساهمة، تطفئ واحدة وتفتح

علبتها، تمد يدها بسيجارة وتسأل إن كنت أدخن، أعتذر.. البيرة شراب الصيف. قال عمر.. برأس مصدع أجلس إلى مائدة أعدتها الأم على مهل، أتناول لقيمات من لحوم باردة، ويصب عمر لي الكأس تلو الكأس من زجاجات مثلجة ومغشاة ساهمت شيئاً فشيئاً برد الروح التي تاهت مني.. في آخر الكؤوس أصبحت كلمات عمر دعوة صريحة للانتساب إلى صفوف الطليعة النضالية، وقد ألح على الحديث عما سماه بالمرحلة المصيرية من عمر الحزب، وأن ثمة مفاصل تاريخية تدعونا لأن نمكن طاقاتنا من استيعاب المتغيرات والتحكم بتوجيهها لمصلحتنا، والمفيد أخيراً أن الحزب فعلاً بحاجة ماسة إلى تنسيب من هم على شاكلتي، قال:

– يا صديقي! نحن يهمنا أصحاب القضايا، أولئك المضطهدون والمطحونون بهمومهم الكبيرة والصغيرة على السواء..

في موعد لاحق يلتقيني عمر في مقهى السعد، ينضم إلينا آخرون، وجوه جديدة لم ألتق بها في المرة السابقة، قرَّب النادل محتفياً طاولات إضافية، ووجدت نفسي وسط محفل فكري أستمع إلى أحاديث شتى، يشدني ما فيها من حزم وحسم، وفي عيني عمر ومضات تمدني بالمساندة والتشجيع، وإن كنت بقيت أوثر الصمت، لكني أفصحت في لحظات ما عن بعض المشاعر والأفكار.. نظرت في ساعتي ليبادر عمر في الحال فيسر لي أن هذا المكان محطة أولى كما هي العادة في كل أسبوع، حيث موعد الاجتماع مع الرفاق، ثم يبدي رغبته في أن أكون بينهم في اجتماع اليوم، ليس اجتماعاً رسمياً، لنقل إنه لقاء ودي. يضيف. أتردد وهو يبتسم ويترك لي حرية أن أقرر، أجد نفسي مدفوعاً بالحرج أوافق.. ننهض جميعاً، أسير مع عمر والآخرون يتقدموننا، يعود في الطريق يردد أفكار الرفاق قبل قليل، ثم يهمس بود:

– أستاذ مطيع أنت ضيف عزيز، سيكون مرحباً به من الجميع، ولك مطلق الحرية بعدها أن تكون معنا وفي صفوفنا أو تظل صديقاً يشرفنا التعرف عليه والتقرب منه..

في اللقاء الذي تم في أرض دار عربية في حي تراب الغرباء، يقدمني عمر بابتهاج وشجاعة إلى عدد من الرفاق والرفيقات.. وفي بداية الاجتماع يخصني الرفيق الذي بدأ الجلسة بالترحيب والحفاوة، ويشير مؤكداً بمزيد من التأثر إلى أن الزاد الذي يتغذى الحزب عليه هو كل الشرائح المقموعة والمستغَلة والمسحوبة من التاريخ عبر جميع مراحل التاريخ.. ينعطف بعدها لتناول ما سماه بالمشكلات الراهنة، والمواجهات المصيرية، تحولات الصراع والبدائل المحتملة.. وكففت عن الإصغاء، عدت أسترد ذاتي، وانتبهت إلى انتهاء اللقاء بود لم أجده، وعاد عمر يشد على يدي مودعاً، ثم يبدي ما فهمت منه أنه يريد الانفراد بي، وسرعان ما يهمس بصوت واثق بأهمية أن الحزب في أمس الحاجة إلى هذه المادة الخام التي تحدث عنها الرفيق قبل قليل، مادة يصنعها ويعد منها ركيزة المستقبل في الدفاع عن كل المضطهدين والمُذَلين والمهانين في الأرض.. «إن المنبت الطبقي يا رفيق أهم شيء بالنسبة للعضو المنتسب..» وتأملت في منبتي، ووجدت أنه أشبه بعشبة شوكية نمت في حرش مهمل، وفي ظل صخرة، بحيث لا تصلها حتى مياه الأمطار.. وعليه قيل لي في لقاءات لاحقة في مقهى السعد، بأني أمثل بالنسبة إليهم نموذجاً شديد الدلالة على أحقية نضالهم، وعلى الدوافع المادية والتاريخية التي تجعلهم في أتون الصراع من أجل التغيير.. كلمات بدأت أجدها مرة بعد مرة ناصعة كالحقيقة، فلا بد أن تكون جديرة بالاستماع..

في أحد اللقاءات في دار تراب الغرباء فاجأني وجود زيد، زيد المحمود ذاته يدير الاجتماع!. يرحب بي صديقاً أو رفيقاً، يبتسم بود ويكرر الترحيب..

زيد المحمود معلم زميل في المدرسة، هناك في حارة التبانة، كنت قد انتبهت مرات إلى أحاديثه التي تتركز على استخدام مفردات النضال والوعي والثورة وحتمية التغيير، وباستمرار كان لا بد أن يتكرر في كلامه ذكر الشغيلة والطبقة العاملة، ولم أكن لأنتبه إلى حرفية العبارة الثانية لولا هذا النقاش الذي دار مرة بينه وبين أحد المعلمين، الذي دافع عن فكرة أننا كمجتمعات عربية لم نتهيأ بعد لأن نفرز طبقة عاملة بالمفهوم الاشتراكي، وأن ما لدينا ما هو إلا بعض فئات عاملة، أو لنقل شرائح عمالية، لا يمكن أن تشكل طبقة بأيّة حال من الأحوال.. واحتد النقاش كما في كل مرة، لكنه لم يوح لي أن زيداً يدافع عن انتمائه المنظم، وأنه حقاً رفيق يحتل مناصب متقدمة في الحزب.

زيد بذاته!. لم أصدق.. كان زيد معلماً ضئيلاً تتنقل عيناه باستمرار في وجوهنا، نحن زملاءه المعلمين، وأصبحت أعلم أنهما لا بد أن تستقرا دائماً في عينيَّ أنا، وفكرت مرة أني أصبحت بالنسبة إليه نهاية التجوال القلق، يطيل النظر إليَّ، يتأمل سحنتي بابتسامة مؤكدة، شدتني مرات نظراته الملحة، حتى ابتدأت أبتسم له فيجيبني بابتسامات أكبر.. وها أنا ضيف أدعى إلى اجتماعات، وأصافح الابتسامات ذاتها، قلت في نفسي موقناً: كأنما راهن على وجودي بينهم ونجح.

في اللقاء ذاته كنت ذاهلاً عن الحضور وعن ابتسامات زيد واستبشاره، وحقيقة ما حصل أني كنت أحلق في دنيا أخرى، أطلقني في سمائها عمر، وهو يقدمني إلى الرفيقة أروى. تعلقت عيناي في اللحظات الأولى وقبل أي تعارف، بابتسامة كبيرة روت نبتتي العطشى، فوجدتها تميل إلى اخضرار، وشعرت بوجهي يضج بحمرة اللقاء الأول..

– أهلاً بالرفيق!.

قالتها بعذوبة لا أزال أتحسس طعمها.. شدت برقة على يدي المدودة، رددت بقلب يخفق.. قدمت نفسها:

– أروى خليل.

– أنا مطيع العبّادي.

ابتسمَتْ، اتسعت بسمتي، والتفت إلى عمر وسيط التعارف وشكرته بعينيَّ، عمر ينسحب كأنما ليترك فرصة لحميمية اللقاء، وقفنا تحت شجرة نارنج، ومر الوقت محمولاً على النجوى ولهفة العيون.. وفكرت أنا: ما أجمل هذه البداية!. الآن أنا مجرد صديق، أدعى إلى اجتماعات الرفاق، وأتعرف على فتاة، أجد فيها وعداً سهلاً ومشتهى بصداقة وربما قبلات..

بدت أروى عفوية في كل شيء.. لم تكن تردد كلمات بت أعرفها وأسمعها تتكرر، علمت أنها زميلة معلمة في المرحلة الابتدائية، وأدهشني أنها ومنذ سنوات استطاعت أن تكون بمدرسة في مركز المدينة، ورأيت في ذلك إنجازاً تتضاءل أمامه أية قضية.

في لقاء آخر، في بيت عمر العريان هذه المرة، وجدت نشوتي أروى، حضرتْ كأنما على غير موعد، سلمَتْ بلهفة متبقية من وهج اللقاء السابق، ذابت نظراتي في وجهها المورد.. بادلتني ابتسامات مترعة بالضوء، تركنا عمر ومضى يعد القهوة، فردت شعرها الذي كان معقوداً، هزت رأسها تسوي خصلاته، سألتني ماذا أحب من موسيقا، ضاعت الكلمات، لم تنتظر جواباً، امتدت يدها إلى شريط كاسيت في حقيبتها فدسته في مسجلة على مكتب عمر وتمايلت، انسابت مع تمايلها موسيقا هادئة وراعشة.. تأتي القهوة، نرتشفها بمتعة ضافية، تأخذنا الأحاديث عني وعنها بعيداً.. تحملني الموسيقا، أطير إلى دنيا أخرى، يشدني إليها

هيام ما!.. لحظات وأنتبه إلى رائحة عطر بعيد ظلت تشغلني، تهمس لي، امتزجت برائحة القهوة وبأروى، أصبح الثلاثة شيئاً واحداً.. وجدت نفسي أسألها عن الرائحة الجميلة، تضحك وهي ترد إنه عطرها المفضل، عطر الرفيق ستالين.. أطلقت (الله) طويلة، وتوردت هي أكثر، وزاد سواد شعرها، رهفت قامتها، أزهرت.. عمر ينضم إلينا.. يحضر زجاجة نبيذ، يقول إنه من شغل يديه، أحمر معتق.. صب قليلاً في كأسينا وعاد ليجلب بعض أطباق المازة.. أخذت رشفة بحذر، طعم نادر وحريف، عذب وحلو يشعل الحلق، تناولت بعض الأطعمة، عمر يعود فيصب النبيذ في كأسي.. تخْفُتُ الأحاديث وأشعر بذبول.. يمر وقت ويغادرنا عمر، لا أدري إلى أين، ولا أريد أن أدري، يتوقف الشريط، أجد نفسي وحيداً مع أروى، زدت جرعة أخرى، انطلق لساني بعدها بالحديث إليها.. أخذت هي رشفة وتركت الكأس، وجدت أنفاسي قرب شعرها المنسدل، وشع وجهها بهالة نور، فرغ كأسي فضحكت وصبت لي، قربت كأسها من كأسي ففعلت، ارتفعت رنة معسولة، قلت:

– نخب العطر الستاليني..

ضحكتْ عالياً، انتشيت، أتيت بجرعة واحدة على ما تبقى، وجرعة أخرى من عطر ستالين وذبلت عيناي، وأتتني موجة فرح، والتقطت يدها، ابتسمت بدهشة وهي تراني أصر على الاحتفاظ بها بين راحتيَّ..

أهم صفات اليساري أن يكون مثقفاً ثورياً واعياً، يخوض معركة الصراع المصيرية مع الجماهير، وكل عمل وسلوك، وكل أدب وفن، يجب أن يصب في خدمة الثورة. مرحلة التثقيف الحزبي من الأولويات التي أكد عليها الرفيق عمر، دفع إليَّ ببعض الكتب وطلب قراءتها سريعاً لمناقشتها معه، كأسلوب

يقود بالضرورة إلى فهم أبجديات العمل الثوري واكتساب القدرة على الجدل، كفعاليـة أساسـية في آليـات التثقيـف الحزبـي. وجـاءت مرحلـة النـدوات والأمسيات الثقافية والفكريـة والأدبيـة، وأفـلام النـادي السـينمائي في صـالة الكندي.. وألح عمر على حضور أمسية اليوم، ووجدت نفسي أسأله:

– من من الرفاق سيحضر؟

وقفزت إلى رأسي صورة أروى الملاك.. ابتسم دون أن يجيب، ذكر لي عنوان المحاضرة واسم المحاضر، شرح لـي بعـض الأفكـار، ووجهـني إلى أسئلة بعينها يمكن أن أثيرها في الوقت المخصص للأسـئلة والمـداخلات.. انتبهت إلى أني لم أكن أسمع شيئاً مما يقول، تاه فكري بأروى، الغائبـة الحاضرة، أروى الناعمة، بعينيها الساحرتين وشفتيها القريبتين..

في المساء كنت أجلس في الصفوف الأولى في قاعة المحاضرات المخصصة لكلية هندسة العمارة، عرفت بعـض الحضـور، رددت تحيـاتهم، صـوت المحاضر يتردد في أذني بينما تدور عيناي تمسح الوجوه، جلست بحيث أبقي مقاعد فارغة قربي، حيـث سـتجلس أروى، بمجـرد أن ترانـي.. لم تظهر، تململت في المكان، وظلت عيناي معلقتين بالبـاب، دقـائق تمـر.. أروى لا تأتي.. رأيت أن جلوسي هنا فقد أي معنـى، فكـرت بالمغـادرة، عدت فانتظرت.. دقائق أخرى تمر.. هذه هي.. وجهها خطـف بصـري، أين وجهها!. هذه أروى أخـرى.. طويلـة، نحيلـة، بشـعر أشـقر طويـل وعينين واسعتين، عدت فملأت عينيَّ، قفزت عيون أخرى إليها.. لكنها تجاهلـت الجميـع بعـد أن جالـت بعينيهـا قلـيلاً، ثـم تحركـت رشـيقة نحوي، جلست قربي إلى اليسار، كأن المكان كان مخصصاً لها، هذه المرة نظرتُ إلى حسنها باستغراق، التقت أعيننا، انتشلْتُ نفسي من نظراتها، شيء ما في عينيها هزني، طارت الأفكار من رأسـي في لحظـات، تبعتهـا

أحلام رفت بجناحيها، عدت فتأملت جمالها، ذهلت من أن تكون امرأة تمتلك كل هذا السحر.. لم يعد يهم أن تأتي أروى أو لا تأتي، لم أعد أفهم ما يقول المحاضر، أو حتى أسمع صوته، باتت تعوم في رأسي فكرة واحدة، قلت: إنه هو، الحب من أول نظرة، ذلك ما يضرم المشاعر ويلهب الرأس، نظرات عينيها لا تقاوم، انسحبت صورة أروى إلى الظل، وحلت هي مكانها، كأنما شدني عطرها لأتيه أكثر في الغياب، لم يعد ثمة من يحاضر أو من يستمع إلى محاضرة، بقيت أنا وهي، عيناها ترسلان إلى عينيَّ بسمات ونجوى، منهما تلمست الجرأة، وغرقت حتى الأذنين بنفحات الحرية المبذولة في الوسط الرفاقي، نهلتُ نظرات أخرى مختلسة وصريحة، على الرغم من تساقط النظرات عليَّ، علينا نحن الاثنين، التقت أعيننا في لحظة كأنما طالت، ابتسمت في وجهي، شيء من رعشة دغدغ قلبي، عدت وتشجعت، رفعت بصري إليها، رأيت عينيها مسمَّرتين في عينيَّ، ثم مالت برأسها نحوي، وهمست برقة:

– إذا سمحت أستاذ!. شو كان عنوان المحاضرة؟!.

* * *

٦

كثيراً ما أفكر في الأستاذ ماجد الصالح، زميلي في الدراسة وفي التعليم من بعد، ثم مديري لسنوات طويلة، ظل يحتل هنا كما في السابق ساحة من تفكيري، وعلى نحو أكثر إيلاماً فيما بعد.. وبقيت أتساءل مؤرقاً: هل كانت له يد في الأحداث التي تلت؟ وهل كان مصيره الجزاء العادل الذي يستحق؟!. لكن ما حصل له حكاية أخرى..

من بين جميع من عرفت فإن ماجداً لم يكن يكتفي بالنظرات وحسب، ولا سيما بعد أن علم بقصة زواجي وما انتهت إليه، بل أصبح يشن هجوماً كاسحاً على شخصي، فأحس في كل مرة أن جسدي قد تحطم قبل روحي.. ماجد استراح منذ زمن في مربع البعثي القيادي الآمر الناهي ولم يعد يغادره، وهذا المطيع أبله ومعقد وأقرب إلى الحشرة، من يكترث بحشرة إذا اكترث!.. هذا المطيع إذا شئت يربي العلة في القلب.. الغريب أنه يحسب نفسه صاحب مبادئ وأفكار، الله، الله، يا أبو المبادئ والأفكار!.. يربط حياته بما لا أدري من أوهام، هو يحسب أنه إذا انتقل من هنا سيحيا حياة جديدة، أنا حقيقة إلى الآن لا أعرف كيف يفكر، عقله بالتأكيد يخض، هل يمكن للمكان أن يغير الإنسان!. هو هكذا يفكر، تلح عليه هذه الفكرة منذ عرفته.. وعلى هذا ظل ماجد مصراً أن يصفني بالمغفل أو الأبله، ومرات يرفع الكلفة، المرفوعة أصلاً، وينطق بكلمة (حمار)، بصيغة فيها مدّ وتوكيد.. وكأنما يجد فيها خير ما يمكن أن يصفني به.. فأنا في رأيه لا أستحق هذا الوجود، لأنني على الدوام أقبل بحالتي مهما

ساءت، لا أحاول التغلب على عجزي، لا أبدي أي انتماء، لا تشغلني قضية، لا أعترض، لا أرفض، لا أسعى إلى غاية.. بل يجد صبري وإذعاني أشبه بصبر الحمير وإذعانها، وأنا أعترف أني فعلاً لا أجد الحماسة لشيء أفعله، لاسيما إن كان عن طريق جرابه البعثي، لأصل في نهاية الدرب إلى ما وصل إليه.. لهذا ظللت ولا أزال كما يقول أراوح في مكاني منذ ما يقرب من عشرين عاماً، لكني لم أحتمل هجومه مرة وقلت:

– باللّه عليك هل تستطيع أن تقول لي ماذا فعلت أنت؟!. إذا كنت تعد منصبك مديراً للمدرسة انتصاراً أو فوزاً في حياتك، فهذا ما لم أفكر فيه قط، ولا كان من أهدافي.

وفي الحال ضحك ماجد من كلمة (أهدافي)، وأصبح يتندر بها.. ووجدت أني انزلقت إلى ما هو أسوأ، فازدادت كراهيتي له وقلت:

– ماجد لا تسخر مني!.. أنا أعرف أنك الأكثر ثقافة واطلاعاً، ربما لأنك نلت الإجازة الجامعية في الأدب العربي، أما أنا فاكتفيت بأهلية التعليم الابتدائي.. لكني لست كما تظن، فأنا أقرأ دائماً وأتابع الصحف، ولي بعض الكتابات الشعرية والخواطر.. وأنا في الحقيقة لا أريد أن أعلن عن نفسي، وأنت باستمرار تسفه وجودي وتحاول أن تشطب اسمي من قائمة الأحياء..

ولا يبدو على الأستاذ ماجد أقل اكتراث بكلماتي، حتى إنه لم يلتفت إلي، فأصمت قليلاً ثم أقول:

– بيني وبينك أحياناً أقول معك حق.. فأي حياة تلك التي أحياها؟! لا امرأة ولا ولد ولا بيت ولا أمل في شيء..

ويكمل ماجد:

– بل أنت فعلاً لا شيء على الإطلاق، وجودك وعدمه سواء!.

أردت أن أقاطعه وأرد ادعاءه مرة أخرى، فأخرسني بحركة باترة من يده.. أحسست كأنه يهم بضربي، مع عيونه التي تسدد نظرات كالإبر، لكنه انعطف إلى الكلام وقال:

– أنا حقيقة أشعر أن هناك قوة خفية تكبلك وتفقدك القدرة على الفعل، أي فعل، وكأنك لا تعلم أن الحرية هذه التي يتشدق بها كل من هب ودب، ليست للجميع.. الحرية إرادة.. إرادة.. هل فهمت!.. وحتى لا أطيل عليك.. أذكرك بقانونها الذهبي: إنها شيء ثمين يؤخذ ولا يعطى.. ووجدت نفسي أقاطعه هنا لأقول:

– هذا ما يردده الببغاوات أمثالك، في رأيي ليس المهم في الحرية أن توهب أو لا توهب، فهي في النهاية إذا أردت الصحيح إما أن تكون موجودة أساساً في داخلنا أو لا تكون، وكما أتصور، لا يقدر أحد كائناً من كان أن يمنحنا شيئاً غير موجود أساساً فينا كبشر؟!..

فتح ماجد عينيه بغضب، وقال:

– كعادتك تريد أن تفلسف هزيمتك وتوجد المبررات، يا عيني افهم! الحقوق تنتزع ولا توهب.. الدنيا.. تؤخذ غلابا كما يقول أحمد شوقي، وكما تغني العظيمة أم كلثوم.. غلاباً يا شاطر يا فهيم، الحياة لا تعرف استسلامك وهوانك، الحياة عاشها من هم أقل منك جدارة وقدرة، عاشها المعتوهون والمعوقون والمجذومون والبهاليل والعميان حتى.. لكن كان لبعضهم ذكر في التاريخ وأثر.. انظر إلى طه حسين مثلاً!. طه حسين هذا.. هل تعلم..

ظل ماجد يتحدّث ويأتي بالأمثلة عن العظماء، كانت كلماته أشبه بالتأنيب والزجر، أثقلت روحي بتهكم واحتقار لشخصي وثقافتي، انسحبت من أمامه كفلول جيش خسر معركته، حاولت أن أرمم أطراف ما انكسر، وحدّثت نفسي بأفكار جديدة، أرد فيها الهجوم في جولة قادمة،

بل عدت إلى الحديث، وحاولت أن أجريه بصيغة أخرى، تفضي بي إلى نصر ينصفني وينقي روحي مما علق بها من خيبات.

أذكر أنني ليلتها لم أنم، وفي أبكر الصبح هجرت غرفتي ونزلت إلى المدينة سيراً، أسلمت جسدي لبرودة الصباح، وعب صدري من نسماته، لعل بعض ما انكسر بالأمس في روحي يلتئم. وها هو الصباح الذي يغادر السابعة يتركني في باب الفرج، حيث وجدت نفسي أمام مبنى دار الكتب الوطنية، أنتظر قدوم الموظفين وفتح المكتبة.. مضى بعض الوقت، تسكعت قرب المكتبة، الدكاكين تفتح والناس يسلمون على نهار جديد، وأنا أشرق صباحي بعد قليل في باب المكتبة الذي فُتح، فأسرعت لأقف أمام أدراج المصنفات المفهرسة أبحث – لا أدري لماذا – عن كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين.. لم أجد كتاباً بهذا العنوان، قلت آخذ أي كتاب آخر لطه حسين أقرؤه ما دمت قد أتيت، كتبت في البطاقة عنوان (شجرة البؤس)، دفعت بالقسيمة مع البطاقة الشخصية إلى القيم من النافذة الصغيرة.. أحنى رأسه قليلاً إلى أمام ونظر مباشرة في عينيَّ، كأنما ليتأكد من شيء، ثم تحير قليلاً وارتبك.. انفتل أمامي وانسحب إلى الداخل، عاد بعد قليل وقذف أمامي من على بعد، على خشب النافذة الصغيرة، كتاباً أسود من القطع المتوسط، التقطته ومشيت إلى طاولة قرب الجدار البعيد، بحيث أسمح لعيوني أن تتابع رواد المكتبة، إضافة إلى إمكانية التطلع من النافذة، ورصد حركة الشارع الخلفي..

قلبت الورقات الأولى لكتاب (شجرة البؤس).. قرأت بعض السطور، ورفعت عينيَّ عنه إلى الشارع أتطلع، عدت فمسحت القاعة بناظري، ثم تحولت باتجاه الموظف المشرف على قاعة المطالعة، ولدهشتي وجدته بنظارته السميكة يمعن النظر بي، بل يثبت عينيه على شخصي لا يريد

أن يحولهما، على الرغم من وجود العشرات غيري في القاعة، تلفتُّ إلى الآخرين.. انتبهوا إلى التفاتتي، تنفست بصعوبة وأنا أعود إلى سطور الكتاب، أهرب منهم إلى الكلمات التي تناثرت مجرد حروف أمامي، لا أقرأ منها إلا الطلاسم.. عدت فأدرت وجهي باتجاه النافذة، لامست نظري بدايةً السماء الزرقاء وبعض غيوم، ثم أعالي الأبنية الخلفية للمكتبة وبعض السطوح.. ملت بجسدي لأطل أكثر، طالعت في الأسفل زقاقاً يمتلئ بالمحال التجارية لباعة الورق والسيلوفان والنايلون.. مددت نظري إلى عمق الزقاق، شهدت حركة الناس في الصباح.. واستطعت أن أقرأ لوحة ثبتت على جدار الزقاق تحمل اسم (حي بحسيتا). حملقت في العبارة المكتوبة، وتذكرت أن هذا هو اسم حي البغايا، حيث المكان العمومي للمتعة.. أطبقت الكتاب بصوت أثار من حولي.. نهضت غير عابئ بالعيون المسلطة، وسرت إلى النافذة، تحركت الرؤوس معي.. رميت الكتاب على خشبها، استدار المشرف نحوي وتخشب في كرسيه متحفزاً، كاد أن ينهض.. القيم بدوره نظر في وجهي بعبوس حاول ألا يخفي منه شيئاً، قذف بالبطاقة نحوي، التقطتها وأودعتها سريعاً في جيبي، هبطت الدرجات الحجرية أعدو، وانعطفت سريعاً في الزقاق..

كان باعة البالة قد بدؤوا يفتحون حوانيتهم ويمدون بسطات الملابس العتيقة، أو يثبتون على الأرصفة حمالات البناطيل والقمصان.. وجدت المشهد مسلياً فمشيت أتفحص ما أمامي، فاحت روائح بالات المعاطف، وبدأت الأبخرة تتصاعد من مكاوي الفحم السوداء.. أصحاب المقاهي في الزقاق رشوا الماء ونشروا على الرصيف الطاولات الواطئة وكراسي القش، جلس بعض شاربي الشاي والنرجيلة يتصفحون الوجوه وينثرون في الفضاء أمامهم حبال الدخان، استرقت نظرات إلى الأبواب والعطفات.. أردت أن

أستدل على المحل العمومي دون سؤال أحد، بدت لي الحارة مسكونة بشهوات محمومة، كأن حجارتها كانت تلهث، وخلف المشربيات امتدت عيوني الثاقبة تتحرى، تلتقط نأمة من آهة أو شهقة، رنة صوت امرأة أو ربما ضحكة فاجرة.. بت كأني أسير في محفل عهر خفي، البيوت متراصة، النوافذ والأقواس فوقها، زنقات معتمة تتخفى بين الدكاكين، لم أهتد إلى المكان، تاهت عيناي، وخجلت.. اقتربتُ من مقهى في وسط الزقاق، وانتبهت فجأة إلى العيون تطالعني بتأمل شارد، تحسستها ثانية تنغرس في شكلي باستغراب.. أمام المقهى الصغير وقفت، ارتفعت عيون من في الداخل نحوي، أتجاهلها وأجلس على كرسي قش وضع على الرصيف.. بعد لحظات يضع صبي أمامي كأس شاي كبيرة، وبجانبها ينزل كأس ماء وسكر.. أقول:

– يا عيني أنا لم أطلب شاياً.

– إذن تريد قهوة.

– لا!. دع الشاي..

شربت كأس الماء وطلبت من الصبي أخرى، تلذذت بالشاي الساخن.. عندما جاء الصبي بالماء وجدت نفسي أتجرأ وأهمس في أذنه مع قطعة نقود وضعتها في يده:

– أين المحل العمومي؟..

ابتسم الصبي وأشار بيده إلى عطفة تبعد عشرة أمتار، وقال شيئاً فهمت منه عبارة:

– الحق حالك!.

دلقت كأس الماء في جوفي دفعة واحدة ونهضت، دفعت حساب الشاي ومشيت نحو المكان.. نظرت إلى كابينة الحارس في مدخله، تحاشيت

المدخل إلى الرصيف الآخر للزقاق.. مشيت منسحباً، قادتني قدماي إلى جامع العمري في عمق الحي، نظرت قليلاً إلى مئذنته القصيرة وانفتلت راجعاً.. اقتربت من العطفة ثانية، بدأت دقات قلبي تتصاعد، شاهدت أحدهم يدخل.. شجعتني حماسته.. تبعه آخر ملفع بكوفية، وجدتها فرصة فاندسست، لا أدري كيف.. سمعت الشرطي الذي حاولت أن أتجاهل وجوده يصيح:

– يا خال.. نحن هنا!.. أين الهوية؟

مددت يدي بالبطاقة، تناولها ونظر في وجهي وامتعض.. سجل شيئاً أمامه ورماها جانباً، قال:

– تأخذها وأنت خارج.

دخلت.. حملتني قدماي وتبعتهما، وجدت البعض يتسكع، أبواب النساء بعضها مفتوح وبعضها موارب، واحدة تتناول فطورها دعتني لأشاركها، شكرتها بخجل.. وأخرى تلاحق بالمنقاش آخر ما تبقى من شعيرات في أسفل ذقنها.. أحدهم يجلس على برطاش باب قصير، نظر في هيئتي ملياً ودعاني للدخول.. ومن الشباك وجدتهما.. عينا امرأة على وجه ملون، عينان ساهمتان تنظران نحوي، ثم في عينيَّ، وأنا وقفت وأطلت النظر إليهما، إلى العينين، وهبطت أسفل.. التمع بريق اللحم الأنثوي، أطلت النظر، وغبت في شكل المتعة المستلقية.. انفجر صوت المرأة مفاجئاً سهومي:

– امش في طريقك يا ابن الـ ...

مدت يدها ونترت ستارة الشباك سريعاً فاختفت وراءها.. ارتجفتُ وانسحبتُ من أمام شباكها الواطئ، الآخر على بابها ضحك بسخرية وقال شيئاً ما.. عدت أتصفح المكان، أزقة تفضي إلى أروقة وأبواب، تجولت في

ساحة داخلية، تسكعت بتباطؤ فعل من يتلصص، وجدت بعضهم يصعد درجاً إلى الطابق العلوي.. أصعد، أدخل في سكون قاعة مظلمة، بعض رجال وشبان يجلسون على أريكة طويلة ينتظرون، فلاليح وعربان، عقالات وكوفيات.. الصمت مطبق، قلت أنتظر أنا أيضاً.. التفت بعضهم نحوي، هربت بعينيَّ إلى الجدار المقابل.. طالعتني مناظر باهتة لصور نساء عارية، وفي أوضاع مثيرة.. اقترب مني أحد ما، قال:

– مد يدك إلى جيبك!.

قلت بصوت مخنوق:

– لم أقرر بعد..

ابتسم..

– أنت لا زلت تفكر!.

– أجل!.

– الأفضل ألا تتعب نفسك أكثر.. كل من تراهم هنا انتهوا من التفكير..

ضحك.. نظرت في وجهه، بادلني النظرات باستفهام، ضاقت روحي بالمكان، تحركت بطيئاً، انسحبت.. هبطت الدرج، ومددت قدميّ بخطوات تسرع نحو الخارج، نظر الشرطي في وجهي، ثم قذف البطاقة نحوي، التقطتها وخرجت دون أن ألتفت..

قادتني قدماي ثانية باتجاه القلعة، ووجدتني من جديد أقف أمام مبنى مديرية التربية.. قلت أرى الموجه التربوي، لعله يكون قد أمَّن لي شاغراً.. وبمجرد أن رآني صاح:

– قلت لك مرات لا لزوم لقدومك إلينا.. نحن نبعث خلفك إن كان هناك شيء يخصك..

قلت بإشفاق:

– يا أستاذ! ألا تجد أن أمر الشاغر قد طال كثيراً، وأنا أنتظر منذ سنوات!.

ظل ينظر في أوراق أمامه، كعادته لم يرفع بصره ويتطلع في عيني، وأنا استدرت وأسلمت قدمي للمسير..

النهاية ستكون كالعادة في مقهى السعد، جلست أنتظر حضور عمر، فكرت أني قبل قليل لم أمض في الشوط إلى نهايته، تفحصت في مشاعري من جديد، وكدت أنهض فأعود ثانية.. يظهر عمر، فينفرج شيء ما في داخلي، جلس قبالتي، ووجدت نفسي أحدثه بكل ما حصل في الصباح، كما لو أنه كاهن في كنيسة، وأنا أمامه أفضي إليه بكل جرائري.. عمر يبتسم ويعلق:

– الحب أولاً يا صديقي!. هذا ما أنت بحاجة إليه.

* * *

٧

الحب أولاً!. فكرت كيف تاه عني كل تلك السنين.. كأنما كلمات عمر أيقظتني، فتصورت الحب مركبة من أثير ترفعنا نحو الغبطة وسلام الروح، توالت أطيافٌ تنداح أمامي، ثم برزت صورة أروى فبددت كل طيف، وحدها تربعت على شرفات أيامي القادمة، إنها أروى التي جعلت لكل اللحظات التي أقضيها معها طعماً آخر، قلت: لعله الحب أخيراً.. أمضيت يومين بعدها لم أقصد المدينة، في اليوم الثالث شعرت بعطش يدفعني للقاء عمر، انطلقت عصراً باتجاه مقهى السعد، جلست أنتظر قدومه، طال الوقت وفكرت أن أمضي إلى بيته، شغلتني أروى وتساءلت: ترى أين تكون، وكيف يمكنني العثور عليها؟!. عدت أنتظر، ارتسمت أمامي هالة شعرها الأسود تحضن وجهها الأبيض، وأغمضت عينيَّ، وهزت قلبي ارتعاشة..

كنت قد أدمنت الجلوس في المقهى بعد لقائي المتجدد بعمر وتعرفي على عدد من رفاقه، يأتي أحدهم أو بعضهم، أجالسهم، أو أتحاشاهم في أغلب الأحيان عندما لا يكون عمر حاضراً، حيث أمضي ساعتين أو أكثر، أطالع هيئات المارة، ألاحق قوام الفتيات والعيون، الوجوه والشعور، المسدلة والمجعدة، الطويلة والقصيرة، الشقراء والسمراء، النحيفة والبدينة.. وجوه ارتسمت أمامي، بت أنتظر مرورها كل يوم، عيون تلتقط نظرتي ثم ترسخ في خيالي فلا تغيب.. أحتسي رشفة أولى من قهوتي فتقفز إلى رأسي عيون المرأة التي تنظر إليَّ من الشباك بوجهها الملون، إنها عيون مختلفة هذه

المرة، أحسها فاجرة وصادمة.. عيون ترجم وتبدد كل رغبة في الوصال..

لكنْ، لعيون أخرى قصة أخرى، باتت لغزاً أشبه بالطلسم، بدايةً، ها هي صاحبتها تقترب من الزجاج، بيضاء بطول حالم.. ظلت على فترات منتظمة تمر كطيف من أمام المقهى، بتوقيت لا يخطئ، تعبر من الرصيف الآخر باتجاه الزاوية حيث أجلس.. في البداية تمسح المقهى سريعاً بنظرة شاملة، وقبل أن تختفي ألتقط نظرتها الثانية، أستطيع أن ألتقطها في كل مرة مع ابتسامة غامضة، لا تكاد تظهر حتى تنطفئ، أصبحت أنتظر وقت مرورها، أتلهف في كل مرة لأرى سطوع وجهها، كنت قد سميتها فتاة السينما، فوجهها حقيقة أشبه بوجوه جميلات السينما.. لكن الأجدر أن أسميها فتاة الحلم، فتاة عابرة في حلم، طير كان في قفصي لحظة، كما سيحدث، ولا أدري كيف طار، ثمرة ناضجة مشتهاة.. صحوت فلم أرها، لا أدري معنى وجودها المتكرر في حلمي، ثم اختفائها في الحلم ذاته.. الحلم ذاته تكرر: أنا وهي في صالة سينما بلا جدران، تخترقها شوارع ويمر بها بشر وحافلات.. تنطفئ الأضواء الساطعة، تهدأ أصوات الخارج المحيط بنا، ويظل من النور ما يسعف لهتاف نابض يدور بين العيون، ضبطتها في العتمة تتطلع في عيوني، تلتفت لحظات وتديم النظر.. أعود فأتذكر مرورها الدائم من أمام المقهى، أنشغل عن الفيلم بالتفكر، لا أدري كيف انتهى الفيلم أو ما كنت أرى، سطعت الأضواء فنهضت، مشت أمامي وتبعتها، وفي زحمة الشوارع المحيطة بنا ضاعت، في كل مرة تضيع، وأجدني أسير طويلاً إلى البيت اجتر حلمي وأتجرع خيبة مرة. في حلم آخر يتكرر، لكن النهاية تختلف هذه المرة: أعود لأجد نفسي في السينما ذاتها، لأشاهد الفيلم ذاته.. ولدهشتي أجدها في المكان عينه تتطلع نحوي، تغمرني غبطة ويرف قلبي، أعود وأتأكد من البسمة الشفيفة في عينيها، من ندائها

الصامت.. أقول في نفسي: هذه المرة الأمر يختلف، فهي بالتأكيد معجبة، نظرتها تعبق بالنداء، وإلا ما الذي يدفعها أن تعود ثانية، وأن تترك مشاهدة الفيلم وتشخص بأبصارها نحوي!.. شدني فراغ الكرسي إلى جانبها، ولا أدري من أين أتتني الشجاعة حتى أنهض فأعبر إلى رصيفها متلمساً طريقي إليها وسط العتمة المتقطعة، أجلس إلى جانبها، على رصيف الشارع، وأمامنا شاشة عرض كبيرة، لا يهمني العابرون، أمسك بيدها الراجفة، تحرك يدها قليلاً بتردد، ثم تبقيها في يدي، بينما يهبط قلبي وأغيب في فتنة اللحظة العابرة، أطالع وجهها على سطعات الضوء، أجدها ريانة ببسمة لا تخفيها، أنهل لحظات من بريق وجهها الطافح بالوعد، وأجد نفسي أنهض، فتنهض معي، أضم كتفها وأسير بها في شارع هادئ، يختفي صوت الشاشة، ونخلف الناس والأسواق خلفنا.. أنظر إليها وتظل معلقة بصرها في وجهي.. أضغط على يدها، أسألها لماذا اختفت البارحة وفي المرة التي سبقت، تبتسم ولا تجيب، ينطلق لساني بكلمات غزل ناعمة، دهشت لعذوبتها وكيف أنتقيها، لكني لا أجدها تستجيب لشيء، أقول في نفسي: هذه فتاة أشبه بالمخدرة أو المنومة.. أعجبتني وسامتها، راقت لي عيناها.. ووجدت نفسي أتجرأ وأسألها إذا كانت تقبل أن تصاحبني إلى البيت.. تصمت بدلال وتظل تنظر في عينيَّ وطيف ابتسامة على شفتيها، الابتسامة الغامضة ذاتها.. فأمضي بها دون كلمة أخرى، كأنما بوحي تفاهم تم، أبلغ من أي كلمات..

في الطريق أضم خصرها، كأنما لأطير بصيدي، تحيرت في كيفية قبولها المجيء معي، أما هي فبدت ساهمة تتلفت، بقيت تنظر إلى عينيَّ نظرة دهشة وتساؤل، لم تتكلم، وأنا من جهتي لم أوجه إليها أي سؤال، لم أسألها حتى عن اسمها ومن تكون، أدرك أن حلمي هذه المرة يسير أشواطاً متقدمة، أتلهف

إلى النهاية، أمضي بها إلى البيت الذي أسكنه وحيداً، هنا في قلب المدينة.. أتوقف قليلاً، اشتري دجاجة مشوية، وتفاحاً، وزجاجتي ستيم أحمر، أسرعُ ممسكاً بها من يدها، أحسُّ بالطريق يطول، أسرعُ أكثر.. الأستاذ عبد القادر السالم فاجأني وسط الطريق، حاول أن يسده بكلتا يديه، أمسك بي وجذبني كأنما ليخلصني من يدها المسكة بذراعي، أبعدته من أمامي بعنف، قاومني قليلاً ثم ابتعد واختفى، ظهر جدي في شباكه يبتسم، عانيت من خجل وأنا أمسك بذراع فتاتي، عدت ونظرت إليه وظل يبتسم، وانتبهت إليها وهي تمسك بذيل فستانها الأبيض مرتبكة، وتدعوني لأن أرفعه من على الأرض لكي لا يتسخ، وكان أبي وأمي يسيران معنا، ثم عدد من الجيران والأقارب.. تأملت وجهها الفاتن بزينة العرس، وهفت نفسي إلى وصالها، واستمد قلبي الشجاعة من كل من أحاط بي.. في تلك اللحظات سنطير معاً، وسيطول الطريق إلى البيت، أمسكت بذراعها وركضنا، خلفنا الجميع وراءنا، حملتها إلى أعلى، ارتقيت سلماً، انفتح باب وأدخلتها أمامي ثم أغلقت وراءنا فبتنا وحيدين، وفي سكون الراحة التي خدرتني أحسست كيف فاحت منها في الحال رائحة الشهوة، رائحة غريبة لكنها أليفة، دفعتني بغير إرادة لأن أضمها إلى صدري، تذكرت في تلك اللحظة ما يحدث في الأفلام، فأزحت وشاح الوجه الذي تألق، ورفعت رأسها إليَّ حتى أصبحت شفتاها في مقابل شفتي، اقترب فمي من فمها، وهمت شفتاي بالتقاط شفتيها، لكن عينيها المتسعتين على دهشة وفزع جعلتاني أتراجع، التقت أعيننا في نظرة طويلة مستفهمة، فسارعْتُ إلى القول أداري ارتباكي وارتباكها:

– هل تخشين شيئاً؟!..

أسبلت عينيها وأفلتت من يدي، ثم نظرت في أنحاء الغرفة الوحيدة التي دخلنا إليها من دهليز، يفضي في طرفه الآخر إلى الحمام والمطبخ، طافت

بعينيها تنظر في الجدران وفي الخزانة الوحيدة وفي السرير الفردي وبالكنبة إلى جانبه.. انتظرت أن تقول شيئاً، لكنها اقتربت من الكرسي الوحيد قرب طاولتي الخشبية، وجلست بعد أن رفعت تاج العروس الذي كلل جبينها العالي، بدت أجمل بشعرها المجعد كنجمات السينما في الأربعينات، عادت ونظرت إلى عينيَّ، كان وجهها أبيض وهادئاً كمرآة، ولأول مرة سمعتها تقول إنها تشعر كما لو أنها في حلم، كل هذا الذي حصل بهذه السرعة يؤكد أنه حلم فعلاً. هكذا قالت، وأنا وافقتها على ما قالت، وتابعتُ:

– إن الأحلام في كل الأحوال أحسن من الحقائق.

فزادت على قولي:

– نعم! إن لم تكن كوابيس..

تطيرت من كلمتها، وحاولت أن أصلح لها فقلت:

– هذه ليلة حبنا المشتهى، أين منها الكوابيس!.. صدقيني لطالما انتظرتك..

وانتهت إلى أسماعنا في تلك اللحظات أصوات من في الخارج، وأطللنا على ساحة امتلأت بالراقصين والأضواء، نظرنا إلى أسفل بابتهاج، وترنمنا بأغنية تتردد هنالك، أظنها: (ياليل الصبُّ متى غده..) وانتشينا، فعدت واقتربت منها ثانية، ولففت بذراعي خصرها، فالتصقت بي وشعرت بحرارة جسدها، ضممتها أكثر، وأحسست بثقل ثدييها، بقلقها واضطرابها.. عادت أصابعي المحمومة ترتعش وتمسك بأصابعها المتعرقة، استطعت على نحو خاطف أن أطبع قبلة خفيفة على طرف أنفها، تشنجت وسحبت نفسها.. ظلت أصوات من في الخارج تصلنا، سألتها فيما إذا كانت جائعة.. لم تجب، ففتحت صرة الطعام ونشرت محتوياتها على الطاولة، واسترقت منها نظرة فوجدتها تحملق فيما أفعل، ارتبكت يداي قليلاً، لكني التمست

شجاعة ما، ودعوتها لتأكل، أقبلتُ على الطعام قبلها حتى لا تشعر بالحرج، لكنها تركتني أمضغ اللقمة الأولى وبدأت ترقص على أنغام آتية من الشارع، نظرَتْ إلى الراقصين هنالك وحاكتهم في الحركات ذاتها، وبدا لوقت طال أنني آكل فيما فتاتي ترقص، قلت: وماذا في ذلك؟ لكل منا شأنه.. وأجدها تهز جسدها النافر بحركات سريعة موقعة، يتطاير شعرها الجعد ويخفق في كل اتجاه، يكتنز وجهها ببسمة سكرى وتنفرج شفتاها، ورويداً تهدأ أصوات الموسيقا وتتوقف هي عن الرقص وقد تعرقت واكتسى أبيضها احمراراً، والتقطتْ مرآة صغيرة بحجم الكف، وراحت تنظر في وجهها وشعرها وعنقها وصدرها، ثم أخذت تغني بصوت خافت، وسألت إن كان عندي غير هذه المرآة، قلت لا معتذراً، هزت برأسها متأسفة، وألقتها بإهمال على السرير، عادت تتابعني بنظراتها وأنا أستمر في المضغ، وارتسمت على وجهها علامات تضايق، فكففت عن الطعام، أما هي فانسحبت إلى السرير، وقالت إنها الآن تشعر بنعاس، بل بصداع لا يطاق، ورجتني ألا أزعجها في نومها، وانتبهت الآن فحسب إلى أن وجه فتاة السينما قد اختفى ليحل مكانه وجه أروى، تداخل الوجهان ثم غاب الأول، غدت القامة أكثر هيفاً، وصار الشعر الجعد مسبلاً.. تأملت هذا التحول فيما تركتها تنام على السرير الوحيد، وأمضيت ما تبقى من ليل أتقلب على الكنبة الوحيدة، نظرت إلى وجه أروى وهي نائمة، أدمت النظر، بدت لي طفلة بكت كثيراً ثم نامت، فاضت مشاعري بحب كثير نحوها.. جلست أمامها كأنما أحرس نومها، ونظرت إلى جسدها كمعبد عليَّ ألا أدنسه.. تحركت قليلاً، صدر منها ما يشبه أنيناً خافتاً، التقطته بقلب تسارعت دقاته، نظرت إلى تقاسيم جسدها، بدت لي كأنما تقوست على ألم، وشيء من دمع بلل رمشيها المطبقين.

عند الفجر غبت في نوم داهم، لأفتح عينيَّ في ضوء النهار على غرفتي

باردة كئيبة، وصورتان اثنتان تستقران في رأسي، فتاة السينما وأروى، وليستا هنا الآن، ولا إحداهما، ولا طعام البارحة، ولا من ينظر إليَّ بعيون ملحة، ولا يريد أن يرفع نظره عني. تأملت الغرفة ثانية، وجدت بعض كتبي وأوراقي في الصباح متناثرة على المكتب، شككت في أن تكون فتاة السينما سارقة، فتشت خزانتي الوحيدة، لم أنتبه إلى وجود شيء غير عادي، وفي درج المكتب كانت نقودي كما هي لم تمس..

كيف هربت، هربتا؟! ما الذي اختطفها، اختطفهما على هذا النحو؟! بت أفكر في وقت بدا أنه أول الصباح، لكن طرقات ملحة أيقظتني، فتحت الباب وذهلت في وجه الأستاذ عبد القادر وهو يستعجلني ليرافقني في طريق المدرسة. في الطريق حدثته بما رأيت، وكيف اعترض طريقي، قال يضحك:

– لكني لم أتركك، ها أنا أمامك ثانية، لله رجال..

وتوقف عن الضحك ثم قال بجد:

– الهدف واضح يا أخي يا مطيع، لكن طريقك إليه متاهة وضياع، أنت لا تعرف من أنت ولا ما ذا تريد! أنا رسول جدك إليك، ثق أن العبّادي الأكبر كان له يد فيما حصل، فحال بينك وبين المعصية، أنا آتيك اليوم وكل نيتي أن تحدثني عنه فأنهل من بركاته في حضرتك.

بدل أن أحدثه ظل هو يحدثني طوال الطريق، وأصبحْتُ أمامه كالمدان بأحلام تكشف عن سوء الطوية وزوغان المقاصد أكثر مما تكشف عن أي شيء آخر.. ولم تكف الخطوات التي أوصلتنا إلى المدرسة ليفضي إلي بفائض أفكاره نحوي، كأمانة يستثقل حملها بين جنبيه.

* * *

٨

سكنتني الخيبة، تعطشت لرؤية فتاة السينما حقيقة لا في المنام، أصبحت لغزاً حيَّر أوقاتي، فصرت أمضي الساعات قابعاً خلف زجاج مقهى السعد، أنتظر ظهورها، لكنها على نحو مبهم كانت قد اختفت. ومنذ ذلك الحين فقدَ جلوسي في المقهى أي طعم وغاية، وبقيت أتساءل في الأيام التالية دون أن أهتدي إلى إجابة: ما الذي جذبها إليَّ، ما الذي بعثها في حلمي؟!.. وكيف غابت لتحل مكانها أروى؟ وإذا كانت عيونها شدتني، فكيف انشدت هي إلى عيوني؟! كانت رؤيتها المتكررة في المنام قد جعلتني أعيش حالة ذهول، لا سيما بعد أن تداخلت الصورتان، وأخذت أفكر في ما يمكن أن يحصل من تخاطر بين الأنفس.

وعدت إلى ذاتي، وفي لحظات نادرة أخذت أشعر أنني أنقسم إلى ذوات، أتعدد، وصرت أنظر في المرآة طويلاً، أفتش عن هذا الذي يثير الناس في شكلي أو في عينيَّ أو نظراتي.. لحظات قليلة، أديم النظر عبر المرآة، فأصل لأن أحس لوهلة أنَّ أنا لست أنا.. انفصلت عني، أنا شخص آخر، ألاحق مشاعري الهاربة، لحظات أعود وألتقطها، أعود ثانية لأطالع عمق هذا الشعور.. أنا لست أنا، ثمة شخص آخر غائر في مجاهل العينين، أراه لأول مرة، يبدو غريباً ومفزعاً وعجائبياً، أنا آخر من عالم ليس عالمنا.. من طينة ليست طينتنا.. اتجهت أكثر إلى الداخل، غصت في عمق عينيَّ، في البؤبؤ، في طريق شديد السرية، أوغلت في

مجاهل روحي، في أعماق تفضي إلى أعماق، تكسرت خطواتي قليلاً ثم عادت لتلتئم، أنا لست أنا.. أنا لست من هنا.. أنا من عوالم تبحر في المجهول، وفي الهلع، وفي الضياع.. أجد نفسي أغوص عميقاً، أكثر فأكثر، أنعطف إلى الآخر، أحاول أن أتقمص لحظاتٍ مشاعر الناس، عندما يغرسون نظراتهم في عينيَّ، أتصور ما يثيرهم في هيئتي أو ما يجذبهم أو ربما ينفرهم.

ألوذ ثانية بذاتي الأولى، ذاتي الحاضرة، أرتد إلى صحوي فأجده ثقيلاً وضاغطاً على الروح وهو يضعني أمام الوجوه وعلى مرأى من الأعين، فأبحث عن مأمن أو ملاذ لا أجدهما إلا في العتمة، فالعيون تتلاقى في الضوء، في غبشه، لا فرق، أما العتمة فهي حجاب، حجاب وستر، وأنا.. كل شيء أصبح يشدني إليها، صارت أثيرتي، وجدتها قلب الراحة المشتهاة، ميدان حريتي الأرحب، حريتي المفصلة على مقاسي، فأكثر ما أصبحت أجد نفسي حرة وأنا في العتمة، في غياهب الصمت وفي السكون المطلق، حيث تتبدد النظرات، تنكسر وتضمحل، أو تصبح شيئاً من الماضي المنسي، المنطوي في صخب الأمس.. على هذا النحو سأجد في ظلام زنزانتي الآن أليفي الأوحد، فقد بت أنهل حريتي من بحر ظلامها، من ظلام حالك، ظلام ليس أي ظلام، بل من الظلام الذي أجد نفسي فيه أغرق في وحدة كلية سوداء، فأغيب عن أي شيء سوى نفسي اليقظة، ظلام يجعلني أهبط إلى الأرض، ألامسها وأنا أتحقق من موطئ قدمي، أو أبحث عن معالم الأشياء القليلة حولي، تماماً كما يفعل الأعمى.. وبالمناسبة أنا لم أكن يوماً أحب الليل الأقمر، ففي منتصف الشهر العربي كنت أجد نفسي آوي إلى فراشي مبكراً، وقد ضقت بالضوء الشاحب

المتسلل عبر نافذتي، وباتت أحبُّ الليالي إليَّ تلك التي يغشاها الغمام، أو تلك التي تكون في نهايات الشهر العربي، حيث يبدأ القمر يغوص في المجهول، حتى يضمحل تماماً في وقت المحاق، وأنقى ما تمنحني الطبيعة عندها أن أقضي ساعات من لذائذ الروح في قلب العتمة المطلقة، على السطح المسور، حيث لا أرى إن رأيت سوى ضوء الحباحب تشع بفوسفورها العجيب في ليل الصيف الساكن.. وحقيقة، فأنا أجد الظلام نوعاً من عفن أسود سام لكني ألفته، الظلام عناكب سود، في جوف زاوية بعيدة، في قبو داخل قبو.. الظلام أنيسي الأوحد، خليلي ونديمي، يوسفي ومنيري، صار الظلام ما شئتم من أسماء، هو الأزل وهو الأبد، والشمس طارئة على الوجود، تشتعل بنار حقدها على الخلق.. والقمر، هذا الطفيلي الأحمق، هذا الغبي كطفل أخرق، وهو يتحفنا بساعات بلاهته.. كم أود محوه من سقف السواد الأرحب. وتساءلت في سري بغيظ: هل العتمة أصل أم النور؟! هل بدأ الوجود بالظلام أم بالنور؟!.. وقفزت إلى ذهني في الحال الكلمات الأولى في (العهد القديم)، والتي لا أكاد أحفظ منه غيرها.. (في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه). فاطمأنت نفسي إلى تلك الجذور الرحيمة، وإلى حقيقة سبق العتمة للنور، وأنه مادام الأمر كذلك فإليها سيؤول المآل.. وأطلت النظر ممتناً في هذا العمق المعتم اللا نهائي للأزل.

وما تزال كلمات قرأتها في كتاب ما لجبران تتلبسني وتقفز إلى رأسي هي الأخرى في كل حين فأردد: «لقد صحبتك أيها الليل حتى صرت شبيهاً بك، وألفتك حتى تمازجت ميولي بميولك، وأحببتك حتى تحول وجداني إلى صورة مصغرة لوجودك.»

هذا اللقاء الحميمي جعل جبران يماهي بين نفسه وبين الليل فيتوحد به وينغمس في ظلمته، انظر كيف يردد مرة أخرى من أعماقه المنفعلة: «أنا ليل مسترسل، منبسط هادئ مضطرب، وليس لظلمتي بدء، وليس لأعماقي نهاية.»

حبي للظلام صار عشقاً لصالات السينما، هناك حيث الراحة مع حرية أن تكون، ضوء خافت أو لا ضوء، لحظات تمر أستسلم فيها لغبطة منتظرة، هاهي تحل، تنفتح الستارة وتنطفئ الأضواء، تخمد الواحد تلو الآخر، ويظل شعاع أوحد من مكنة العرض ينطلق من كوة صغيرة في الخلف يضيء الشاشة.. وينتهي الفيلم كالعادة بغلق الستارة وانبعاث الأضواء كشياطين صفر، فأخرج عندها إلى وجل الضوء، وثانية إلى آلام العيون..

في فترات تقنين الطاقة التي تعاقبت كثيراً، كان التيار الكهربائي ينقطع فجأة بلا موعد أو سابق إنذار، فأجد الظلام يهبط مرة واحدة، وفي الحال أشعر بامتلاء كامل، امتلاء أسود يغزوني فأستسلم لفسحته الرحيمة، وأهيم في عوالم من ثراء لا يعرفها الضوء..

أتذكر ليالي العدوان الثلاثي على مصر، أيام التعتيم عام ١٩٥٦، كنت طالباً داخلياً في دار المعلمين، وانخرطت أيامها في لجان العمل الشعبي التطوعي، التابع لهيئة الدفاع المدني، بطواعية هي الامتثال عينه.. قمت بتنبيه وأمر كل من في حي العزيزية والأحياء المجاورة بإطفاء المصابيح، وبيدي خرجت أطلي مصابيح الشوارع والحارات والأزقة، أضواء السيارات والواجهات الزجاجية للمحال التجارية.. أطليها جميعاً بالأزرق.. وفي الملجأ أجد نفسي مرة أنفخ الشمعة الوحيدة بيد طفل وأختطفها، فحتى في جوف الخوف والرعب تجد من يحملق فيك، تجد العيون الباصة كالدحل، أو كعيون القطط المسعورة..

وأتساءل الآن: هل لهذا الميل في نفسي أثر فيما يبدو عليَّ لكل من نظر من علائم الحزن والكرب، ولنقل السودنة الآتية بالطبع من ولعي بالظلام وبكل سواد!. هذا موجود بالتأكيد، فأنا أذكر مرة في خدمتي الإلزامية، وكانت استراحة الظهيرة، يرسل قائد السرية في طلبي، فأمضي إليه في الطرف الآخر من المعسكر، أحاول في الطريق متوجساً أن أعرف السبب، أرى الضابط في غرفته وحيداً، أقدم التحية، يقابلني بصمت يطول، أنتظر.. يديم التطلع في وجهي لحظات ثم يهز رأسه مطمئناً ويقول:

– وقع الاختيار عليك.. أنت تعلم أن العريف شهاب فارقنا بحادث مؤسف، سيكون هناك وفد للتعزية، أنت معلم أليس كذلك!. يجب أن تختار بعض كلمات المواساة، معك بعض السكر والدقيق وبعض المعلبات لآل المرحوم.. طبعاً معك بعض العناصر مرافقة، لكن أنت الآمر، أريدك أن تقوم بهذه المهمة باسم قطعتك وباسم الجيش العربي السوري، السفر إلى حماة غداً في الفجر..

قلت:

– سيدي فقط لي سؤال إذا سمحت.

– اسأل..

– لماذا وقع الاختيار عليَّ؟..

فاجأني بضحكة مفرقعة، انفجرت مرة واحدة.. ثم هدأ وقال:

– في رأيك كيف تكون التعزية؟!..

* * *

٩

في الأيام التي أعقبت حلم فتاة السينما وطوال أيام بعدها، عشت حمى الحب الضائع، عدت فأدمنت ارتياد المقهى وعدداً من دور السينما، أقول لعلها تظهر في إحداها، وشيء أشبه باليقين يحفزني، لكني وطوال أيام لم أعثر لفتاتي على وجود، أجلس ساعات في مقهى السعد أرنو طويلاً عبر الزجاج، لعلها تمر، في آخر اليأس أعود إلى البيت أشبه بميت يسير نحو قبره، أمضي الليل غارقاً في أسى متواصل.

وفي ذلك الصباح من زمن مضى أحس بجسدي مكدوداً، جبيني يتعرق، ربما بدأت أشعر بحمى خفيفة، ثمة كربٌ يغزوني، يمسك بالقلب ويعتصر، خطر غامض يهددني، لكأن الهواء قد شح في الأنفاس التي تصله، تساءلت ما الذي يكدر روحي ويدق في رأسي كمطرقة شر قادم.. الأفضل في ظني ألا أسير حتى لا أقع، ألا أعمل حتى لا أخطئ، لكن أين أذهب بهذه الحمى، وكيف أحتمل هذا الوجع الضاغط في الحلق؟!.

كنت قد هجرت سكن الأهل بعد سعاد، سكنت في أبعد حارة في حي باب الله، لم تشأ أمي أن تغادر حارات الحلوانية، وظلت تزورني بين الحين والآخر في بيتي المنعزل، تقطع الطريق من الحلوانية إلى باب الله مشياً، تحمل إلي طعاماً، أقبل يدها فتقبل رأسي، تغسل الأرض، تمسح، تنظف كل شيء، أخيراً تغير أردية الفراش وتحمل الملابس الوسخة وتمضي، تأتي بعد أيام.. في ذلك اليوم تزورني، وتنظر بفزع إلى عينيَّ الغائرتين، ووجدتها تثور وهي تلاحق بنظراتها الفوضى التي ارتمت في

كل مكان من الغرفة، تقول:

– إذا لم تتزوج أنا سأقتل نفسي، أنت.. أنت.. ماذا تنتظر؟! أنا يا ابني لم أعد أحتمل.. لماذا لا تريد أن تنسى ما حصل!. قصة سعاد يا ابني راحت وانطوت صفحتها!.

وبدأَتْ بالبكاء بعد أن اختنق صوتها.. أقول بعد صمت:

– يا أمي أنت تعيدين السيرة نفسها في كل مرة، وقلت لك لا يمكن أن أتزوج إلا بعد النقل، عندما أنتقل إلى مركز المدينة.. عندها فقط يمكن أن أفكر بالزواج.. هذا أمر فرغنا منه يا أمي!..

في تلك اللحظة ولا يبدو أنها اقتنعت، بل أخذت تردد كلمات حزينة:

– ظل أبوك طوال عمره يعذبني، ما عشت معه يوم هنا، حتى أنه لم يستطع أن يمتلك بيتاً يؤوينا، وها هو مقطوع في خرابة، وها أنت تعذبني الآن.. تربط زواجك بالنقل وما لا أدري..

تهز برأسها وتغيم عيناها، تنهض كأنما نفضت يدها من الحياة لا من زواجي فحسب، تتمتم ببعض كلمات، وتخرج دون سلام..

أشهدها تمضي وأتابع سيرها وهي تبتعد، ثم أفكر بأن الزواج في حقيقته هو أن تدخل الحياة من بابها الأوسع، وأنا لا أشعر أني أعيش، حياتي ومسراتي مؤجلة، وكل ما كان فيَّ من عجز أحسه مازال موجوداً..

أطلُّ من نافذتي على الحي في الأسفل وقد غرق في الأوحال وأكوام النفايات.. أرى أطفال المدارس وقت الانصراف يلقون بحقائبهم فتتجمع على الرصيف الترابي على شكل تل صغير، ويبدأ العراك.. أتذكر أني تخلفت يومين عن الدوام، وأن الأستاذ ماجد سيستقبلني باستجواب يسأل

فيه عن سبب التغيب، ربما لن يفعل، بل سينظر إلى نحولي ويقول:

– توقعت أنك مريض.

وسأهز برأسي مصادقاً على كلماته..

أعود فأتحسس لسع الحمى، أصل إلى الغثيان، أحاول أن أبحث عن شيء أفتقده.. إنه الهواء، يحل المساء، أفتح النافذة وأطفئ النور، يمر الوقت بطيئاً، يتقدم الليل مع برودة تلامس وهج الجسد، تبدأ العتمة تغزوني، أعرف أنني لن أنام، بدأت أخشى الفراش، أتلهى عنه، أؤجل النوم وأداري نعاسي بالنظر إلى جوف العتمة.

ليل طويل أمضيه في السهاد، لم تسعف الظلمة في تقصيره، فكرت في أروى، وقلت لا بد أن أراها غداً، بأي طريقة.. عدت وطمعت أن تزورني فتاة الحلم ثانية، لم يحدث شيء من ذلك، ضاع كل ما مضى في بئر عميقة، ولم ينفع أي ظلام في رده.

تعود صورة أروى إلى رأسي، تتجسد أمامي فتاة أشبه بملاك، لكنه ملاك من لحم ودم لا من أثير تبدد كفتاة السينما، وجدتها قريبة تذكرني بحضورها في كل لقاء، وإذا كانت الظروف لم تسعف أن ألتقيها باستمرار فقد وجدت في ذلك ما يساعد على أن أتعرف إلى عواطفي الحقيقية نحوها، وإلى عواطفها نحوي.. على أيّة حال، ظل الشوق إلى رؤيتها ملحاً، وبقيت وأنا في المقهى، أنظر إلى حضور عمر على أنه وعد غال برؤيتها، صرت أراه فكأنما أرى أروى، أسأله عنها بحذر، فيجيب أحياناً بأنه لم يرها أو أنها كانت في بيته يوم أمس، أو أنه التقى بها في اجتماع الأسبوع الفائت..

ويأتي يوم أراه قد حسم كل شيء، فلقائي بعمر كان نهائياً.. بدايةً يضمنا المقهى، نتحدث ونسخر ونعلق على أي شيء، سألته عن الرفاق

وعن الاجتماع القادم وأين سيكون، كاد الحديث يجرنا إلى أروى، لكن وجدته يسألني بلا مقدمات:

– مطيع! هل أحببت؟ أقصد: هل أحببت يوماً؟

تحيرت بماذا أجيب، لكن عمر كان كمن يسأل نفسه، فلم ينتظر إجابتي بل راح يحكي قصة حبه التي وصلت إلى فصلها الأخير المخفق.. وقال إنه أرسل يوم أمس رسالة أخيرة إلى خطيبته الدارسة في الاتحاد السوفييتي، عاد يتحدث عن مدة إقامتها التي طالت، وعن حبه الذي أماته البعد، قال إنه أحس أن ذلك الحب لم يبق منه شيء، وأن علاقته بها أصبح محكوماً عليها بالموت، لذلك لن يغامر في استمرار العلاقة، حتى الرسائل أتلفها جميعاً بعد أن أحس أنها صارت مجرد كلمات على ورق، وأضاف بحسم:

– بالنسبة إليَّ انتهى كل شيء، حتى إني لا أنتظر رداً..

وابتسم فجأة كمن يكنز في داخله خبراً أهم من حكاية حب ضاع وانطوت صفحته، ثم تابع بانشراح:

– يا صديقي يا مطيع! إن قلبي يشرب اليوم من رحيق آخر، يسعدني أن تكون اليوم أعظم صديق سيكون حاضراً خطوبتي..

ابتهج قلبي للخبر وسألته:

– من سعيدة الحظ؟

أجاب بابتسامة مشرقة:

– من في ظنك غير أروى؟

* * *

١٠

صباح سيأتي بعد صباحات، سأخرج من البيت أنفض ركام الحزن العالق بنفسي، حاولت أن أرمم صدعاً في روحي وأنا أسير طويلاً كالمُنوَّم، وصلت إلى وسط المدينة، وتحاشيت المرور بمقهى السعد، أوصلتني قدماي إلى أمام مقهى الملا خانة، فتداعيت على كرسي قريب متحسساً طعم الراحة بعد المسير.. يمر وقت وأنا أطرق برأسي وانظر ساهماً في كأس الشاي الثقيلة التي قدمها النادل..

كان المقهى فيما مضى موقف الانتظار قبيل الرحلة في مجاهل التراب حتى المدرسة النائمة هناك على أطراف البادية، وكنت قد سميته مقهى الانتظار والزمن الغافي، وأن تنتظر يعني أن تسرح بعينيك في وجوه تتلوها وجوه..

رشفت من كأس الشاي التي فترت، طلبت كأس ماء، ومددت نظري إلى الداخل كأنما لأتأكد إن كان الرجل إياه في تلك اللحظات في مكانه أم لا.. ولدهشتي وجدته كما في كل مرة سبقت، بصورة مرسومة لا تتغير، أشبه بلوحة فولكلورية منقوشة هناك على الجدار.. رجل عجوز باللباس العربي، يسحب الدخان باستمرار من نرجيلته، يستند إلى كرسي خيزران بجانبه، ويرفع قدماً أمامه على كرسي قش.. هذا المشهد دفعني كل مرة لأن أتأمله، قبعة وكوفية وشارب كثيف يمتد إلى عرض خديه.. عدت أسدد نظراتي نحو الرجل، ووجدته يلاحظني هذه المرة، يديم النظر في وجهي بعينين متسائلتين، تأكدت من نظراته.. ظل مسمراً عينيه في عينيَّ بفضول مفضوح.. أحد ما ناداه بالحاج نديم.. الغريب أنه لم يلتفت، ظل

يعلق نظراته في وجهي وينفث الدخان.. وقوة ما دفعتني لأنهض وأسير نحوه.. وبشهامة الرجال، حتى قبل أن أصل، جرّ كرسياً ورحّب بي.. رددت تحيته ببسمة وقلت:

– يا حاج أنت تنظر إلي طوال الوقت.. هل تشبه عليّ!..

رد هو:

– لا يا ابني، أهلاً وسهلاً!. أنا كل ما هنالك.. رأيت في وجهك شيئاً شدني، أقول الحقيقة.. زعزع كياني.. تعال.. اجلس.

أجلس متلهفاً لسماعه، الرجل قال:

– هذه ليست المرة الأولى التي تأتي فيها إلى هذا المقهى!.

قلت:

– نعم!. سبقتها مرات..

صاح على الصبي وسألني ماذا أشرب.. أطلب قهوة سادة.. ردد كلمات تجامل، كأنما يحاول أن يتحبب إلي أو يزيل حرجاً:

– ما أثارني يا ابن أخي عيونك.. لا أدري ما فيهما!. لكن كل ما أدريه وما خطر في بالي أنك شاب في مقتبل العمر كما أرى، وفيك شيء يرفض الحياة.. كأنك لا تريد أن تعيش.. أنا أعلم أن العين مرآة الروح، وأنت روحك تائهة، كأنما زاغت منك.. وأنت لا تجدها، ولكن..

لم أعد أسمع كلماته، زاغت روحي حقيقة، ثارت نقمتي دفعة واحدة، وبدا استيائي على وجهي.. بوغت الرجل بتورطه في فتح صفحة شخصية على خلفية لقاء لا يتعدى الدقائق، لكنه بحكمة الكبار هدّأني وتابع:

– لا تبتئس يا ابن أخي!.. اعتبرني عمك الذي يحبك ويريد لك الخير، أقول من كل قلبي يا ابن أخي: انظر إلى الحياة بفرح.. أيامك حلوة وغالية الثمن.. الحياة حلوة يا عيني.. اسمع كلامي، وإذا شئت اتركه وراءك، ارمه

في الزبالة.. أنت حر.. لكن أية حرية هذه التي أتحدث عنها.. أنت حر يا عين عمك بمقدار ما تعيش.. وإذا حكمت على نفسك بالموت، فأنت عبد.. عبد للفناء وعبد للعدم.. الموت!. ما هو الموت؟! الموت هو العدم.. أعطني أياماً وسنوات بل ودهوراً وأنا أعرف ما أصنع بها.. أنا أمضيت فترة من حياتي، من زمان طويل.. من أيام الشباب.. كنت هكذا.. كما أنت الآن.. زائغ الروح.. أتمنى الموت في كل لحظة.. كنت وقتها أشد تعاسة من قط شدوا فمه بكمامة.. هاجس الموت كان يشغلني في صحوي ومنامي.. بدأت الحكاية عندما توفي ابن عم لي اسمه نديم، على اسمي، على اسم جدنا الله يرحمه.. ولا أدري وقتها كيف خطر في بالي أن أحصي من أقربائي المقربين ممن يحملون اسم نديم كاسمي، ولا أدري كيف خطر لي ساعتها أيضاً أن من يحملون هذا الاسم سيموتون تباعاً بفارق سنوات معدودة، كان نديم الذي مات حديثاً قد فصلته عن موت نديم الآخر خمس سنوات، واستطعت لدى سؤال جدتي أن أعرف نديماً آخر مات منذ خمس سنوات سبقت.. وهكذا.. وبعد أن بحثت وتقصيت، وجدت أن عدداً من الندماء الأحياء يتقدمونني في الحسبة، وكان علي أن أنتظر خمسة عشر عاماً أخرى حتى يأتي دوري.. وتصوَّرْ أن هذا الهاجس بقي يلاحقني حتى نفدت الأعوام الخمسة عشر، ودخلت في جحيم الانتظار، فلا نديم باق سواي، دخلت في اكتئاب أسود، وأمضيت ليالي عديدة في الحمى والأرق، مت وأنا حي.. حتى كان يوم مرت جنازة قرب بيتي، وارتفع صوت الناعي الذي يتقدمها باسم نديم، سمعت الاسم بذهول، وفي الحال ابتردت أعصابي، قلت في نفسي ها قد أهديتُ سنوات خمساً جديدة، جاءتني هكذا من غامض علمه، رحل هاجسي، اختفى، لا أدري أين، وأقبلت على أيامي أتذوقها وأتلمظ، أتشهى كل سويعاتها ودقائقها.. ألا تدري أن الحياة بهيجة!. أعطني عشرات أخرى

ولتكن ما تكون، لأحياها برضا وتسليم.. لا أنكر ولا أعترض، لا أثور ولا أرفض.. ورحم الله أجدادي الذين قالوا: ألف ليلة قهر ولا ساعة تحت القبر. وأنا يا روحي نديم.. نديم الفرح والسهر وسحر القمر، نديم الماء والخضرة والوجه الحسن.. وأنت قل لي، ماذا تصنع بأيامك ولياليك؟ لو كنت مكانك لتمنيت أن أكون أول نديم في الحسبة..

وضحك عالياً، مد راحته ومسح على رأسي كما يفعل الكبار مع الصغار، وتركني مع وحدتي وفنجان القهوة الذي برد.

* * *

١١

عبد القادر السالم معلم زميل في المدرسة، تقي ورع لا يفوته وقت صلاة، ظلت علاقتي به لا تتعدى السلام وكلمات المجاملة.. لكن من صباح الحلم سيكون لعبد القادر شأن آخر، فليس مصادفة أن يعترضني يوم اصطحبت فتاة السينما إلى البيت، فأجده فجأة قبالتي، ينقل نظراته بين وجهي ووجهها.. كان إحساسي بفوزي بالفتاة قد دفعني لأن لا أبدي أي اكتراث، أن أتجاهله وأتابع سيري ساحباً فتاتي بقوة من يدها، عبد القادر يحاول أن يعترضني ثانية، لكني أدفعه من طريقي وأهرول.. الذي لازال غريباً كيف أن عبد القادر سيظهر على الباب في صباح الحلم!.. أنا وجدت في الأمر كله مصادفة عجيبة، سيظل يحيرني لغزها.. أحكي لعبد القادر في طريق المدرسة كل ما رأيته في منامي، أحكي دون أن أهمل أية تفاصيل، على أمل أن أجد رابطاً ما بين حلمي بالفتاة ورؤيته يعترض طريقي.. توقعت أن يفيدني بشيء، حتى لو كان على طريقة تفسير جدتي للمنامات، لكن عبد القادر قطّب وجهه لحظات وبدا عليه أسف شديد من طبيعة أحلام كهذه، ثم تحير بيديه وكرر عبارة (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وأتبعها بقولة: خير إن شاء الله.. وأنه لا يعرف سوى أن من أمامه الآن شاب مؤمن مسلم موحد، منسوب إلى العبّادي الكبير، وهذا بحد ذاته فضل من الله عظيم، فيجب على أيّة حال أن تكون نيته مصفاة مع الخالق كي تغدو أحلامه هي الأخرى مصفاة من كل ما يشوب.. وسألني كيف أقبل أساساً أن أرمق الفتيات بنظرات في المقهى والشارع، أن ألاحق مخلوقات

اللّه متلصصاً في كل مكان! ثم لخص حلمي بعبارة واحدة، قال:

– الرسالة واضحة يا مطيع! الزواج الزواج.. لو كان لمثل هذه الأضغاث من فضيلة فهي أن تدفعنا لنصحو في وقت يفيد فيه الصحو، لا بعد فوات الأوان..

كانت حكاية زواجي الخائبة قد شاعت، حتى بين المعلمين في المدرسة، وسميتها بيني وبين نفسي بالسر المفضوح، وكان عبد القادر هو الذي أشاعها، لتصير حكاية للتندر وتسلية الأوقات، وهذا ما جعلني أحس بالخشية تتجدد بعد حكاية الحلم، وبعد أن رأيت كيف عاد عبد القادر يبدي اهتماماً غير عادي بشخصي.. أيام تمر وأنتبه إلى أنه يجدُّ في ملاحقتي فعلاً، عيونه لا تفارقني، في المدرسة ولدى الانصراف، تبسم دائم وكلمات إطراء، يرافقني إلى البيت، يتعلل بأن له أقارب يريد زيارتهم في حي باب اللّه، في الطريق يوجه الحديث نحو التقوى والطاعة، يستبشر في أن يكون لي من اسمي نصيب، ونصيب في جنة الرضوان.. أيام قليلة أخرى وبدأ يدس في حقيبتي كتباً ومنشورات في المواعظ والدعوة، أصبح يشتم علناً حزب الكفرة والملحدين.. لا أدري من أين علم أني كنت أزور مقر الحزب الشيوعي وأجتمع بالرفاق في مقهى السعد، أصر مرة أن يقتادني إلى أداء فريضة الظهر، ملوحاً بحديث خطير يسره لي.. نذهب للصلاة، نخرج من المسجد ونسير معاً، يقول جاداً وبلا مقدمات وهو يسدد نظره في عينيَّ:

– يا أخي يا مطيع! عين المؤمن باب طويته وبيت سره، وأنا كلما نظرت في عينيك شدتني الأسرار نحوك أكثر، وفي كل الأحوال النظر إلى المؤمن عبادة، لكن النظر في عينيك أمر آخر، عيناك تفيضان بنجوى

الروح، الروحاني يغشاك من رأسك إلى قدميك.. لكن أنا زعلان لأجلك، وجدي وجدك رسول الله وسيد المرسلين زعلان أيضا.. والعتب واجب لأنه صابون القلوب، أنت يا أخي منا ولنا، فلا أدري حقيقةً ما الذي شدَّك إلى بيت الكفرة، أنت الصالح الذي أراه يخرج الآن من بيت الله!. أرجو أن تسأل يوماً نفسك هذا السؤال: لماذا تعيش؟ لماذا تعمل وتسعى في الأرض؟! إذا كنت مسلماً حقاً فيجب أن تحل هذا السؤال، وإلا لا معنى لوجودك.. ثم وجدته يسألني صراحة فيما إذا كنت أولاً قد حسمت مسألة الإيمان أم لا!.. لم أحِرْ جواباً، عاد عبد القادر فقال:

– أنا لا أريدك أن تركن لإيمان العجائز، لا بل أريدك أن تلبس لبوس الإيمان الصادق، الإيمان القادر والمجاهد، إسلام الجهاد هو ما نسعى إليه داخل الجماعة، تذكر يا أخي هدي من سبقوا، أنت ما علاقتك بفكر كافر وافد دخيل، أنت لا تعلم ما أعلمه أنا عنك، هل فكرت يوماً بمنبتك، بأصول آبائك وأجدادك، بجدك العبّادي الكبير شيخ الزهاد في عصره، بل بتاريخ عائلتك المنتهي نسبها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف أنه لا يليق بك عند الله قبل العبد أن تمضي مع هؤلاء الكفرة الذين لا يعترفون على دين ولا يقين..

استمعت إليه وأنا أحسُّ بالزهو لإطرائه نسبي، مندهشاً في الوقت ذاته لعلمه بجلوسي في مقهى السعد واجتماعي المتكرر بأعضاء من الحزب الشيوعي.. والأعجب علمه بنسبي الذي فاق علمي أنا.. أردف وهو قريب من البكاء:

– أذكرك يا أخي بمحنة العالم الإسلامي اليوم، بعهد المسلم، بمسؤولية خلافته في الأرض.. تذكّر أبداً أن لا وقت للتضييع، لا وقت للتفريط.. هذه مرحلة فاصلة نخوضها الآن، إذا لم نكن نحن الأمناء على الدين القويم فمن يكون!..

ظلت كلمات عبد القادر تتردد في ذهني أياماً، شعرت بخشية تلازمني، بحثت في داخلي عن شيء ما هاجع وعليَّ أن أستنهضه، وواظبت فعلاً على أوقات الصلاة، وهذه المرة في المسجد مع الجماعة، استمعت إلى دروس الإمام بعد صلاة العصر، تحركت شفتاي بتسبيحات وأوراد، رفعت كفيَّ بالدعاء والابتهال.. لكن الحين لم يطل، فبعد أيام عادت الأفكار وطارت من رأسي، غمرني ضياع حقيقي، ولجأت إلى مقهى السعد من جديد، قوة ما شدتني، عدت أفكر بفتاة السينما وأتلهف لظهورها، وصار عبد القادر يمر من أمام المقهى وينقّل عينيه بين الموجودين، الواضح أن مروقي أصبح يعذبه، كان يشمل المقهى بنظرة، وبمجرد أن يراني يدخل ويتقدم مني متأسياً وشاعراً بالإشفاق، يحاول أن يبدو كأنما يريد محادثتي بأمر خاص، وكل ما يريده بعد ذلك أن ينتشلني من أحضان هؤلاء الكفرة، أو من سهومي ونظري الدائم المتشبث بالفراغ عبر الشارع.. بعد أيام أخذ عبد القادر يظهر مع شاب أو أكثر، وجميعهم بلحى معفاة وشوارب محفوفة، يتقدم مني بأدب ويباركني وهو يعرِّف علي كواحد من أخلص الدعاة وأبعدهم صدقاً وشرف نسب وحسن طوية. أحدهم يبدي امتعاضاً من المكان ومن الدخان، ويمد قدمه إلى باب الخروج، يتوجه الآخرون خلفه، وأجد نفسي أتبعهم، يؤانسني عبد القادر ويباركني، نتوجه إلى بيته ونمضي أوقاتاً هناك، أو في مسجد الشيخ جابر العثمان، أشاركهم عشاءهم، أو نمضي جميعاً إلى وليمة دعا إليها أحد مريدي الشيخ جابر.. لكنْ على الرغم من انغماسي في صحبتهم وأحاديثهم بقي إحساسي بالضياع مسيطراً، وظللت أشعر أن هناك سوراً كتيماً يضمهم ويطوقهم ولا أستطيع أنا أن أخترقه.. والحقيقة أن هذا الإحساس ذاته راودني في أوقات اجتماعي مع الرفاق الشيوعيين، وتعزز أكثر عندما شربت كأس الخيبة في حب أروى..

على أيّة حال بت أشعر أني موزع بين ميل يشدني إلى عمر ورفاقه، وهاتف خفي يدعوني ويجذبني إلى جماعة الإخوان، وعلى رأسهم صديقي عبد القادر الذي ظل يؤانسني ويواصل التقرب مني. وعلى نحو ما شعرت أني عالق في الوسط، يتجاذبني إغراء الدنيا وإغراء الآخرة.. وكنت حقيقة قد تلقيت العطاءات المجزية من كلا الطرفين بما يكفي، عطاءات بدت على شكل تحبب وبركات ووعود بالصلاح والزواج والفوز بالجنة، ومن الطرف الآخر سهر وخمر وشبان وفتيات يرفعن أي كلفة بينك وبينهن..

في ذلك الحين بدأت أتردد على الشيخ جابر العثمان في مسجده قرب قاضي عسكر، كان عبد القادر قد نجح في الأخذ بيدي بعد ترددي الخائب على المقهى، وقال كمن أراد أن يتوج نصره:

– أريد أن أعرفك بسيدنا الشيخ جابر، ولك بعدها أن تقرر ما تشاء..

اصطحبني إليه ودخلنا الحضرة، كان الشيخ والإخوان قد وصلوا إلى نهاية الورد، جلست في الطرف الأبعد من الحلقة وتلمست عيناي المكان، صافحت الهدأة والصمت، وتعلقت عيناي بالشيخ طوال الوقت، انداحت أمامي الصور تلو الصور تنطق بهيبته، وبالخشعة التي تطوف في المكان ومن فيه.. نهضوا للذكر، ونهضت معهم ملتصقاً بعبد القادر، وأطفئت الأنوار، وانطلق اسم (الله) في فضاء الحضرة يرج المكان، ثم ارتفع الإنشاد من وسط الحلقة التي تصدرها الشيخ مغمض العينين، أحسست في نفسي لحظتها هياماً لم أعرفه من قبل، شيء جارف من سرور حملني عالياً وأطلق صوتي مع الأصوات.. الله.. الله.. الله.. وكل ما حولي أخذ يتصاعد ويتسارع عظيماً وموحداً وموقعاً بحركة الأجساد وترنيم الإنشاد الذي يسترسل بعذوبة مردداً هذه الكلمات:

هِـــمْ بحـــبي يـــا فتـــى وارضَ إذ أنـــــت أنـــــا
أغمـــــضِ العـــــين تـــــرى واصـــــبرَنْ تلـــــقَ المنـــــى
واهجـــــرِ القلـــــبَ الـــــذي هـــــام حبًّـــــا بالـــــدنى
ملتفـــــتْ لا لـــــن يصـــــلْ رغـــــم ســـــيرِهْ والعَنـــــا

إلى أن رفع الشيخ يده أخيراً يؤذن بالتوقف، هدأت حركة الأجساد وخفتت الأصوات مرة واحدة ثم توقفت، فأضيئت الأنوار، ولاحظت كيف انتبه الشيخ حالاً إلى وجودي، ثم استدار ونظر في عينيَّ كمن يتذكر أنه عرفني سابقاً، أحسست بكل هذا الجلال وأنا أنهل من مهابته، وشيء ما طار بي، ووجدت نفسي في الحال أنجذب إليه فأتقدم وأخطف يده فأقبلها، عاد الشيخ فنظر إلي بعينين ترقرقت فيهما بسمة، قدمني عبد القادر إليه، اتسعت ابتسامة الشيخ ومسح على رأسي ونطق باسم جدي العبّادي، قال:

– الحق أن ننهل نحن من بركاتك..

غمرتني كلمات الشيخ التي ترددت في أسماع من حضر من الإخوان، وأخذت أحس منذ تلك اللحظات أن يداً خفية أمسكت بقلبي برفق وجذبته فانجذب، وبدا لي أن ما بنفسي من ضياع أخذ يتلاشى، ليحل مكانه حب راح يغمرني في كل لقاء.. إلى أن جاء يوم صار فيه هذا الحب فيضاً، جعلني أخفُّ للقاء الشيخ في كل ذكر يحييه ليلة الاثنين والخميس.

تمر أيام وأهيم بالشيخ حقاً، أحضر كل أوقاته، أتشرب كلماته وأخشع، وتضمنا ذات يوم جلسة عامرة في الزاوية، حيث يقيم الشيخ حسيب عيسى، صفيُّ الحضرة ومؤذن المسجد، وأجد كيف أن الشيخ جابر راح يخصني بأنس نظراته، فأتلهف لما سيأتي.. تحدث الشيخ

بكلمات قليلة، ثم سهم لحظات وتوجه إليَّ، أنا بالذات، بحديث عن إعمار الأرض، ورسالة الإنسان للخلق، وكيف يدفعه الزواج المشروع ليدخل في دائرة الحرز والصون، فالوصول إلى الصلاح لا يكون إلا بإتمام نصف الدين أولاً، وفي الإمارة بين الجماعة ثانياً، وثمة ما هو آت عندما يحق الحق ويزهق الباطل.. وأن هناك الوعد والوعيد.. ووجدته يتوقف عن الحديث وينتظر أن أجيب على كلماته، لم أدر بماذا أجيب، فرجوته أن يدعو لي لعل شيئاً من ذلك يتحقق، ثم وجدت نفسي وأنا أنظر في عينيه المتسائلتين، أحكي له طرفاً مما كان في زواجي الأول، وأني أتمنى أن أوفق في زواج آخر، وشرحت أن ظروفي الآن لا تسمح، فأنا في انتظار أن أنتقل إلى مركز المدينة، وبعد ذلك سأفكر فعلاً في الزواج.. وينظر الشيخ إلى وجهي ببرود:

– وهذا النقل، متى يحصل؟

أرد بتلعثم:

– لا أعرف! هناك وعد من الموجه التربوي، ربما يكون في العام القادم أو العام الذي يليه..

لم يكترث الشيخ بالرد، وعاد يبين لي ضرورة إتمام نصف ديني، وأن ما أضعه سبباً لا يبدو له مقنعاً، وأنه لا شيء يجعل الإنسان يرفض طريق الهداية ويسير بقدميه على درب الضلالات، بدءاً بالسينما وانتهاء بأحلام عن اصطحاب فتيات إلى البيت..

ذهلت وأنا أغتلي غيظاً من أن يكون عبد القادر قد حدثه بحلمي إياه حول فتاة السينما، أردف الشيخ بعد صمت وتأمل:

– كيف يقبل الإنسان التقاط فضلات الطريق، في وقت جعل الله له فيه أن يأكل من مائدة عامرة!. أتحب لقيطة، ألم تفكر؟ كيف تقبل

نفسك، كيف يطاوعك ضميرك؟!..

رددت وأنا أفكر كيف حوَّل الشيخ الحلم إلى حقيقة:

– لكن الإنسان لا يتحكم بواقعه حتى يتحكم بأحلامه!.

قال الشيخ منفعلاً:

– هذا غير صحيح، إن ما تنسجه في النهار تلبسه في الليل، على المقاس، فأنت من فصلته بيديك، ذلك الحب المحرَّم، هو ما أخشى أن تكون قد سعيت إليه، أنت ضائع حقاً يا بني! على كل حال، باب التوبة مفتوح لا يرد القاصد، دع الفتاة وسرها وهروبها، كفَّ عن التفكير في ما مضى، والتفت إلى نصف دينك وأتمه بالزواج المبارك المصون إن شاء الله.

ظلت كلمات الشيخ تتردد في رأسي ممزوجة بطعم الزجر الذي لم أحتمله، لكن لأمر ما تطامنت نفسي وقد برزت أمامي في تلك اللحظة صورة أمي، وعلى وجهها بسمة تصعد من أعماقها المتعطشة إلى رؤيتي عازماً على الزواج.

* * *

١٢

أردت أن أعاتب عبد القادر على ما حصل، لكنه قطع كلامي وتجاهل ثورتي قافزاً على حبال الكلام:

– أنت من أنت حتى تعترض!. سيدنا الشيخ يرى ما يرى وأنت تمتثل، هكذا ربينا نحن!.

ثم عاد يستجلب رضاي وهو يمنيني ببركات الشيخ جابر، الذي هفا قلبه لهدايتي بعد أن رأى فيَّ سراً موصولاً ببركات جدي العبّادي..

المسجد حيث الشيخ والإخوان أصبح الملاذ، أحاديث الطريقة والسلوك هي ما يجود به عبد القادر في كل حين، ووجدت في نفسي على الأثر تعلقاً أشبه بالهيام بمشايخ الصوفية الكبار، بعد أن أطلعني عبد القادر على سير عدد من رجال السلسلة، مفصلاً في أنسابهم وسيرهم، ثم فاض بالحديث عن الطريقة والشيخ والمريد، عن الدرب والسلوك والغاية، خاض في معنى الألوهية والعبودية، مذكراً إياي في كل حين بطهر الأولين، وأحاديث الهدي الرباني، ورؤى العارفين المنقطعين لتلقي الهبات والنفحات، فهي أثمن ما في حياة البشر..

وفي ليلة فاضت بالإشراق يغادر عبد القادر بيتي متأخراً، وأستلقي للنوم فلا يغمض لي جفن، فألجأ إلى أورادي أتلوها، ثم ألتمس في نفسي قوة ما تدفعني للنهوض وهجر الفراش، وفعلاً أترك غرفتي للعتمة والسكينة، وأخرج محمولاً على النفحات، وقريباً من أذان الفجر، فأسير نحو المدينة، أدخل في ظلام الأزقة الضيقة، أقذف رجلي في أحدها فيسلمني إلى آخر،

ورويداً رويداً ألامس شيئاً ما كان قد غفا طويلاً في نفسي، أحس في سيري بصحو لم أعهده، وصلتني أنفاس النائمين وأناتهم، تمنيت في تلك اللحظات أن ينهضوا من نومهم ويسيروا خلفي، داخلني في سيري الرضا وغمرني سرور، تنسمت هدأة الراحة عبر أنفاس عميقة ملأت بها صدري، وسرت هذه المرة بمفردي قاصداً مسجد الشيخ جابر العثمان، أقترب منه وأرى ضوء مئذنته الأخضر، يظهر لعينيَّ كبارق لاح من عالم آخر، أدخل بابه المقنطر والصبح في غبش، وتفضي بي الساحة الصغرى عبر عرائش الياسمين وشجرة الليمون إلى قاعة القبلية، فأسير نحو ركنها الشرقي، وأعبر القوس الخشبي فتحتضنني الزاوية، أرنو طويلاً بذهول إلى جلالها وقد انغمست كلها في السنا الأخضر، ثم أسرح في السجاجيد والحشايا تسور الجدران الخشبية، وبالسيوف تعلقت على الحائط في الصدر تتصالب مع التروس، بالمناديل الخضر وقنديل الزيت.. وتنتشلني من السحر صورة الشيخ وهو يتصدر الحضرة، مغمض العينين غائصاً في خشعته، قلائل في الزاوية يجلسون أمامه، تتحرك أجسادهم خفيفة على هدي الأوراد، اقتربت وهبطت إلى يده أقبلها، مسح الشيخ بالأخرى على رأسي، أجلس لا أحول بصري عنه، وأرى جماله يفيض، لحظات تمر ويرفع الشيخ نظره إليَّ، يشملني بابتسامة.. وأجد نفسي ثانية أنغمس بكل هذا الجلال، تهدأ نفسي وتطيب، وتغمرني مسرات ما عرفتها وأنا أرنو إلى الشيخ فيما هو يتم صلاة التهجد.. غبطته على المغنم الأكبر، وعرفت غنيمتي أنا أيضاً، فلكل أحد في هذا المقام قسمته من النفحات، أنا الآن حقاً في أحضان ما تمنيت، هنا لن ترتفع العيون لتنظر نحوي، فكل ما أمامي عيون مغمضة، ورؤوس مطرقة هائمة في ملكوتها.

نؤدي فريضة الصبح، يتصدر الشيخ بعدها حلقة الورد، ويقطع السكينة

على فترات بكلمات التسبيح، يرددها خفاءً من تحلقوا أمامه، الإخوان القلائل مضوا يعدون تسبيحاتهم بحصوات تتساقط بنعومة في أيديهم.. جلست أشهد هبوط البركات، في لحظات فريدة من زمن، كل شيء يجري هنا بأعراف الحب والطاعة، الشيخ يقود ورد الصبح بقوة خفية، يتصل حاله بمن حضر، وترتسم على الوجوه علامات الخشوع.. تتسلل خيوط الفجر الأولى، ويفيض الشيخ بكلمات تنهل من عذوبة.. عبارات تطل كأنما من وحي علوي، تنتشلني وتهزني.. أتمعن ملياً في قوله:

– «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

عبارة فاجأتني من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يطلقها الشيخ ويتبعها بقوله:

– «آه من سكّير لم يعلم قدر عربدته إلا وقت الإفاقة».

تهزني الكلمات من الأعماق، وتندفع الدموع إلى عينيَّ مع فيض من الحسرات..

ينفضّ وِرد الصباح، لكن شيئاً ما في داخلي يصحو، أحس به قوياً وواثقاً، وتنتعش روحي وترف أجنحتي لأطير.. ظلت كلمات الشيخ جابر تتردد في رأسي، وأنا أسير في طريق العودة إلى البيت، ذاهلاً عن الطرقات والعابرين.. وقلت: معنى ذلك أن الولادة هي أول النوم، نوم طويل خامل، حياة بطول ليل لا يعرف له صبح، فكيف يكون الصحو يا إلهي؟!.. عادت كلمات من الإنشاد تدور هي الأخرى في رأسي «تقاسموها وأنت نائم، تقاسموها وأنت هائم..» وتساءلت عما إذا كان الإنسان يرتضي لنفسه بالزوال ويسلم به، فما أشد خسران العبد وهو قانع بما حصله من متاع زائف، وزاهد فيما يرضي ربه، بل ما أكثر النفحات المارة به وهو ساه عنها، سادر في أحلامه، هائم بالأغيار، فيا رب اشهد أني

لست منهم، وأن كل مناي أن أكون مع أهل القسمة، هائماً بهم، مطيعاً لأمرهم، أنا الطائع المطيع يارب، وكل ما سواك قهر وبهتان، زيف وضلال، رب إني أشهدك على ضعفي وذلي وضيق حيلتي، فتقبل توبتي يا كريم، هم تقاسموها وأنا كنت نائماً، فما الذي أجتنيه بعد؟ ماذا في جعبة كل الأنام لينجدوني به، وما قيمته إذا كان في غير ما جنى عبدك وغنم في ساحتك وتحت ظلالك؟ فآه على زمان ضاع من غير أنسك، وأسفاً لوقت مضى في غير طاعتك.. العون العون يا رب.. الغوث الغوث يا إلهي، فأنت المولى وأنت النصير.. إلهي الأوحد!.. ما أوحش الإنسان إذا لم تكن أنيسه، وما أضيق الطريق إذا لم تكن دليله، بل كيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟ وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟.. باللّه لو صحت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه، أو لغابت في حبه..

ذرفت عيناي دمعتين، وغمرني حنو لم أحس بمثله من قبل، فوجدت حينها كأني قد صحوت من غفلتي، أو كأني انتبهت من رقدة طالت، شيء ما انقشع أمام بصري، أو هي أثقال وأحمال أحسست بها تنزاح عن صدري..

سرت طويلاً في طريق العودة، حتى بدأ الناس يعبرون الأسواق ويتحركون صباحاً في الأزقة، نظرت إليهم ورأيتهم يسعون في شؤون زائفة، أبحرت في عيونهم، غصت في دواخلهم، بدوا لي غرقى أمواتاً، فكرت لحظة في أنهم بحاجة إلى صيحة توقظهم من هذا السبات، وتنتشلهم من هذا التهافت، من هذا الموت.. لقد طالت الغفلة يا قوم، وهذه القشور التي تسعون وراءها سرعان ما تتطاير أمام أعينكم فلا تجنون بعدها إلا قبض الريح، وأما أحبابي أتباع الحضرة، فهم وحدهم من وقفوا

على اللذائذ، وتعسلت أفواههم بالأطايب، حتى قال مقدمهم ومهوى أفئدتهم إبراهيم بن الأدهم، كما حدَّث الشيخ جابر اليوم: «لو علم الملوك ما نحن عليه من لذة لجالدونا عليها بالسيوف». فبئس الزمن الضياع، وبئست الأمة أمة لا تبصر طريقها والضوء مفروش أمامها كنسيج نور، يا الله! هل ما أراه من نفحات في هذا الضحى سحابة أمل تلوح في الأفق، أم أبخرة ملولة لا نلحظ من ظهورها سوى اختفائها؟!.. هل ما أحسته روحي في ذلك الحين نفحة فريدة من تلك التي تمر في لحظة الانعتاق؟!.. «ألا إن لدهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لها..» ها هي ذاتها، نفحتي الكبرى، أبصرتها في نفسي الآن، ضاء داخلي بنور وهاج، شعَّ باهراً يفيض بالرحمات وبالتجليات، لم يكن ضوءاً يسقط عليَّ من عل، فنور الباطن من الباطن، من عمق الأعماق، ينجلي هدياً غامراً تذوب فيه الأحشاء، تنغمر به، فإذا الجسد كله يضحي سحابة نور، يطير ويندغم في الأنوار الأخرى، في السنا ونهر الأزل الأخضر..

مع هيامي بالحضرة في ما أعقبَ من أيام، ومع مواظبتي على الذكر والختم الشريف، بدا لي السير طوق نجاة، تعلقت به إلى حد الإنهاك، بهما معاً وجدت أني ألتفت إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حياتي الضائعة، على نحو ينتشلني من حافة الهلاك.

في السير مع الذكر يتصاعد من قلبي ويتحرك به لساني بدا لي كل شيء عابراً، ليس ثمة عيون تحدق، بل نظرات عابرة تنزلق ثم تختفي، ما إن تبدو لك حتى تتلاشى، لم يعد شيء يثقل على عينيَّ، بل بات السير ترييضاً لهما، تجولان على هواهما ساعات، تتصفحان الناس والشوارع، السماء والشجر، الحارات والأزقة، تقرآن في آيات الخالق

المتجلي، لا شيء يحد من انطلاقهما، ورأيت حينها أن أشد ما بات يؤلمني النظر من الثبات إلى ما أمامي أو قربي، وعلمت أن الوقوف شر ما يبتلى به عبد، وأن السير هو الملاذ وهو الطريق، طريق أي مجد وأي صلاح.. وهذا ما جذبني أشد في الأيام التالية إلى مولاي الشيخ جابر، فمن بين كل مشايخ الطرق عُرف هو بموكبه السائر يجول في الطرقات، هذا الموكب حقيقة هو ما هزني وأيقظني من سبات وموت، الشيخ ينطلق بنا عصراً، يطوف في الأحياء المتاخمة للمسجد، وسواء قصر المسير أو امتد كان لا بد أن ينتهي إلى المقبرة الكبيرة، هنالك تعد المصطبات على القبور فنجلس حتى وقت المغيب.

أسير طويلاً خلف الشيخ وعيناي لا تفارقانه، فأمامي قامة جليلة بحجم المهابة تتقدم، الشيخ في الأمام ينقل قدميه بين القبور، ثم ينتهي إلى سدة قبر عال فيجلس على مصطبته، ويحف به المريدون، تحتضنهم راحات من خشوع، فيبدأ درس الوعظ، يملي الشيخ على المسامع دروسه وأرجوزاته، وترتفع دعواته المبتهلة إلى الله قبيل المغيب، فأمد كفيَّ مؤمناً، وأنهل من حبٍ يفيض..

يستمر وقت الشيخ في المقبرة حتى قبيل المغرب، ويكون الشيخ حسيب قد سبق الجميع إلى المسجد ليرفع الأذان، فيما ينهض الشيخ ويعود أدراجه، يتهادى الإخوان خلفه في موكب تحفه الهداية والرحمات، يدخل الموكب المسجد وقت صلاة المغرب، وحتى العشاء تنعقد حلقة التسبيح والأوراد.. بعد العشاء ننهض إلى الذكر، الذكر مسك الختام، بت أنشد السلوى في ظلامه، وأحس كأنما يد الله امتدت لتنتشلني من حمأة اليأس وجحيم الفناء، ولحظة واحدة فاصلة، أتذكرها فأتذكر أول انطفاء شهدته للنور في بدء الذكر ليلة الخميس، شعرت في

الحال وقتها أن حياتي كلَّها قد انقلبت رأساً على عقب، تلك حياة جديدة منحني الله إياها، غمرني الرضا وغبت عميقاً في النعمة والامتنان، لم أحص كلمات الشكر التي فاض بها قلبي ولهج بها لساني، ووجدت نفسي ممتناً بفضل لا أفي حقه لعبد القادر الذي دلني على موكب الشيخ ومجلسه.

* * *

١٣

بقيت أحرص على جلسات الختم والذكر ليلة الاثنين وليلة الخميس، أصبح الإخوان إخوتي، أما عبد القادر فقد أخذ من الشيخ جابر أمر تسليكي، فراح يتابعني ويرشدني إلى الأوراد وأوقاتها وغاياتها، إلى آداب الختم الشريف وفصوله.. وأن تكون في الختم فأنت بين يدي الحق، ومن أرفع آدابه إغماض العينين لعدم الانشغال ولجمع القلب.. وكان هذا الإغماض عينه هو ما شغفني وألقاني بالجذب في قلب الحضرة. على الرغم من ذلك ثارت أول الأمر شياطين كنت ماأزال أحاول لجمها، فقلت في نفسي: لماذا أغمض عينيَّ؟ وفتحتهما مرة، فرأيت الشيخ أمامي في وسط الحلقة بصورة القمر ليلة البدر كما يقال، رأيت وجهه يضيء ويتلألأ، فأغمضت عينيَّ في الحال، ثم بعد هنيهة خطر لي أن أفتحهما، ففتحهما ثانية، فرأيت الشيخ هذه المرة بصورة الشمس، فخشيت أن ينخطف بصري من شدة النور، فأغمضت وهمت مع حقيقة سطوعه وإشراقاته.

الذكر في الجامع بعد العشاء، وأسراره ونفحاته، لم تكن تعادل عندي ظلامه الدامس، أصبح موعده في مساء كل اثنين وخميس لهفة انتظار، هنالك حيث الأضواء محتجبة، وأنت لا تسرح في الملكوت وتصعد مع كلمات الذكر إلا بمركبة الظلام.. الأضواء تنطفئ تباعاً، ثم تنعدم في لحظة نادرة من لحظات النفح الإلهي، فتبيح للأصوات أن ترتفع كما تشاء، وللأجساد أن تهتز وترقص كما تهوى، وللإنشاد أن يصدح حتى السماوات العلا، وأجد نفسي أطير من نفسي وأهيم بكل هذه الأسرار والبركات المتجلية..

لازلت أذكر كيف وقفت في حلقة الذكر أول الأمر مأخوذاً.. رحت أتملى في روعة ما يجري.. في البداية ينهض الإخوان فيتحلقون حول الشيخ وهو يتقدم إلى وسط الحلقة، ثم يعطي إشارته فتعلو شيئاً فشيئاً كلمات الركزة الأولى: (لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله)، تتكرر في البداية بصوت خفيض وتوقيع واحد، بينما رنيم المنشد الشيخ حيدر يتسلل ندياً ثم يتدفق أكثر ويصدح على هدي البركات والنفحات، وتفيض اللحظات حينها بغناء تتجاذب أطرافه مغريات الدنيا ومغريات الآخرة، وبصوت موقع يتطاول ويمتد رخيماً، ينشد ويردد معه الآخرون في الفرقة، بأصوات ترتفع وترتفع، وأثناء ذلك تتسارع كلمة (لا إله إلا الله) وتصعد لتعلو أكثر وأكثر، لتمضي أبعد فأبعد في الوحدانية الصمدانية، في الخشعة والنفح الصادق.. لتقف بعدها مرة واحدة بإشارة من يد سيدنا الشيخ، وهنا تهدأ حركة الأجساد تماماً، ويتوقف الإيقاع كله، حيث يتم الدخول في إيقاع آخر، يبدأ من جديد خفيضاً، تحمله كلمة الذكر في الركزة الثانية: (الله.. الله.. الله..) تقاسموها وأنت نائم.. تقاسموها وأنت هائم.. (الله.. الله.. الله..).

نظرات سيدي ظلت تلاحظني، بتُّ أراها أنسي الأكبر، وكثيراً ما كان الهيام يأخذني، بسلك خفي له جذب لا يقاوم، في تلك اللحظات كان جسدي ينفصل عني، ويأخذ بالوثب والتلوي، وينطلق من فمي ما لا أدري من الصرخات.. وتحملني مركبة العشق على أثير، تمضي بي لتدخل بعد لحظات في برزخ آخر، لا زالت تنتابني رعشة رقيقة بمجرد تذكر تجليه وفيوضاته..

في أسابيع أصبحت المريد المقرب، أحسست بمنزلتي الرضية في قلب سيدي الشيخ جابر.. وما دام بنظراته قد خصني، فإليَّ باتت تتوجه العيون، تتبع ما تراه عين الشيخ، حتى في العتمة، حيث تعلو كلمة (الله)

واحدة متكررة متناغمة مع حركة الأجساد، مع خفقات القلب، كنت أحس بالعيون معلقة بي، لكنها هذه المرة عيون أنيسة، ترسل الود والسكينة، وتسمو عن كل عَرَض. تطامنت نفسي، وحملتها على ضربات الدف الموقعة.. الله.. الله.. سبّحت الله وسبّحت، غصت في الأعماق الرحيمة، وعمت على دثار من هيام.. انجذب قلبي لشيخي يملأ الحضرة، كانت عيوني تصافح عيونه في لحظات خاطفة ووسط أطياف الظلمة فيبتسم.. وسأعلم فيما بعد حقيقةً أن نظرات شيخنا النفاذة كانت مدداً نورانياً نحسه بقلوبنا، وبأنظارنا نتلمسه..

كان الشيخ حسيب قد أسرَّ لي أن سيدنا الشيخ جابر كانت له فضيلة اصطياد الرجال كي يتدرجوا في سلك التائبين العابدين، ويرتقوا في معارج القرب إلى رب العالمين، فقد كان – قدس سره – يرى بعين الولاية والفراسة هؤلاء الرجال، فقلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون. أضاف الشيخ حسيب: في حبنا لا شيء يعدل النظر، إنه رسائل الأفئدة، به تحيا وتعمر. وقد جاء في ذكر الشمائل المحمدية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت تربيته لأصحابه بالنظر، يعني فيما لا يحتاج إلى كلام.

وحقاً وجدت كيف كان يتجلى تأثير سيدي الشيخ جابر على تلاميذه بمجرد النظر، بل عليَّ أنا بالذات، أما المنشدون في صدر الحلقة فكان إذا نظر إليهم نظرة فهموا منها ما يحلو له من إنشاد في تلك اللحظات، فيغرفون من قلبه معاني تحرك القلوب وتهيج الشوق والحب والحنين إلى علام الغيوب. كانوا أشبه بطيور تغرد، وهو يدور بعينيه على المريدين، فيُنْهِضُ هممهم بنظرات يتردد فيها وميض من سنا علوي.. وفي ليال تالية تحقق لي أن للشيخ جابر في عيون مريديه نظرات تنفذ في القلوب

فتخرجها من غفلاتها، وتفعل فيها ما لا تفعله الكلمات والمواعظ، فقد كنا نجلس بين يديه وعيناه الكريمتان تتقلبان علينا وتَنفُذ آثارهما في الأفئدة، فكان كأنما يربي مريديه حقيقة باللحظ لا باللفظ.

وفكرت فيما حصل لي من بركات سيدي، وقلت في نفسي: إنْ هي إلا مسألة قبول، قبول يأتي بعد الحب. وأي حب هذا!.. إنه حب الله لعبده واصطفاؤه إياه.. فالحق سبحانه هو الذي ينادي في عالم سماواته وأرضه أنه يحب عبداً من عباده، فيوضَعُ له القبول في الأرض بعد أن يذكر في السماء. «متى أوحشك الله من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به.» عبارة لابن عطاء الله السكندري وردت في كلام شيخي عصراً ونحن جلوس في المقبرة، هزتني من الأعماق، ورسمت لي علامة أكيدة على الطريق، فبها عرفت صحيح خطوي، وفيها رفرفت راية قلبي، بعد أن سَرَتْ فيه دفقة أنس ورضا.

وأشعر حيناً بعد حين أن فيوضات سيدي الشيخ قد طهرتني، وأن تجليات أسراره قد غمرتني فأزاحت من نفسي ومن طريقي كل كدر. والنعمة التي لا تفوقها نعمة لدي، أني أصبحت الآن لا أعبأ بالأعين، ويلازمني شعور على الدوام أني تحللت من كل دنياي التي سلفت، تخففت من أعبائي، رَقَّ جسدي فارتقيت، انجلت عيوني وشفت، فبعد أن خطف حبي بصري، ضاقت رؤياي، أصبحت لا أرى إلا ما أحبُّ، وعرفت سر قول من قال: عين المحب ضيقة، لا ترى إلا محبيها.

في الأيام التالية أصبح الشيخ رضا إمام جامع الصاخور صديق دربي إلى الحضرة، وكان جاري في أقاصي حي باب الله، ومن أقرب المقربين إلى الشيخ جابر.. الشيخ رضا أخذ فعلاً لا بيدي بل بقلبي على الدرب، يقف معي وقفات تطول على الطريق، يقف ويحدثني، عرفني بداية على

التوجه، فعلمت أنه انكسار القلب إلى الله والطلب منه سبحانه إصلاح المتوجه ونقله من حال الغفلة إلى حال اليقظة، لأن الغفلة تعطي الأمن، والانتباه يعطي الخوف.. ووصل بي تباعاً إلى الدخول في «رابطة القبر»، حيث يتصور المريد أنه مات وغسل وكفن ووضع في قبره وانصرف عنه الأهل والناس وبقي وحيداً فريداً ينتظر رحمة ربه، امتثالاً لأمر النبي عليه السلام: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدَّ نفسك من أصحاب القبور.»

أما الذكر فهو زاد السالك في سيره إلى الله سبحانه، بل زاده في أي طريق، فالاشتغال يجب أن يكون به، وإلا انصرفْتَ إلى الاشتغال بغيره. وهكذا أصبح كل الطريق إلى الحضرة ذكراً، إلا ما تخلل من وقفات يتحفني بها الشيخ رضا بكلمات تفيض بالوعظ والإشراق الرباني، يسترسل في كلماته، ثم يقف ويلتفت إليَّ ليؤكد على قول أو موعظة. ومما أفادني به أن الذكر نوعان: الأول قلبي خفي، والآخر لساني جهري. ويأتي الختم بدوره أذكاراً معينة يختم بها الشيخ مجلسه، وفيها تمام الفائدة، وله كما حدثني آداب وأركان..

تمر أيام وتأتيني ما عددتها بيني وبين نفسي أولى النفحات.. ففي حلقة الشاي المنعقدة بين ركزتي الذكر، يرشف الشيخ من كأسه ثم يرتفع صوته بعبارة: «إن المحبَّ لمن يحب مطيع» وتلتفت العيون نحوي، أحس لحظات بوطأتها، وكأن الشيخ لحظ ارتباكي، فأغمض عينيه وأمال رأسه إلى صدره وأسلم الجميع إلى لحظات صمت، لحظات أخرى تمر وإذا بجسده يهتز ويعروه حال ما رؤيت عليه قبل، فصاح من بقربه وارتعد، وهام الجميع، ونهض الشيخ ليقف وسط الحلقة وأمامه المنشدون، أخذ يشير بيديه ويقود جوقتهم، وارتفع في تلك اللحظة صوت الشيخ حيدر:

لـــــــــك في قلـــــــــبي دار   وعليـــــك القلـــب دايـــــر

وما إن أتم الشطر الأول، حتى رفع الشيخ يديه إلى أعلى وحركهما كما لو أنه يقطف ثماراً من شجرة قريبة، وصاح الشيخ حيدر لحظتها من الهيبة والذهول (هُوْ) ومدَّها، فانطفأت أضواء الحضرة جميعاً في لحظة واحدة، وارتجَّت الزاوية بأصوات ضارعة إلى الحق، واتحدت جميعاً بعدها بصوت الذكر الواحد.. الله.. الله. ويمضي الشيخ حيدر بنشيد، وجدت فيه كما في كل مرة بلسماً لعلاج النفوس، بمحو الصدأ منها والصديد، فينشد وينشدون:

انتبـــــهْ مـــــن غفلتـــــكْ   لا تكـــنْ بالهَـــدْيِ عَـــيْ
اطـــوِ بيـــدَ الأرضِ طَـــيْ   وامتثِـــلْ أمـــرَ يـــدَيْ
أنــــتَ لا تَسْــــطِيعُ شَــــيْ

وإذا كان السرور قد انصب في قلبي وقتها وحملني على أجنحته ثم طار بي وأعتقني، فقد عادت الكآبة وغزتني في ليل المكتبة الطويل، حيث أمضي الليل في قاطع خلف الزاوية، جُعِل مكتبة للشيخ ومريديه، عندما قَفَزَتْ فجأة إلى عينيي كلمات شيخنا الرواس، كأنما لتبطل ما رأيت فيه إشارة وبشارة. فقد أفاد أن العارف ربما ينوه في كشوفاته برجل تنويهاً حسناً، وينص بشأنه نصاً مستطيلاً، ويكون المقصود غيره، والحكمة ألزمت بذلك.. واستحضرت مراراً الصورة التي ذكر بها سيدي الشيخ اسمي، وتاهت روحي بالمقاصد وأرقتني كلمات الرواس.. وفكرت أنه لا بد أن أنتظر إشارة ثانية، وأخرى ثالثة، حتى يتم لي اليقين بالقرب والقبول.

ويوماً بعد يوم يتملّكني حب سيدي، أجده قد أصبح محطة حياتي التي تاه بها المسير، بدا لي في خطوه واثقاً، يمضي غير هياب فلا تراه يعبأ بمن يقف أو يتمهل أو ينعطف مؤثراً طريقاً أخرى غير التي اختطها

هو وسعى بها على هدي من سبق.. وعلى الدوام بقيت أراه ظاهر الولاية، يدعوك أن تحبه لذاته، فأثر الذكر بيّن عليه لا يخفى، كان كمثل أكابر العلماء قليل الكلام مع قوة في الحال، وقد علم من علم حقيقة أن الشيخ جابر العثمان شيخ حال لا شيخ قال، وكنا إذا جلسنا بين يديه يبدأ فيغدق علينا من سبحات وصله، عندما تنتقل عيناه الوهاجتان من مريد لآخر، وأي منا وقع النظر عليه يسري إليه حال الشيخ فوراً، فيتبدل ما فيه من الغفلة والشرود إلى الحضور والمراقبة والخشية من الله تعالى، ولا عجب!. فما يكون فتق حجاب الغفلة عن القلب إلا بالفكر والذكر، ولا يكون دوام الحضور إلا بتمزيق حجاب الغفلة التي تضرب على القلب بحب الدنيا والانهماك بها. والحال الذي أدركته أنه إذا أكثر المرء من ذكر الموت مزق حجاب الغفلة، ومتى انتفت الغفلة صح الحضور.. ورأيت في جلسات القبور اليومية حكمة وأيُّ حكمة، فقد جعل سيدنا الشيخ هنالك يصلنا بما سننتهي إليه، وينتشلنا من الغفلة في كل حين.

على القبور عصراً يلتئم شملنا، نجلس فنلتف أمام سيدنا الشيخ جابر كهلال، ويبدأ بكلماته يغدق علينا من أطايب الذكر، فننهل حتى نرتوي، أصبح بعد حين زادنا اليومي، فلا طعام ولا شراب يفوق ما نستقيه في حضرته.

* * *

١٤

لازمت المسجد وأمضيت أكثر أوقاتي فيه، وألفيت نفسي بعد حين أتطلع إلى سيدي ولا أجد القدرة على رفع بصري عنه، أراه مرة مطرقاً في خشوع، بدا لي كأنما يغرق في وجد، لكنه سرعان ما رفع رأسه لينظر نحوي ملياً، تهزني رعشة رقيقة وأنا أرى كيف يخصني بالنظرات، ثم يتوجه إلى المنشد الشيخ سليم فيقول:

– هات أعطنا!..

فيرتفع صوت الشيخ سليم بهذين البيتين:

إن كنت تبغي الله فالزمْ بابنا ولا تفارقْ أبداً أعتابنا

فنحن في الأرض براهينُ السما يدُ التّجلي رفعت قبابنا

عراني الخشوع وغمرني، ووجدت في ما سمعت دعوة صريحة عناني سيدي الشيخ بها، من باب شد الوثاق والتمكين، فأنا حقيقة أكاد لا أغادر المسجد.. لكني بقيت انتظر فضلاً ما يخصني به، فأجد فيه بعض روحي التائهة في زحمة الأغيار، فأنتشلها من بقايا جحيمها إلى غير رجعة. ولم يطل الانتظار، فقد جاءتني إشارته الأخرى بعد أيام ونحن في المقبرة جلوس ننهل من أسراره وفيوضاته..

كان الشيخ يتحدث ثم تمهل وصمت لحظات، طاف بعدها ببصره بيننا، وكانت عيناي أنا نهاية مطافه، سألنا بداية إن كنا ندري من هم أولياء الله، واستأنف كعادته يجيب، فقال موجهاً كلماته إلى شخصي:

– من صنوف الأولياء يا مطيع رجال ورجال!. وأرى منا الآن من أخذ

الخفاء ديدناً والانطماس عن الناس منهجاً حسناً، فكل أحواله إنما تكون بينه وبين ربه، يظهر للناس بحال، وله مع ربه أحوال. بل منهم من تبرز منه آثار تعاب، ولكن الحقيقة أنه قد ستر بتلك الآثار أسراره وأخفى بها دره، فدأبه التستر والكتمان والتخافي عن عين الزمان، على حد قول قائلهم:

تســـترت عـــن دهـــري بظـــل جناحـــه

فصـــرت أرى دهـــري ولـــيس يرانـــي

فـــإن تســـأل الأيـــام عـــني مـــا درت

وأيـــن مكـــاني مـــا عـــرفن مكـــاني

قال الشيخ ما قال دون أن يرفع بصره عن عينيَّ، فبرز إلى خاطري في الحال قول شيخنا الرواس: «لله خواص في الأمكنة والأزمنة والأشخاص». وعلمت أن سيدي الشيخ جابر قد خصني بالقصد والعناية، ولحظني بالنفحات بأعين الوقاية والرعاية، وألحقني بأولئك الذين لا يكون ظهورهم إلا في الخفاء ولا يحصل تجليهم إلا في غفلة من عين الزمان، فقلت بيني وبين نفسي موقناً: هذا خفائي مطلسم بظهور، وذاك إهابي وقد أخفى تحت ردائه المعتم باهر نور. ثم بدا لي الخفاء مجسداً على شكل غمام يستر خلفه فضاء وضياء..

على هذا النحو وصلتني البشرى، ورأيت فيها فضلاً خصني الله به، فأشرقت سمائي بلامع سعدي، وطار بي الحبور إلى شيخي روح سلطان الأولياء وحامل البشرى، فأقبلت عندما انفض درس المقبرة على يديه أقبلهما وعيناي تفيضان بدمع فرح.. حضنني الشيخ وضمني إليه فكأنما تفاهمنا دون كلام، ووجدت نفسي في قلب الخفاء الذي عناه، خفاء موصول بطافح نور يملأ الأطراف والأكناف..

وهكذا بت أرى كيف بدأ حبي للظلمة يتحول إلى حب للنور، لكل ذي نور، ولنور الحضرة منبع النور، نور يشع بأضواء دونما مصابيح، نور يأتيك من قلبك لا من خارجه.. وترنمت بكلمات من شعر الشيخ أبي مدين التلمساني رحمه الله، وبتشطير الشيخ محمد سعيد المسعود:

ونـــوركم يهتـــدي الســـاري برؤيتـــه
فـــلا يدانيـــه نـــبراسٌ ولا نـــارُ
وظلمـــة القلـــبِ يجليهـــا تـــوجهكم
كـــأنكم في ظـــلام الليـــلِ أقمـــارُ

سواء في الحضرة أو على المقابر، يمتد بصر سيدنا الشيخ ويسهم طويلاً ثم يلتفت إلينا، وكالعادة يوجه سؤالاً لا يريد الإجابة عنه، بل يشرع هو بالرد:

– إيه يا حاج نايف! ما الفرق بيننا نحن الموجودين الآن فوق التراب، وبين من هم تحت التراب؟!

يبتسم الحاج نايف، شأنَ كل من يقر بجهله، فيفيد الشيخُ بقوله:

– الحياة مرآة الممات، والمقابر مهابط الرحمات، وإذا علمتم ما أعلم فقد تساوى ما فوق بما تحت، ومن تفكر اعتبر.. فكونٌ محكومٌ بالزوال يتساوى ميته القريب وميته البعيد، كلنا في الموت سواء، وتظل العبرة في الحامل والمحمول، وقد علمتم ماهية الحامل، فهل فكرتم في ماهية المحمول؟! وإذا كان لنا من حظ يفضلهم، فهو أن هؤلاء قد انطوت صحفهم، أما صحفنا فما زالت منشورة. فكفى بك جهلاً يا ولدي أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا، وتشغل قلبك بما عندهم، فتكون أجهل منهم، لأنهم اشتغلوا بما أعطوا، واشتغلت أنت بما لم تعط.

لا تشـــوش لـــك ســـراً كـــل هـــذا الكـــون زائـــلْ

لا تـــــدبر لـــــك أمـــــراً إنمـــــا التـــــدبير شـــــاغلْ

العجب العجب ممن يقول: أخرج إلى المقابر فأعتبر بأهل البلى، ولو فطن علم أنه بذاته مقبرة، يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها.

والحال أن أربعة تعينك على جلاء قلبك: كثرة الذكر، ولزوم الصمت، والخلوة، وقلة المطعم والمشرب.

في المقبرة عصراً يتصل حديث الزهد وأخبار الزهاد، في كل يوم لا بد من وقفة مع علم من أعلامهم.. يجوب سيدنا في صحفهم المطوية فينشرها لنا ناصعة بالدرر، الشيخ رضا سأله يوماً في سيرة القناعة وزهد الأنبياء، فانبرى أجلَّه الله يشنف أسماعنا بحديث مترع بالتجليات عن زهدهم وصراعهم الأكبر مع النفس، وفيما رواه:

«قد كان عيسى عليه السلام من رؤوس الزهاد، فكان يلبس الشعر ويأكل من ورق الأشجار، وليس له ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا يدخر قوت غد، وفي أي مكان أدركه المساء نام فيه، وقيل له مرة: يا روح الله ألا تتخذ لك حماراً تركبه؟ فقال: إني أكرَمُ على الله من أن يشغلني بخدمة حمار. وكان يقول للحواريين: بحق أقول لكم: إن أكل نخالة الشعير مخلوطة بالرماد، والنوم على المزابل مع الكلاب، ولبس المسوح الخشنة لكثير على من يموت، قال: ولم يتخذ له فراشاً ولا مخدة ولا قصعة، وقد وضع مرة لبنة تحت رأسه فجاءه جبريل عليه السلام وقال له: يا عيسى ركنت إلى الدنيا بعد زهدك فيها، وجعلت تحت رأسك مخدة من لبن؟ قال: فمن ذلك الوقت صار ينام جالساً إلى أن رُفع عليه السلام. وكان يقول لبني إسرائيل: عليكم بالماء القراح والبقل البري ونخالة الشعير، وإياكم وخبز البُر، فإنكم لن تقوموا بشكر نخالة الشعير.»

وينعطف الشيخ إلى حديث التوحيد فيغوص في أعماق الفكر مقلباً لنا معاني الأزل والأبد، البداية والمآل، ماهية الوجود والخلق.. أهيم في سبحات علمه الزاخر، وأنتبه إليه يقول:

-.. على أنه سبحانه هو الموجود الحق، وله الوجود المطلق. واعْلَمْ أن أقسام الموجود ثلاثة: موجود أزلي أبدي فهو الله الذي لا إله إلا هو، الأول الآخر الباطن الظاهر وهو على كل شيء قدير. وموجود أبدي غير أزلي وهو الآخرة. وموجود غير أزلي وغير أبدي وهو الدنيا. فإذا عرف العارف أن الدنيا منقطعة الاتصال من الأزل منقطعة الالتحاق بالأبد، وتدبر عمره فيها، أقبل بكليته على الله طمعاً بحصول القرب منه، والرضا من لدنه في الدار الآخرة الأبدية الباقية.. على أن الصانع كلُّ ذرة من مصنوعاته ناطق معناها، وضاج فحواها، وشاهدٌ كلُّها وجِلُّها وكُثُرُها وقُلُّها بوحدانيته ومعترف بفردانيته:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ويحل ذلك اليوم الصيفي الذي لا أزال أذكره، كنت قد لازمت الشيخ طوال النهار، وبينما ينقضي ورد العشاء في المقبرة، ينهض الشيخ جابر فينهض الإخوان معه، يتقدمهم ويخرجون تباعاً من المقبرة، ينفض الإخوان إلى بيوتهم بعد وداع الشيخ، وعطش ما لازال في الجوف، أحسست به يشدني إلى مزيد من النفحات، فأعود أدراجي.. تقودني قدماي ثانية إلى المقبرة، أدخلها وحيداً في سكينة العتمة، تبدو لي فريدة الوحشة وهي تستقل عن دور السكن والحارات، أدخلها فأنفصل في الحال عما ورائي، أمسح بعينيَّ الشواهد الكثيفة المتراصة من بعيد، أراها أشباحاً تغيب في العتمة، فلا يظهر خلفها سوى أكداس الظلام، أمر بضريح الشيخ يوسف، أصافح خضرة شعلته وأقرأ له الفاتحة، أبتعد، أنعطف يميناً إلى حيث المكان الذي يضمنا

كل يوم، بركات تغتني بالأسرار تشدني، أجلس أمام مصطبة الشيخ المعهودة، أغمض عينيَّ وأدخل في الرابطة الشريفة، أهيم في النجوى.. لحظات تمر ويد حانية تلمس رأسي، وشيء من قشعريرة غامرة يهز جسدي، تغزو قلبي في الحال روعة عابرة، وسرعان ما أقفز بوجهي إلى أعلى، أصافح بعينيَّ نجوم السماء، لا قمر.. لا هلال.. لا ضوء في القرب، أتلمس موطئ قدم في العتمة الساجية، ثم أخطو بضع خطوات، أتقدم في جهة ما.. تنزلق قدمي في حفرة، أتحاشى السقوط، فأنزلق كاملاً، أعاين المكان فأجد نفسي في قبر مفتوح، معد للدفن والعبر، وصوت هاتف يدعوني من أعماق الظلمة: العظة العظة يا مطيع.. فأرتعش ويغزوني بكاء، أجلس، أتمدد بطولي، أغمض عينيَّ فأدخل في عتمة أخرى، أغوص في قلب السكون، سكون يجرحه حيناً بعد حين حفيف الشجر، أستعد لرحلة أراها ستبدأ الآن، أنتظر أن أسمع هتافاً آخر، السكون من حولي يتحول إلى هتاف من نوع يوغل في الصمت، وأنا أتوغل في أكداس من الظلمة والصمت، أحس بصمت جميع ما حولي، حتى بات الصمت هو الصوت الهاتف في أعماق روحي، ترتخي أعضاء جسدي، وأبدأ كأنما أنسحب من ذراته على مَهَل، أشعر أني أتحلل من أعباء كانت تثقل ظهري، بات جسدي أطيافاً تنداح في العتم، لا رأس، لا صدر، لا أطراف.. ووجدت ذاتي جميعاً قد تعاظمت حجماً حتى أصبحت الجزء الأعظم في الكون الأصغر، ثم بدا لي في لحظة تالية أني أنسحب وأتضاءل، ثم أتناهى في الصغر وأدق، فيمتزج كل شيء في كياني بكل شيء مما حولي، حتى لم أعد أدرك أي جزء من أنا وأي جزء من هو.. ويصحو سمعي الذي غفا على صوت نحيل يوقظني من مرقدي، صحوت لكني لم أستطع أن أحرك شيئاً في جسدي، وعراني ذهول فأقدمت على طلب الغوث من أهل الحضرة، ودمعت عيناي، فعادت اليد الحانية

تلامس رأسي، وتهبط إلى يدي فتجذبها، وأنا أنجذب، فأجد نفسي خارج القبر، أسعى بين الشواهد، أتقدم نحو السور، أصل إلى الباب الخارجي، ألتفت وأعود فأقرأ الفاتحة على روح مولاي الشيخ يوسف، أخرج وأهيم في الطرقات حتى تقودني قدماي إلى البيت.

على فراشي أتمدد شاخصاً إلى الفراغ، أشعر أني في عالم آخر، ومن عالم آخر، لا أدري ما إذا كنت قد غفوت، ووجدت نفسي أنهض بعد قليل وأسارع إلى الخروج.. أسير في الليل هائماً، ثم أصل إلى المسجد في أول صوت ناعس يطلقه الشيخ حسيب يدعو إلى السلام الأول.. لا أنتظر، أدخل غرفة المئذنة، يندهش الشيخ حسيب من وجودي، أفتح ذراعيَّ فيحتضني، فأبكي على كتفه بدموع منهمرة، وأحدثه بعدها بما تحصل لي في المقبرة.

النوم في البيت أصبح يجفوني، لم تعد عيناي تعرفان طعم الرقاد فيه، وعلمت أن نوم الحضرة هو دوائي، فأدمنت منذ ذلك الحين التخلف في المسجد بعد مغادرة الجميع.. الشيخ حسيب تقبل وجودي بعد أيام، لا سيما وهو يشاهد عناية الشيخ جابر التي بدأت تشملني وترعاني.. وقد صار الشيخ حسيب عوناً لي في تلك الأيام، وكانت أحاديثه في ركن الزاوية قبل النوم بلسماً لروحي، ثم مرت أيام ووجدت بلسمي هناك مخبوءاً، كان في داخلي أشبه بكنز لا ينضب، بدأت أنهل منه ليلاً، حتى غدا نومي صحواً، وساعات صحوي نوعاً من نوم مسافر في ملكوت الأسرار، ملكوت يسرق منك القدرة على الكلام حتى لا يتبقى سوى إشارات زهيدة.

* * *

١٥

في مكتبة سيدنا القائمة في قاطع الزاوية انبهرت. طالعتني المجلدات الفخمة من نفائس كتب الصوفية، أذن لي شيخي بتصفحها.. أمضيت ليالي بطولها منغمساً في القراءة حتى ضوء الصبح، أهجر نومي بعيون محمرة لأقرأ من جديد. في بضعة شهور أصبحت قيِّمَ المكتبة، أوكل إليَّ سيدي الشيخ أمر الكتب من حيث التجليد والصيانة والإعارة، أجريت جرداً بمحتوياتها، وصنعت لها فهرساً مبوباً، طالعتني كتب ثمينة ومخطوطات نادرة، أصبحت لا أعرف طعم النوم مستلقياً، غفوات قليلة تداهمني جالساً في ليالي المكتبة في المسجد..

خلال بضعة شهور قرأت ما وقع تحت يدي لابن عربي والحلاج والشبلي، أدهشني الشيخ جابر بسيره المطولة عن أشياخه من أتباع الطريقة العظام، خاض مرات في أحاديث من سماهم الربانيين أو أهلَ الباطن، وجِلت قلوبنا ونحن نستمع إليه عصراً فوق القبور، أخذ على فترات يقرأ لنا فصولاً من كتب أرباب الطرق الصوفية، كالنقشبندية والرفاعية والقادرية والبدوية والشاذلية.. ويختتم سيرهم وأمثولاتهم بالدعاء لهم والطلب إلى الله أن ينفعنا بهم.

وعلى تلال المقبرة أمضينا أوقاتاً يجللها الخشوع، وتهيم في سبحاتها روح الهداية، تتنزل من سماوات البرهان.. رحنا نستمع إلى فصول بشرح شيخنا من كتاب (نور الهداية والفرقان)، ثم تلتها فترات أخرى خصصها سيدنا لـ (المواهب السرمدية والأنوار القدسية)، ووقف بنا بعدئذ مطولاً

عند سِفر (جامع كرامات الأولياء).. وقد هزتني مروياتهم المشفوعة بالسند، وباتت عندي أرجح من اليقين، من ذلك أن شيخ أشياخنا بهاء الدين، قدس الله سره، فيما يروي صاحب المواهب السرمدية، كان يقول للرجل: مت!. فيموت. ثم يقول له: قم حيًّا!. فيحيا مرة أخرى.

وكان الشيخ أحمد الفاروقي يقول: كثيراً ما كان يُعرج بي فوق العرش وأرتفع فوقه بمقدار ما بين مركز الأرض وبينه، ورأيت مقام الإمام، وأعلم أني كلما أريد العروج يتيسر لي..

وحكى الكوثري عن أبي الحسن الشاذلي أنه قال: أطلعني الله على اللوح المحفوظ، فلولا التأدب مع جدي رسول الله لقلت هذا سعيد وهذا شقي.

وقد روى سيدي أن الشيخ بهاء الدين كان يجتمع بأرواح سلسلة مشايخ السلف من أتباع الطريقة، وأنه قد أخذ العهد والولاية والتكليف منهم في المقبرة.. وكان ذكر المقبرة إشارة جميلة إلى ما نحن فيه من فضل اتباع السلف.

على أن أجمل الصلات التي راقتني ما يكون عادة بين الشيخ والمريد، من ذلك تصرف الشيخ عبد الله الدهلوي في قلوب مريديه، وإلقاء الفيوضات والأسرار في صدورهم، وكشف ما في بواطنهم في كل ما يعتريهم من شؤون وأحوال.

وتنقضي فصول الكرامات البهية فننعطف إلى (الحدائق الوردية والمكتوبات الربانية) للسرهندي، فنهيم في فيوضاتها وسر أسرارها المعلق بكلمة الغوث، يطلقها المريد فتخطفه من عين الخطوب.. وقد خصني شيخي بالتوجه لقراءة (البهجة السنية) و(البحر الرائق) و(تنوير القلوب) و(شفاء العليل في ترجمة القول الجميل)، ثم كتاب (السبع أسرار في مدارج الأخيار) وكتب أخرى.. فأقبلت عليها إقبال النهم العطش فروت ليلي

ونهاري، ومر وقت ليس بالطويل، وقفت فيه على (أوراد كامل اليوم والليل) بإشراف الشيخ رضا ورعايته، وقد علمت منه أن على المريد السلوكَ بكمال الاجتهاد مع إظهار كمال الضعف والعجز إلى الله. وكان أن أوصاني سيدي الشيخ جابر بأهم الأوراد قاطبة وهو ذكر لفظ الجلالة على الدوام في السر وفي العلانية، ثم أوكل إلى الشيخ رضا أن يتدرج بي تباعاً في أوراد البسملة والحوقلة والشهادة والاستغفار والحمد والصلاة على النبي وصولاً إلى الرابطة الشريفة، بما يعني ربط قلبي بقلب شيخي أو ببيت الله أو بصاحب الزمان، وكل ذلك بإضمار النية الخالصة، بالشفاء والرزق والستر، والنجاة ودفع الأذى والكرب، وبنية أن ينجينا الله عز وجل من وحشة النفس ويكسونا حلة الأنس..

ويخصني شيخي مرة أخرى في ذات صباح بسر الإغماض، حيث مسح برأسي وأخذ كفي فوضعه على صدره، وفي الحال سرى بجسدي نفح هزني، فوجدتني مغمض العينين أهيم في السبحات العلية، لقد بث شيخي فيَّ طرفاً من العلوم اللدنية، فوقر في قلبي أن الصلة بالله إنما تكون بالإغماض، وبوضع صورة الشيخ في مخيلة المريد وبين عينيه عند ذكر الله، وهذه الصلة أوثق وأعظم من أية رابطة عبادية أخرى مهما علا شأنها. والهدف المرتجى كما أعلمني شيخي هو الوصول إلى الحال بعد التجلي، وهو كما حدَّث تجلي الله عز وجل بأوصاف متعددة، مستشهداً بما قاله شيخنا الدندراوي قدس الله سره من أن روح الإنسان لها شبه بالله، ولذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم على صورته». وقد اعتقد أشياخي أن لله ظلاً، أما النبي فلم يكن يرى له ظل في الليل ولا النهار لأنه نور محض.

وسألت شيخي جابر مرة عن الحال فأجاب:

– الحال هبة الله!. الحال أشكال تتعدد بتعدد الماهيات الفردية للخلق، هو ما يحل بالقلوب من صفاء الذكر، والقلب شجرة تسقى بماء الطاعة، وثمراتها مواجيدها، وإذا جف القلب سقطت ثمراته. والعين ثمرتها الاعتبار..

وفي مرة ينهي حديثه عصراً ونحن جلوس على القبور بقوله:

– أخلص إلى الله وكن أنت.. واعلم أن كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف..

وأراه فجأة يخلع ثوب التواضع الذي يلبسه فيقول:

– «همْ بنا يا فتى».

وتنطلق زعقة كبرى من أحد المريدين، فيتابع الشيخ بلهجة زاجرة:

– نحن السادة القادة، منا الأمر والنهي، ومنهم الطاعة والامتثال، هذا شأننا وذاك شأن المريدين والأتباع، وما العجب في ذلك؟!.. ألم يقل أشياخنا قدس سرهم، مراراً: على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت على المغتسل. ألم يقولوا؟! ألم يقولوا: على المريد أن يسخر ماله ونفسه في خدمة الشيخ؟!.

وكأنما فهم بعض من الإخوان تعريضاً بهم، أو رداً على حال خفيٍّ غير مُعلَن، فانطلَقَتْ زعقات وارتجت المقبرة بنداء الله وبطلب الغوث، وهنا انفرجت أسارير الشيخ، ورأيت كأنه قد حل ما كان قد انعقد. وأصبحت أعلم بما لا يدانيه شك أن وجودي جميعاً أصبح مرصوداً بعين الرؤية الكبرى، عين الملاحظة الموصولة، وقلت مرتاحاً: كيف لا يحلو لك المقام وأنت بالملاحظة أو النظرِ تبيت في حضن الأمان؟ انظر إلى قول من قال:

وإذا العنايةُ لاحظتكَ عيونُها نمْ فالمخاوفُ كلّهنَّ أمانُ

ونمضي إلى جلسات المقابر كل يوم، تحفنا العناية ويكللنا الرضا،

هناك تنعقد الأحاديث وتزدهي، في أعلاها تزحف نحونا عتمة المغيب، فينهض سيدنا وننهض معه، نسير في إثره نحو المسجد القريب ونحن نلهج بذكر الله في لحظات مؤثرة بدأت تحتفر في أعماقي منذ ذلك الحين جدولاً سرت فيه ماء الهداية.

* * *

١٦

بضع سنوات تمر بي في ملازمة سيدي الشيخ جابر، فأنتبه إلى أني أصبحت أجد ثقلاً في لساني، بل زهداً في الكلام والعمل ومخالطة الناس، وملت إلى صمت وجدته أبلغ من أي كلام، ومقابل ذلك هامت روحي بالذكر والتسبيحات والرابطة الشريفة، فبات لساني مشغولاً بسلسلة مباركة من أوراد اليوم والليلة.. وإلى ذلك ظللت في كل أوقاتي ألهج بنفائس ما سمعت ووعيت: إذا أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزَّنَّ بما يفنى، وأن الناظر إلى القدر كالناظر إلى عين الشمس، كلما ازداد نظراً ازداد تحيراً.. وبت أعلم أنه ليس الشأن في الولاية لكن الشأن في العناية، ولم يدرك الولاية من فاتته العناية، والحال أن الولاية هي موالاة الله في أوامره ونواهيه، وموالاة الله للعبد في ظاهره وخافيه.. وبقيت أردد أن ظل الغمام لا ثبات له. أصبحت عبارات كهذه هاجسي، أرددها في سري مراراً، وفي كل يوم تقفز إحداها إلى رأسي، وتبقى تتردد كتسبيحة لا تنتهي، تدوم يوماً أو ساعات، وتغيب لتحل محلها أخرى، وعددت ذلك سراً موصولاً بأسرار شيخي جابر، وهدياً بات يستحوذ على كل ذرات تفكيري، كما أشار الشيخ إلى شيء من ذلك مرة فقال: من خصه الله بالفضل أجرى على خاطره وفكره كلمات الحكمة، وأنطقه بهدي الأولين. ولكني مع ذلك ظللت أرقب نفحة ما، أتعطش لسر أراه رأي العين وألمسه لمس اليد. فأرى نفسي ذات ليلة أخلو إلى الشيخ حسيب وأقول مستعطفاً وقد دهمني فيض من الحب:

– قربني إلى سيدي الشيخ أكثر!. أبوس إيدك يا عمي حسيب، أحس بروحي تائهة..

الشيخ حسيب يرد وهو يبتسم:

– الشيخ يا عيني لا يحتاج إلى وسيط، هو يصطفي من يصطفي وكفى.. هكذا علّمنا.. وكل من حاول أن يمشي في دربه أخذ بهذه الحقيقة، لذلك، أقول لك: لا تتعب نفسك، إذا عزمت فتوكل، ودع الأمر لصاحب الأمر، لأنها في النهاية.. المسألة مسألة نفحات، أنت تعلم، والله ربنا الكريم هو واهب النفحات، ينعم بها على من يشاء من عباده.

توقف الشيخ حسيب فجأة عن الكلام وزعق في ظلمة الليل وارتجف جسده النحيل، وغاب عني في إغماض لم يقطعه إلا صوت بعيد يدعو فيه المؤذن لصلاة الفجر.

ومع هذا الهيام بكل ما أسمع وأرتشف، بقيت أنتظر إشارة تخصني من شيخي، فكل ما سمعت وقرأت ظل ناراً مشتعلة لا أحس إلا بوهجها، ولا أرى إلا ضرامها، وبدأت أجلس إلى شيخي فأغيب عن كلماته ويتملكني شرود، وبت أنتظر أن أجد يده المباركة التي أقبلها تمتد حقيقة لتنتشلني مما أنا فيه، حتى عيناه اللتان همت بهما كأنما تاهتا عني، صرت أمضي حصة الذكر لا أرفع بصري عن الشيخ، لكنه قلما كان يخصني بنظرة أو يلحظني، كما في البداية.. إلى أن كان يوم، خرجت فيه عصراً من المسجد بعد الصلاة، ولم أتبع الشيخ والإخوان إلى المقبرة، ولكني همت في الطرقات وأنا أشعر أن روحي تقبضت من وجل الانتظار، أخذتني شوارع المدينة بعيداً، مشيت طويلاً في الحديقة العامة، قلت في نفسي لعل الأشجار تجلو كربتي، واستلقيت على العشب، غفوت لا أدري كم من الوقت، نهضت وعدت للمسير.. ووجدت قدميَّ هذه المرة تجولان في محلة الجدَيْدَة، ومنها خرجتا إلى عطفة الكيالي، ومنها قذفت قدمي في حارة

القلة، شيء ما يدفع خطواتي فأسير في الزقاق متمهلاً، خطوات قليلة أخرى وأصير أمام مدخل حارة بحسيتا، وأمامي على مرمى حجر كان مدخل المحل العمومي، عادت ذكريات الأيام الماضية، ذكريات الأمس الخائب.. مشيت أشبه بالضائع شوطاً إلى آخر الزقاق وعدت، شيء من عذوبة الإثم أطل يراودني، أحسست به طاغياً قد تملكني، أتطلع إلى البوابة الحجرية وأمعن النظر، وسرعان ما قفزت إلى رأسي صورة سيدي الشيخ، خفت في الحال وهبط وجل كبير في قلبي، ابتعدت مؤثراً السلامة، لحظات وعدت أدراجي، شيء ما شدني ودعاني للدخول، تأملت وجه الشرطي على الباب، كان واقفاً مرتخي الكتفين كبائع ملَّ من بضاعة كاسدة، أخذ يتطلع إلى جهة أخرى، تأملت وجهه الساهي، هممت بالدخول، ولا أدري حقيقةً ماذا حصل، حتى الآن أتذكر ما جرى وأجده حقيقة لا لبس فيها، كفٌّ ما صعقتني بصفعة، صفعة ماحقة ألهبت وجهي، والتفت لأرى الزقاق فارغاً، ليس من أحد جانبي أو قربي، وجدت نفسي عقبها مرتعباً أركض في درب العودة دون وعي أو إرادة.. تقطعت أنفاسي وأنا أجري، لم أعبأ بنظرات الناس التي انشدَّت إلى هذا المجنون الهارب، خفَّ جسدي وانطلق مدفوعاً بقوة خفية، وشوط واحد طويل أحرق أنفاسي، وقاذف قذف بي في مسجد الشيخ جابر.

الوقت قبيل صلاة المغرب، فتحت الباب وأنا ألهث، ورأيت المكان يغص بإخوان الشيخ، رأيت الشيخ في صدر الزاوية، طالعني وجهه وهو يضحك، ضحك طويلاً واهتزَّ كتفاه، اقتربت بلهفةِ من يخف في العودة إلى صدر رحيم، ارتميت أمامه، خطفت يده وأمطرتها بالقبل، سحبها الشيخ بتواضع، هدأت ضحكاته ثم قرب فمه من أذني، ودون أن يسمع أحد سأل:

– كيف كانت الصفعة؟

في الحال هويت على يديه الاثنتين أقبلهما وأنا أقول:

– العفو كرامة للّه يا شيخي، هات رجلك أبوسها.

وانحنيت إلى رجله، فأجلسني، عدت أبتهل إليه أن يصفح عني، فردَّ هامساً في أذني:

– لا عليك يا ابني! انتهينا، أردنا فحسب أن نذكرك بنا.

المعصوم من عصمه اللّه. قلت في سري، وقد انجلت أمام بصيرتي حقيقة هذه المنعة التي خصني اللّه بها.. وتتالت الشواهد في خاطري، ورأيت كيف أني حقيقةً لم أفلح مرةً في ارتياد المعاصي والموبقات.. تُرى، أكان ذلك بملاحظة لا تنام من عيون جدي الأكبر العبّادي الإمام؟ أم بولاية كبرى من يَدَي شيخي جابر في ذلك اليوم؟.. تساءلت. حتى زيارة مقر الكفرة وشرب المنكر ومعاشرة الرفيقات، مسالك لم يستقم لي أمرها، وانتهت بخيبتي في حب أروى.. لا بل إني نظرت إلى عسري أكثر مما نظرت إلى يسري، فرأيت فيه علامة على حكمة ربانية، هي في النهاية ترسم لي درباً للسير يجب أن أمضي فيه حتى النهاية، وعلى هذا النحو بدت الصفعة لي أشبه بيد ممدودة تنتشل غريقاً.. أنا لم أجد فيما جرى حتى الآن مصادفة، بل براهين جساماً تتبعها براهين.. حتى ظهور عبد القادر في حلمي يوم فتاة السينما أراه الآن في صورة من صور العصمة الجلية.

كانت الصفعة كما أيقنت الإنذار الذي يليق بأي عاص لا يرعوي. خجلت من نفسي، وتساءلت مرات بندم: كيف فكرت في ارتياد المكان أساساً وأنا أضع قدمي على أول درب الهداية؟!.. عدت فأكبرت كرامة شيخي وهو يوقظني من غفلة كادت تودي بي.

بعدها، بدا لي كل شيء جلياً كما لو أنه عين الحقيقة، ابتعدت عن الظنون، وصرت أنظر إلى جماعة عمر وزيد نظرتي إلى شيطان رجيم، غمامة ما انزاحت عن عينيَّ وأنا أرى رؤية أشبه باليقين كيف يمضون على درب

الضلالات، بدءاً بالإلحاد وانتهاءً بالموبقات وما أكثرها!. حتى ذكرى أروى التي أحب اضمحلت، بعد أن سقط بيني وبينها جدار من الخشية.

في ذلك المساء وجدتني أهرَع إلى الشيخ حسيب فأرد على التساؤل الذي ارتسم في عينيه، بأن أحدثه عما جرى، فيبكي في الحال ويقبلني وهو فرح بهذه الكرامة التي حصلت من الشيخ جابر، لكني أعدُّ نفسي مذنباً وأسأله ضارعاً عن شروط التوبة، فيلقنني الكلمات الآتية:

– ستقول وأنت منكسر القلب، صادقاً متوجهاً إلى من لا يرد سائله ولا يخيب للعبد وسائله: «تُبْتُ إلى الله وارتجعت، وندمت على ما فعلت، وعزمت على أني لا أعود إلى معصية».

كلمات رددتها وراءه برجاء، وعدت ثانية إلى تأمل ما حصل والنظر في فضائل الشيخ وأسراره.

أصبحت الصفعة كرامة كبرى للشيخ جابر، وقد رواها وتناقلها كثيرون، أما أنا فوجدت فيها الإشارة التي كنت أنتظرها، وأذهلني ما حصل حقيقة، لازمت بعدها الحضرة والزاوية، عدت لا أبارحهما، أصبحت مقيماً أشبه بالمعتكف، وصرت ظل شيخي الظليل، بل صار لي مكاني الدائم إلى يمينه عند الخروج للمسير نحو المقبرة، أصبح الشيخ فيما رأيت كوكبة هداية تسحبني خلفها، أنظر في المجلس إلى عينيه الكحيلتين وأهيم بهما، أنهل من حسن طالعه ولا أرتوي، أصبحت أجيبه فيما يسر قبل أن يعلن، عرفت لغة جديدة للعيون، لغة خطاب خفي لم أكن أدركها، لغة لا تعرف الحروف ولا الكلمات، تشتغل باللمح والإيماء، ببوح العيون ونجوى القلب..

ها هو النور الذي نشدته طويلاً، وها أنذا أتعلق به كحبل خلاص، بعد أن علمت علم اليقين أن الفعال المطلق يزرع سره في قلوب اختارها

إليه، ولا ريب فلذلك السر نور، ولكنه نور لا يُدرَك إلا بعين القلب، وحينئذ لا تقل أين الأولياء؟ ولكن قل: أين البصيرة؟.

مرات ومرات، كانت كلمة (الله) تنطلق من قلبي، جهراً على لساني، عالية مجلجلة، أو خفية يرددها القلب مع دقاته، عندما يمعن الشيخ في نظراته، أجدني أهيم ثم أزعق بآه طويلة أنهيها بكلمة (الله)، فترتعد أركان الزاوية على إثرها، ويُتَوِّج لحظتها العرقُ رأسي، فأغيب في الخشعة وتتسلمني يده الحانية وتمسح بقطنها الرهيف رأسي، يغادر الإخوان الزاوية، وتداعب الغفوة جفوني لحظات، فأغيب عن جسدي، تمتد يد الشيخ إلى بردته فيلقيها علي، أحس بالعتمة تغزو المكان، أخلفها ورائي ثم أغيب في دثار نور ناعم لا أخشاه.. أنام عميقاً حتى الصباح.

أيام قليلة تمر وهاهي الإشارة الثانية تصلني، عيناي تتفتحان ذات صباح وأجد الشيخ قربي، ارتبك وأنهض، بكفه الحانية يجلسني، أرى طاسة نحاس أمامي ملأى بالسحلب الحار، يحملها الشيخ بكفيه ويمدها نحوي، وألق وجهه الغامر يصبِّحني، أرتوي أولاً من رحيق بسمته.. خذ اشرب.. نظرت إلى عينيه الحانيتين، تناولت الطاسة بكلتا يدي من كلتا يديه، سميت بالله ورشفت مرات من السحلب الشهي، وقف الشيخ ينتظر، عندما انتهيت سحب الشيخ الطاسة من يدي، قال:

– الآن تعود إلى النوم، سآتيك في الضحى.

وخرج. غفوت ثانية وغرقت في خدر لذيذ.

الضوء يغزو المكان، فأصحو على أصوات تعلو ووجوه تنحني فوقي وتطل بفزع، وقفوا جميعاً خلف الشيخ يشهدون ما سموه فيما بعد الكرامة العجيبة.. لم أدرك لأول وهلة ما حصل، لحظات وأخذت أحس أن وجهي ينغل، تدب فيه حمى خفيفة من قرصات ناعمة، وأخذت تنتابني

حكات جذلى، قربت يدي من وجهي فأبعدها الشيخ وهو يردد أدعية بهمس، بعدها سيحكي الإخوان لي ما رأوا:

– كان وجهك يعج بحشد هائل من نحلات حمر، غطاء كتيم وكثيف يغطي نصف وجهك، صار وجهك كجبل تسرح على سفحه قطعان لا عدَّ لها..

الشيخ جابر ينحني وسط السكون والدهشة، كمن يقوم بعمل جليل، يُخرج منديله ويبلله بالماء، يبدأ برفق يزيح جيش النحل الذي يتحرك ويهتز، يمسح شفتي، يزيل آخر ما علق من حلو السحلب على أطراف فمي، لحظات بقيت متجمداً، بدأت النحلات تتحرك وتتدافع رشيقة، أحسست بها تلاعبني، بدأت تبتعد عن فمي وتنسل خارجة من شعرات لحيتي وشاربي، الشيخ ينفخ أواخر فلولها فتنزلق وتتطاير ثم تختفي في الفضاء..

ذاعت كرامة الشيخ، التي كنت أنا بطلَها المخصوص بالفضل، وأصبحَتْ من ساعتها عيون المريدين تتعلق بي، لا تريد أن تفارق النظر إلى وجهي، كأنها تنقب فيه عن سر ما جعلني أنهل من كل هذه البركات، وعلى رأسها رضا الشيخ عني.. وفكرت في سبب يجعل الشيخ يصطفيني ويخصني بالنفحات، وأجابني قلبي بخفقة حب والهة، علمت منها مدى قربي من سيدي، وأدركت حقيقة أن علامة القرب حضورُ القلب، وأن عزم العبد يدنيه من باب سيده، ولا عزم لمن لا حضور له، فالقلب يبصر ما يعمى عنه البصر، وباتت حقيقتي التي أرددها: شر العمى عمى القلوب.

لم يكن عبد القادر موجوداً، حدثته مساءً بما حصل فلزم الصمت، ولم أفز منه بما يكمل فرحتي أو يجعلني أركن إلى فوز تاه عنه الكثيرون، في زحمة طالبي الرضا والفضل المخصوص.

* * *

١٧

وتأتي أيام أخرى تحملني وتهدهد لي في أحضان الهيام، فأنال من الحظوة ما أدهش له، حتى كان وصولي إلى ذلك الصباح الأغر، ففيه عرفت طالعي وسعدي.

في المساء الذي سبق، وبعيد صلاة العشاء والختم، استوقفنا الشيخ عقب الدعاء، وقال قولة موجزة.. وقد بتنا نعلم من خلال طريقة كهذه في القول أن الأمر يحمل ما يحمل من الأسرار_الخفية، قال الشيخ بمثل هذا الإيجاز والحزم:

– صلاة الضحى يا إخواني غداً ستكون في جامع العثمانية.

أتبع كلماته بما فيه إشارة خفية لمن تسول له نفسه بالغياب، حيث نظر في وجوهنا لحظات وتفحص في عيوننا ثم قال بصوته الناعم:

– من جا يجي ومن راح يروح، لا يبقى إلا الفلوح.

تركَنا الشيخُ ومضى يقطع باحة المسجد، وصعد إلى مربعه العلوي، ونحن تبادلنا النظرات وتفرقنا، بعد أن تملكنا العجب لهذا الطلب الغريب، ولم يفتني حينها أن الشيخ من بين الجميع كان قد خصني بنظرته الثابتة وكأنها اليقين ذاته.. الشيخ خليل قال:

– الموعد هو هو يا إخوان، سنتبع سيدنا الشيخ، الطاعة واجبة، والرجال معادن.. وقد علمنا من أشياخنا، أن من لا شيخ له فشيخه الشيطان.

في أبكر الصبح هجرت الفراش، وتسللت من الزاوية بصمت حتى لا أوقظ الشيخ حسيب، ووجدتني أهيم في الطرقات حتى أصل باب النصر فأنعطف،

وأدخل في سوق الخابية المظلم، ثم أقف أمام الباب الخشبي المهيب لجامع العثمانية القائم في أعلى باب النصر، وفي هدأة السحر أجلس على مصطبة الباب أنتظر أذان الفجر.. حضر المؤذن يتثاءب ورآني أنتظر، سلَّم ونظر إلي ساهماً ثم تحول عني، فتح باب المسجد ودخل.. اجتزت وراءه الصحن الفسيح والمضاء بنور القمر، دخلت القبلية وصليت بعض ركعات.. وطوال ساعة حضر بضعة أنفار، دخل وقت الصلاة وأمّنا أحدهم بتكاسل.. انسحبت بعدها وجلست في باحة المسجد أرقب ظهور سيدي الشيخ، حتى ظهرت شمس الصباح على أعلى الجدار، فبدأت جموع الإخوان تتوافد إلى الجامع، وفي دقائق امتلأت باحته بالعشرات، بعد قليل ظهر سيدي الشيخ جابر وسط الجموع، تحوطه هالة من المهابة، بدا للحظات غائباً عما يحيط به، كأنه في ملكوت آخر.. لحظات أخرى عاد وتصفح الوجوه حوله، خفتت الأصوات، وشيء من سكينة وخشعة حلَّ في المكان، ونظر الشيخ في مريديه وابتسم، تلقفْتُ ابتسامته بقلب يطير، مر بعينيه فشملني بنظرة.. ثم عاد الآن فخصني بأخرى طويلة.. تغلغلت عيناه في عينيَّ فأغمضت أجفاني على غال نفيس.. وهِمتُ في نفحة علوية اهتز جسدي على إثرها، ولبثتُ أنتظر إشارة أخرى، الشيخ قال:

– الآن سنصلي الضحى يا إخوان!. هيا! لكن الوضوء أولاً!.

ولما كان الجميع على وضوء، أتبع الشيخ قوله:

– أعلمْ! وأسألكم الطهر لا الطهارة، افعلوا ما أفعل!.

توجس بعضهم وقالوا في سرهم: نحن أمام امتحان ومحنة..

في وسط باحة المسجد حيث الموضأ وقف الشيخ.. وأمام صنابير الماء بدأ بخلع ملابسه، الجبة أولاً فالمنديل فالعمامة، ومن ثم الملتان فالدراعة، وصل الشيخ إلى قميص القطن فخلعه، بدا للجميع عارياً بجسمه الأبيض النحيل، برأسه الشائب الحليق، تابعت ما فعل وفعلت ما فعل، الآخرون

بدورهم تابعوا ما فعل الشيخ، خلعوا الجبة والعمامة أو طاقية الرأس والمنديل، ثم بدأت أصواتهم تخفت، وانسحبت الضوضاء واختفت، ثم توقفوا وكفوا عن أي حركة وقد انشدت أنظارهم تستقرئ ما يجري..

بقيت والشيخ جابر وحدنا بالسروال الأبيض يغطي الركبتين، خلع الشيخ حذاءه فخلعت، جلس على حجر الموضأ ففعلت، أصبح الإخوان خلفنا في هرج ومرج، علت الهمهمات والأصوات، الشيخ لا يبدو أنه يسمع منها شيئاً، بسمل وبدأ بالوضوء، غرف من ماء الصنبور، أسبل على وجهه وساعديه، مسح برأسه ومر على أذنيه، بلل قدميه بالماء ودلكهما.. كنت قد انتهيت من وضوئي ووقفت أنتظر، نهض الشيخ يرفع إصبع الشهادة، كأنما أصبح في غير عالمنا، لم يعد ينظر إلى أحد، وحافياً سار يقطع الحجارة الصفر المفضية إلى الباب الخارجي.. سرت خلفه وتبعنا الإخوان، خرج الشيخ فخرجت خلفه، انحبس الإخوان في صحن المسجد، تراجعوا، تباطأتْ خطواتهم وعلت من بعضهم تكبيرات وجلة، الشيخ ينطلق كأنما بهمة شاب يافع، مضى يهرول باتجاه سوق الخابية، تبعته أقتفي خطواته، المارة عيون مسددة وأفواه فاغرة، قطعنا السوق ووصلنا حتى عطفة باب النصر، تقدم الشيخ قليلاً ثم توقف أمامي وهو يتنفس عميقاً ثم يطلق زفرات منتظمة، أخذت شفتاه بعدها تتحركان بتسبيحات خفية، ثم كأنما انتهى من أمر مزمع، رأيته يستدير ويقفل راجعاً، في تلك اللحظة فحسب نظر إليَّ، وكانت تلك المرة الأولى التي يلتفت فيها، كنت خلفه وحيداً، شع وجهه بابتسامة رضا، كأنما كان موقناً من نتائج اختبار جاء كما توقع، فهز رأسه هزة خفيفة، وعلت وجهه سحابة أسى، ثم مد قدمه في طريق العودة.

في تلك اللحظات كان قد خرج خلق كثير من الحارات والدور والدكاكين، وعلى باب الجامع عندما وصلنا كان الإخوان قد تجمعوا

عشرات يتمتمون بالأدعية ثم يكبرون، تجاوزهم الشيخ وأنا خلفه، دار دورتين حول الحديقة التي في الوسط، ثم توقف والتفت لأول مرة فنظر نحو إخوانه بوجه جامد، لحظات صمت تمر، مضى الشيخ بعدها نحو صنابير الماء، ارتدى ألبسته وارتديت، في لحظتها علت الأصوات مدوية بقولة (الله أكبر!..)، وقف الشيخ يصلي ركعات الضحى، صليت وصلى الجميع، نهض الشيخ وخرج، التفت يتفقدني، مد يده فهممت أقبلها فرفض أن أفعل، ثم وضعها على كتفي ودفع بي للمسير أمامه، تمنعت، لكنه أصر على أن أكون حيث أراد، شعرت بحرج جعلني أتفصد عرقاً، لكني امتثلت لأمره وأنا أحس بدهشة العيون التي تحاصرنا، وانتبهت في تلك اللحظات إلى عبد القادر وهو ينظر نحونا بذهول، بينما غمامة من حزن حملتها قسماته.. سرنا نحو الزاوية وقد خلَّف ما جرى صمتاً وترقباً لفنا جميعاً.

بدت لي صلاتي مع سيدي الشيخ في صباح جامع العثمانية وما حدث فيها من خرق وشطح عنوان كرامة كبرى لا يقدر عليها إلا أولو العزم، وهذا الاصطفاء الذي خصني به الشيخ جذبني وألقاني في برزخ آخر، رأيت كيف انسلت منه حياتي التي انصرمت، لأدخل في حياة جديدة، وبعد مدة وجيزة ستتغير حالي حقاً فأجد نفسي منقطعاً للقيام بحقوق الخدمة، خدمة الشيخ والحضرة وضريح الشيخ سعد المارعي، متفرغاً لشؤون الزاوية التي جعلتُ معيشتي ونومي فيها مع الشيخ حسيب عيسى الذي أمضى حياته الطويلة في أركانها وفي جني بركاتها.

سيدي الشيخ جابر يوصي بي، ويتمنى على الشيخ حسيب أن يقاسمني بعض ما ينهله من بركات الحضرة، فيبتسم الشيخ حسيب ويجيب بأن رضا الله هو الفضل الأعظم، وأنه إن قبلت أنا أن أكون في صحبته فأعظم ما يبغيه أن أرتضيه أنا خادماً لي، وأجدني هنا وقد غزا

قلبي بكاء الغبطة أجذب يد الشيخ حسيب وأقبلها، فيضع الشيخ جابر كفيه على كتفينا ويباركنا.

تمر أوقات ويتباعد عهدي بسكني والأهل، أهجر أياماً مضت ووجوهاً لا أطيق رؤيتها، أتغيب أياماً عن المدرسة وأعود، لا يهمني ما قد يحصل، أبديت لا مبالاة وزهداً بأي شيء.. انقطعت عن ارتياد مقهى السعد، أصبحت جلساتي فيه ذكريات مقيتة.. وسعيت عبر شهور قليلة لأكون من أهل الحضور والمشاهدة، بصحبة وهدي الشيخ حسيب، وهاهي الحضرة تضمني فأجد فيها الملاذ، الحضرة المضمخة بعطر الورد والأسرار، الحضرة المسكونة بطيف العارفين.. وكنت قد علمت من شيخي جابر أن الحضرة رَحْبَة يطوف بها الأقطاب والأنجاب، ويقف على عتبات أبوابها أعيان الأولياء أولي الألباب، فكل من لاذ بهم في مهمة زالت، ومن استمد بهم أُمد، ومن ربض بالانكسار عندهم زالت شقوته بإذن الله وسعد، إن مر به الغوث تواضع وخشع، وإن لحظته عيون الأقطاب تأدب ناظره وخضع، أما من وقف منهم للقيام بحقوق الخدمة، وانتهض إليها بعلو الهمة، فقد طاب وأتته فيوض القبول من كل باب، ونفحته عين المدد بجاه لا يُخذل، وحبل لا يُفصل، وتعلَّمَ هنا حضرة الحضور، وروضة الحبور وهي تجري بماء الكوثر..

وعلى ذلك أخذني الهيام واستبد بي العشق، فأقدمت على كنس تراب الحضرة وشمه، وعفرت خدي ببابها، وصار رحابها حضني لا أميل عنه، فبدأت عقب ذلك بشارات كشفية تردني من شيخي، تحققت بعد ذلك بالعيان ولله الحمد.

في ليل الزاوية الطويل كانت تلامس مسمعي تسبيحات الشيخ حسيب كترنيمة عذبة موصولة بأعطاف الهدي الإلهي، محمولة على بركات الأحوال ونفحها، ويكون قد أمضى ما بعد العشاء في قاطع الزاوية، حيث

المكتبة، يقلب صفحات المصنفات مختاراً بعض الصفحات ليقرأها لي، مفضلاً أن يعيد ويكرر، ويقف بعدها مطولاً عند الشرح واجتناء العبر. أصبح صوته الناعم العجوز أليفي، وباتت عيناه بئر الأسرار أغوص بهما وأخرج بالدرر، وقد علمني أن الصفاء لا يكون إلا بالانقطاع الحق إلى محبوبك، ومتى تحقق الصفاء تحقَّقَ الهدي، ومن أجل هذا الصفاء كان من ناحيته قد تحلل منذ أول عهد الصبا من الزوجة والأولاد والأهل، غارقاً في صفحات كتبه أو مبحراً في أوراده، مردداً في كل مرة: (حتى تصل لا بد أن تنقطع). ومنه عرفت قول من قال: (لو سئلت عن بصلة لفاتتني مسألة). وهكذا أصبحت حياتُه وأيامُ عمره قرباناً يضعه في خدمة الحضرة، لا يسأل عما تأتي به الأرزاق مهما ضؤل.

في مرحلة متقدمة كان شيخي قد خصني بورد الإخلاص الشريف، وجدته يتخيرني من بين عشرات اللحى البيضاء، أبكي وأنا أقبل يده، وأخرُّ إلى قدميه فيُنهضني ويقبل رأسي وهو يقول:

– قبلتنا فقبلناك، رضيت بنا فرضينا بك، والرضا أولاً وآخراً هو رضا الله..

يطلق أحدهم كلمة (الله) عالياً، تدوي في أرجاء الحضرة، يرددها آخرون وتبتل العيون بندى الدمع الشفيف، عدت أنهمر بالقبلات على يد سيدي الشيخ:

– لن أنسى فضلك يا شيخي..

يبتسم لي وهو يردد:

– الفضل فضل الله يا بني، يؤتيه من يشاء..

أتسلم ورد الإخلاص وما يتلوه في الجلسات الآتية، يرتجف صوتي في المرة الأولى، أغمض عيني وأنا أنتشل نفسي من صخب الأغيار.. يتغيب الشيخ أياماً، فيقدمني الآخرون لأكون في صدر الحضرة..

على رأس العام من خدمة الزاوية أصبحت أرقى في المراتب تباعاً، فقد أذن لي شيخي بالإرشاد على الطرائق المتعددة، وكتب لي إجازة خطية، وصفني فيها بالمريد المراد والأمي الأمين صاحب الكمال والوداد.. وأمرني أن أخصص بعض وقتي لأحمل الهدي إلى صحبي ومن يلوذ بي، لأرشد المسترشدين وأربي السالكين، بغية عموم النفع العام والخاص، هذا إلى دوام صلتي الموصولة به وبالحضرة..

وهكذا وجدتني بقلب عامر بالنفحات الغالية أتربع على سدة الثقة والوثوق، ها قد توسم سيدي فيَّ أهلية الإرشاد، فأذن لي بتلقين الذكر والتوجيه في الطريقة.

ولو سألني سائل بم نلت تلك المرتبة العلية والمنزلة الرضية؟ لأجبته في الحال: ما فاز من فاز إلا بالأدب، وما سقط من سقط إلا بترك الأدب. وكنت قد سمعت من سيدنا الشيخ أجزل الله عطاءه، أن الأدب سلم القلب إلى حضرة الرب، ومن لم ينتفع بالأدب لم ينتفع بالعمل، وكذب على الله وأوليائه من تأدب ظاهره وكذب باطنه..

وأصبح كل ما فيَّ من حال يقودني يقيناً لأن أعلم أن الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله. وكان قد تكشف لي يوماً بعد يوم أن شيخي قطب الوقت، فهو المرشد الكامل في كمالاته وأحواله، في حاله وقاله وسلوكه.. وبدأت أولى البشارات تصلني، بأن شهدت ذات صباح ثلاثة طيور خضراء بحجم الزرازير تطير في الزاوية، منها وإليها، حتى طلع الفجر، ولم أكن رأيتها من قبل، فوجدت فيها أجنحة تسعى وتخيم على الحضرة بوافر النعم والهبات.

* * *

١٨

فيما يخص عبد القادر يمكنني أن أستعيد ما جرى بأسى:

ذات مساء دخل عبد القادر الحضرة ولم يلاحظني، مكث حتى نهاية الورد ولم ينتظر حتى صلاة العشاء والذكر كعادته، في مرة تالية يلقي تحية باردة، أردها وأنظر في عينيه، بدا ساهماً لحظات، لم يكترث بي، ثم تنقلت عيناه تبحثان عن بعض الإخوان من جماعته، بدا قلقاً، ثم نهض فجأة وغادر الحضرة.

في المدرسة كان قليل الكلام، لم يعد يخصني بالرعاية، أو حتى بالالتفات والسؤال عن الحال، وهو من أخذ أمر تسليكي من الشيخ جابر، وكان قد انتقل للسكن في حي آخر، ولم يعد يصحبني كما كان يفعل وقت الخروج من المدرسة. أقترب منه أحاول أن أنفذ إلى طويته، لكنه يزهد حتى بأقل مجاملة تقتضيها الألفة وسيرة الأيام التي سلفت.

سألت الشيخ حسيب عن حال عبد القادر، قال كمن يعلم ما لا أعلم، بحكم سنوات طويلة قضاها في خدمة الشيخ جابر:

– لا تكون الصفوة إلا مع الصفاء، عبد القادر ومثله كثير، ترى أجسادهم بيننا وقلوبهم موزعة هنا وهناك، يمرون بنا وقتاً ثم تلفحهم ريح ما فيتطايرون، لا تنشغل به أو بسواه، لا يهم، انظر إلى نفسك، وموطئ قدمك، وروحك أين ترف.

في ما تلا من أيام أخذت ألاحظ أنَّ عبد القادر والفتيان معه لم يعودوا

كما كانوا في السابق يلازمون حلقات الشيخ في الزاوية أو على القبور، وأصبحوا لا يظهرون في الذكر أو الختم إلا فيما ندر، وازداد شعوري بذلك الطوق الذي يشدهم وأظل أنا خارجه، وقد ظهر لي بجلاء كيف يمضون في طريق أخرى غير التي يتقدمني عليها ويسلكني بها سيدي الشيخ جابر، طريق حدث بها في لحظة ما افتراق، مضوا هم في شعب ومضيت أنا في آخر.. أنا آثرت السلامة بعد ضياع، أما هم فقد مضوا إلى ضياعهم بعد أن حازوا السلامة.. وكأي انشقاق يحدث في الجماعة يبدأ صغيراً ويتسع، ثم تبعد المسافة.. الشيخ حسيب كان قد نفض يده منهم، بعد أن نظر إليهم على أنهم حفنة من شبان يتبعون ما ليس لهم، وأن من علامات عذابات المرء سعيَه في ما لم يقسم له.. يتحسر مرات وتبدو الخيبة في عينيه وهو يأسف لضياعهم وانزلاقهم إلى مغريات السياسة والحكم..

الشيخ جابر يعلم بأخبار قديمة عن جلوسي في مقهى السعد، عن اجتماعي بأعضاء من الحزب الشيوعي، كانت هذه صفحة طويت ونسيت بالنسبة لي، لكنه يراني يوماً فيبتسم ويديم النظر في وجهي، ويسألني سؤالاً ملتبساً دون مقدمات عن اسم المقهى وأخبار الرفاق هناك. يتملكني الذهول وأنا أتذكر فتاة السينما وحلمي العصي، يخلصني الشيخ من حرجي ويقول:

– أنا لا أرى بأساً في أن تعود وتتردد إلى المقهى ما دام الأمر معقوداً على نية، نحن لا نريد تسلية ولا ضياع وقت، لا نتهافت وراء كسل أو ثرثرة، اقصد المقهى متى شئت، ولتسع من وقتك يا شيخ مطيع إلى أداء رسالة، الهداية ما نقصد، والإرشاد عملنا وغايتنا، به تنال فضيلة الدعوة وفضيلة الجهاد، لسنا كما انساق إخوان لنا فأرادوا أن يصلوا إلى الفضيلة إياها بجهاد اليد لا اللسان، هذا ما لا نقره ولا نضعه في حسباننا، الخلاصة أن لنا طريقنا ولهم طريق.

استمعت إلى كلمات الشيخ، وانتبهت إلى إشارته التي خص بها عبد القادر وجماعته بالانتقاد، وعدت أفكر بعبد القادر وبالأيام التي أصبحت فيها كظله، حتى فاز كما قال بفضل وصلي بالشيخ، بل بإخراجي من الحمأة التي ترديت فيها، تلك أصبحت أياماً بعيدة حقاً، تذكرني بأيام المقهى، وبعمر ورفاقه، هؤلاء لهم حكاية أخرى، تذكرت أوقات جلوسي التي كنت أمضيها في مقهى السعد، ورأيت كيف أني كنت على مدى سنوات من اللقاء بمن يسمون أنفسهم جماعة اليسار هنالك أشبه بموضوع لبحثهم، لاجتراحاتهم وتجريبهم، أفلحوا مرات في جري إلى اجتماعاتهم، وإلى خوضي في نقاشاتهم وما كانوا يسمونه باستراتيجياتهم، وتساءلت عما إذا كانوا يمتلكون القدرة على سماعي ولو مرة، ولم أحر جواباً إلا بالنفي، وثار في نفسي من ساعتها شيء عاصف من التحدي، قلت: سيدي ينتدبني لمهمة صعبة، لرهان سأخوضه على أيِّة حال، سيكون رهاني الأكبر، ولا بد أن أكون كاسمي مطيعاً..

نهضت وقد امتلأ رأسي بأفكار الصدام القادم، بدأت أعد للقاءات حاسمة، خرجت من المسجد وسرت، الحزن على ما ضاع يغزوني فأحاول أن أخفف وطأته بالسير، أسلمني السير كأنما دون قصد إلى مقهى السعد، دخلت بعد غياب.. جلست ساهماً خلف الزجاج، يراودني بقوة شعور بالتحدي، قوة تحيا بالمساندة، ترسخ كجبال لا تهتز، لن أذعن بعد اليوم لأفكارهم، سأكون أنا هذه المرة، ولا أحد سواي.. سأجعل أناي محور أي موضوع، فحقيقتي هي الأهم، حقيقتي الموصولة بأجدادي وأسيادي العظام، منها سأنطلق وإليها سأعود.. ظلت كأس الشاي أمامي وحيدة كوحشتي، رمقت العابرين بنظرات يظللها الدمع والغضب، وقفز عمر العريان إلى ذهني، تساءلت كيف سألتقيه بعد هذه المدة.. كنت

حقيقة قد نسيت حكاية أروى، لكني بقيت أستشعر الأسى بمجرد ذكرها، أسى يضاف إليه الآن شيء من الخشية من أن أكون في منزلق آخر، بسبب تفكيري بما لم يكن فيه من الحلال شيء. لا يهم! حدَّثت نفسي.. سيلقاني عمر الآن مطيعاً آخر غير الذي عرفه، هكذا، الناس بطبيعتهم يتغيرون، وأنا حرّ، ومن حقي أن أكون، وأن أحيا كما أشاء..

أصبح مقهى السعد من جديد محطتي بعد كل مسير، بدأت أعقد علاقات بسيطة مع الوجوه المتكررة، أكثرها السلام وبعض تعليق على أمر ما أو حديث.. أصبحت أجلس إلى أكثر من طاولة، أَلِفْتُ شرائح عديدة، شاركت في الأحاديث وتفوهت ببعض آراء وجدتها تخلف استحساناً أو صمتاً، لا يهم!. إنها البداية.. أنا أمضي بما أمر شيخي جابر، سيأتي اليوم الذي تجد فيه كلماتي وآرائي من يصغي.. ظهر رفاق الأمس تباعاً، نظروا إليه جميعاً على أني بضاعة كاسدة، أو كحاجة لا حاجة لأحد بها، أدركت ما أدركت وعدت إلى القول: لا يهم!. حتى عمر سلَّم وسأل عن الصحة كأي عابر.. لا يهم، فزهدي بهم أصبح أشد من زهدهم بي.. فها أنا أجد في الآخرين وما أكثرهم من يستمع لكلماتي، ومن يضمني إلى مجلسه عندما يوسع لي مكاناً بمجرد رؤيتي أظهر في باب المقهى..

السادس عشر من حزيران عام ١٩٧٩ سيكون تاريخاً يفصل ما قبله عما بعده، على الأقل بالنسبة لي. ستمضي الأحداث منذ ذلك الحين دون أن تترك فرصة لالتقاط الأنفاس، وأفكر الآن كيف تسارعت الأحداث لتصل إلى النهاية.. إلى هذا الخانق، ووسط كل هذا الظلام..

كنت في عصر ذلك اليوم قد توجهت بعد طوافي المعهود في المدينة إلى مقهى السعد، وضعت كرسياً أمام الزجاج وجلست كما كانت جدتي تصلي

في آخر أيامها على كرسي.. توجهت بأنظاري إلى الشارع والبشر، كأنني يئست من أن أفلح مع من ورائي في شيء. عدت واستحضرت وصية الشيخ، أيقنت أنه قريباً سيسأل عما فعلت وأين وصلت في دعواي.. فكرت بما أفضي به وكيف، فكل ما تلتقطه العين هنا لا يسعف في الرضا ولا يسير إلى غاية.. حركة المقهى والشارع تمضي غير عابئة بشيء، كيف تسير! تساءلت.. قوة ما تدفعها وتوجهها.. لا شك في أنها المشيئة الإلهية، وحيرة طافت في رأسي تسأل عن النهاية والمآل.. وفكرت في قوله تعالى: «إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ..». قلت إنها الغفلة، والواجب على أيّة حال أن تكون هناك صيحة توقظ النيام، كيف ستكون، وهل تصل الأسماع؟ وتساءلت عن الحكمة التي جعلت الشيخ يوجهني إلى المقهى بالذات لأكون صوت الدعوة فيه.. وطافت في ذهني حكاياه عن كل الأماكن التي لم يكن ممكناً أن تصل الهداية إليها إلا أن تكون هناك، بينهم، وسط العصاة والفاسقين والمرتكبين والضائعين، وإلا ما معنى الدعوة أساساً إن كنت ستنتظر أن يأتي إليك الضال على قدميه فيطلب الهداية منك!. وقد سمعت الشيخ مرة يقول:

– إذا لم نرهم بيننا، فيجب أن يرونا بينهم.

أحاول في تلك اللحظات أن أرسم خطة لدعوتي تكون فيها الدواعي سائغة وسهلة الوصول، فكرت بكلمات ستكون مناسبة للبدء في الإرشاد، أعدتها وغيرت بعض مفرداتها، غيرت محدثي، جعلت الفرد جماعة، عدت إلى الفرد، فتلك بداية!.. أردت وحرصت أن يكون قلبي دليلي، وقد علمت أن ما يخرج من القلب لا بد أن يصب في القلب، ومن استدل بقلبه لا يتيه في دنيا الأغيار.. وفي تلك اللحظات بالذات، وكأنما تجري الأمور بتزامن لا يخطئ، ومن بعيد، يتناغم مع ما في نفسي صوت طلقات من رشاش بدأ يرتفع، تحركت

أنظر في الوجوه، تأكدت من الصوت، الذي عاد يتقطع ثم ينهمر من جديد، قريباً يتجاوب مع بعيد، وأخرسَ الأصوات جميعاً صوت انفجار ضخم أكبر هز المدينة، تعلقت الأبصار التي تتساءل بالخارج، دقائق تمر، يشتد اللغط في المقهى، دقائق أخرى ويشق الفضاء صوتُ سيارة إسعاف تشق الشارع بجنون، وفي إثرها ينطلق زعيق عريض لسيارة (زيل) عسكرية تقترب، اندفعت العيون نحوها، مرت من أمامي، وتسمرت عيناي فيها تتابعان مزراب الدم الذي يتسرب من مؤخرتها، ارتفعتا إلى الكبين لتريا تلة عالية من جثث بألبسة عسكرية، اندفعتْ خلف (الزيل) سيارات إسعاف زاعقة، الرعب يشل حركتي، حركة كل من في المقهى، بجهد نهضت، سحبت قدمي وخرجت، في الخارج بعض الناس أخذوا يهرولون، ثم بدت الشوارع شبه خاوية، ارتعت أكثر، دخلت في أزقة قريبة، ظلام المغرب يبدأ بالهبوط رويداً، تابعت السير.. الأزقة بدت أشبه بمقابر يلفها الصمت، توجهت سريعاً إلى زاوية الشيخ، لم أعرف ما حدث، الشيخ حسيب كان هناك، رأيته مصفراً، سألني عن أصوات الرشاشات والقنابل قبل قليل، وأنا سألت.. وكان علينا معاً أن ننخرط في الذهول وننتظر إلى اليوم التالي لنعلم ما حصل، حيث بدأ حديث الناس الخافت والمعلن عن هجوم مباغت لجماعة الإخوان المسلمين على ثكنة عسكرية، فيه قتل عدد من الطلاب الضباط في مدرسة المدفعية، كان يعد لتخرجهم..

نظرت إلى ما حدث كما لو أنه مخطط مرسوم يحول دون أن أنفذ ما طلبه شيخي جابر العثمان، عدت وتذكرت كلماته، وفكرت في عدد من الإخوان وزملاء التعليم ممن يمكن لهم أن يقودوا مثل هذه المواجهة، وفي الحال قفزت صورة عبد القادر إلى رأسي، وعلى فمه طيف ابتسامة تعلن الاستبشار بأول الغيث الدامي..

كانت تلك بداية أحداث الصدام المسلح في أنحاء مختلفة من المدينة،

وفي الأيام التالية ستشتد المواجهات وتتكاثر، وسيبدأ جنود سرايا الدفاع يمشطون كل مكان في المدينة وأطرافها، وصولاً إلى القرى البعيدة، بحثاً عن فارين وأي قطعة سلاح مهما صغر شأنها، احتقنت الأوقات بأزيز الطلقات وصراخ القنابل، وماتت أي جدوى للكلام، حتى المقهى فرغ ممن يمكن أن تحاوره أو تسمعه، وكل من أعرفهم من جماعة اليسار اختفوا، والوجوه التي ألفتها ما عادت تظهر، لا في المقهى ولا خارجه.. وحقيقة وجدت أني فقدت كل أمل من هذا القعود العبثي والخطر في مقهى السعد، بعد أن استمر القتل وتعاظم.. ومرت أيام، وصار ما يجري أشبه بالمألوف المتكرر، في كل يوم قتل وتفجير وحرق وقطع طرقات وحملات تفتيش..

الشيخ جابر يبدو في أسوأ أوقاته، ينظر الإخوان إليه بإشفاق ويرون كيف تبدّل، يتغيب عن المسجد ثم يظهر بعد حين مهموماً ومتجهماً، أصبح يتخلف عن الذكر والختم، تباعدت جلسات المقابر عصراً، وصار الموت شبحاً لا تدري متى وأين يظهر، ثم وصل الناس إلى لحظات لم يعد يثيرهم فيها ما يجري، تلقوا الأخبار عمن سقط صريعاً من الطرفين دون اكتراث، وكأنما تجمدت المشاعر فلم يعد أحد ينفعل بما يسمع، وأنا وجدت في كل ما حصل شيئاً مما ينغص صفو الهدأة والأمن اللذين كنت قد ركنت إليهما في زاوية الشيخ جابر، بل عندما أصبح وجودي في الحضرة هو الحياة ذاتها، وما سواها شبح حياة وجسد موت.

منذ الأيام الأولى شَلَّت الطرقات، وتحولت المنازل إلى سجون، وبات أي تنقل في الشوارع عسيراً ومحتقناً بالخطر. أوقفت على أكثر من حاجز، وأصبحت لحيتي السوداء فظيعة الفظائع، في مرة شدها عسكري مراهق كمن يريد أن يقتلع وجهي، تلقيت لطمات عنيفة وبصقات، ما دفعني

لأن أزيلها سريعاً وأعود فأظهر بالبنطال والقميص، وكان الأستاذ ماجد بعد أيام من الأحداث قد علق على لحيتي بأنها قريباً ستوردني المهالك، وأنني كما أنا!. سأظل لا أفهم ما يجري وما سيجري.. تذكرت كلماته وأنا أزيلها، وعدت أرتاد مقهى السعد الذي بات أشبه بالفارغ، كإجراء لا بد منه لأظهر بمظهر الحيادي أو من قطع صلته بكل ذيول الحركات الدينية في المدينة، انضممت في المقهى إلى عدد من الأنفار يلعبون طاولة الزهر، في الأيام الأولى جلست أراقب، ثم تعلمت ألعابها سريعاً، وأخذت أشارك عندما تحين فرصة، ووجدت نفسي في كل حين معلق العيون بما يستقر عليه النرد من ضربة حظ تأتي من غامض..

لكن في المدرسة اشتدت النظرات المصوبة نحوي، أصبحت أحس بعبئها ثقيلاً، أيام تمر وأبدأ ألاحظ تغيب بعض المعلمين، اثنين أو ثلاثة، حاولت بحدسي أن أصل إلى السبب، غاب رابع، سألت الأستاذ ماجد بصوت لا تسمعه آذان الجدران.. نظر في عيني لحظة ثم سهم بعيداً:

– هم تغيبوا وكفى، لا تسأل أكثر، لا أريد أن تظن أن لي يداً في الموضوع، صدق هذا أو لا تصدق، لا يهم، لكن حقيقة هم لم يقتادوا أحداً من هنا، من المدرسة!.

في ذلك الصباح نظرت إلى الأستاذ ماجد نظرة مختلفة، لم أعد أرى فيه مجرد مدير مدرسة في منطقة منسية على الأطراف، أصبح في نظري الآن في صفوف المسؤولين، في موقع قيادي، يمضي أوقاتاً غامضة في غرفة الإدارة مع عناصر من الأمن تظهر فجأة وتختفي فجأة.. لا أدري لمَ فكرت أنه بات في فم الخطر، وانتابتني راحة كبرى وأنا أحظى بأن أكون في منأى عن الحزب وتبعاته القاتلة. بقي اختفاء بعض المعلمين سرًّا غامضاً، وبدأت أفكر في أني مراقب، حتى وأنا في داخل بيتي وخلف جدرانه. في

طريقي إلى الزاوية أتلفَّت مراراً مخافة أن يكون أحد ما يتعقبني، ورددت في سري أو سمعتني أقول بصوت خفيض: قريباً سيأتي دوري للاختفاء مع من اختفى.. وكان ما شغلني حقيقة عبد القادر، ولا سيما بعد أن أسرَّ الأستاذ ماجد في أذني:

– عبد القادر لم يكن مع المجموعة، هذا لم يعثر عليه أحد، وهم يجدون في طلبه، بل في طلب كل من كان على علاقة ما به.

كان عبد القادر فعلاً قد اختفى منذ أيام، فشلت كل محاولاتي في أن أجد له أثراً، في بيته أوفي الحي الذي يسكن أو عند معارفه وأقاربه.. وأحسست بنفسي كالمعلق في الهواء، وحيداً مهدداً في كل لحظة بالسقوط. غادرت الإدارة دون أن يرد الأستاذ ماجد تحيتي. والآن.. لا المدرسة ولا البيت ولا المقهى ولا الشوارع بطولها وعرضها، كان بإمكانها أن تكون ملاذاً من الجزع، أصبحت على يقين أنهم سيلقون القبض عليَّ في الساعات القليلة القادمة، وأنهم ربما يتأخرون في التنفيذ إمعاناً في تعذيبي.. وجوه الناس أصبحت أكثر اتهاماً وقسوة، أحسست بوجودي لا يطاق، واشتد شعوري بهول العيون، لعنت عبد القادر في سري، عدت أفكر في الخروج من كل هذا الخانق الذي حشرت فيه في حال انتقالي إلى مركز المدينة، أو قريباً من المركز، هناك فعلاً كان سيضيع كل شيء في كل شيء.

أبي شبه العاجز أنقذني، كان الحشيش قد هده، رجوته مرات أن يتوب، لكنه لم يفعل، قال:

– إذا أردت أن تساعدني فأرحني!.

سألته:

– كيف؟!

قال:

– احمل عني في المكتب مع شريكنا، هذا.. أنا لا أؤمن أن أتركه وحده، هذا واحد حرامي.. ينهبنا في كل رزقة، يبيع ويشتري ويؤجر ويرهن في الخفاء، على الدلس، يعطيني من الجمل أذنه.

وجاءت على رجليها، وجدتها فرصة للهرب، منهم، من نفسي أو من الناس، لا أدري!. فصرت أمضي ساعات طويلة في المكتب، وحيداً أو مع الزبائن والمتسكعين، هنا المكان عام وبعيد عن كل ما يمكن أن يثير الريبة، وفكرت فعلاً لماذا لم ألجأ إلى هنا طوال الفترة التي مرت..

كانت المدرسة قد بدأت تبعث في نفسي مزيداً من الإحساس بالخوف والترقب، بالملاحقة الدائمة من العيون، عيون قد لا تظهر لي، لكنها موجودة دائماً، في كل مكان، في الوسط الذي أسعى فيه ومنه وإليه.. قلت في نفسي كما لو أني وصلت إلى قرار: الواجب الآن أن أبدأ من هنا، من المكتب العقاري، من أشد الضرورات أن أحرص على قصقصة ذيول أي علاقات كانت تربطني بأي من أرباب العقائد والمبادئ.. أن أتحاشى حتى مجرد السلام، على أي أحد.. لكن معرفتي بعبد القادر ظلت تؤرقني، وفكرت أنه لعنة ستلاحقني، وتساءلت طويلاً عن كيفية الخروج من أسره، لكني أعود فأصل في كل مرة إلى الهاجس ذاته: لا بد أن أستدعى فأسأل عن معرفتي به، أو لنقل علاقتي به والجهة التي نرتبط بها.. وسيسكني هاجسي أسابيع إلى أن أدخل المكتب العقاري يوماً فيعضني الفزع حالاً، وفي الحلق هذه المرة.. كان ضابط برتبة نقيب قد تصدر خلف الطاولة الكبيرة في المكتب، بلباسه المبرقع وأكمامه المرفوعة حتى الزندين. تأملته خلسة وشاهدت بقلق كيف كان يسدد بصره نحوي، تشاغلت قليلاً، اتصل الحديث الذي انقطع بينه وبين أبي، هدأت وقد عرفت ما يريد، لم يقتنع بكلام ما، عاد وهرش رأسه الحليق وطلب من

أبي ثانية البحث عن بيت مفروش على الآخر، استغرب أبي الطلب، في حي متواضع كهذا، وفتح يديه متحيراً كأنما يعتذر، لكن الضابط أصر على الطلب:

– ستوجده بأي شكل..

أبو سعيد شريك والدي يدخل في الوقت المناسب، ضحك كعادته وقال:

– ألف طلب مثل ها الطلب في خدمتك سيدي، بيت مفروش على المفتاح تحت أمرك..

انبسط وجه الضابط، وبعدها كأنما فرغ من أمر التفت نحوي، ثبَّت نظره في عينيَّ وسأل:

– أنت!. ما ذا تريد؟

بادر أبي:

– ابني خدّامك، معلّم مدرسة، يساعدني هنا بعد الدوام..

سأل:

– أين تعلّم؟

رد أبي:

– لا زال في الأطراف يا سيدي، في كل مرة يرفضون طلب نقله..

نظر إليَّ هذه المرة نظرة دهشة طويلة متفحصة وسأل:

– هل أنت منظم؟!

رددت بتوجس:

– لا.

نظر الضابط قليلاً إلى لا شيء ثم قال:

– لا مشكلة.. اسمع ستكون غداً في العاشرة تماماً في مكتب مدير التربية.. اجلس وانتظر فقط!.

لم أصدق، شكرته بكلمات رددتها مرات، سجل الضابط شيئاً في مفكرة صغيرة، سأل عن الاسم.. التفتَ إلى أبي، وأنا تذوقت طعم الفرح، انتشيت بحلم الانتقال، هذه المرة يأتيني على طبق من ذهب، بعز ما بعده عز، ومن فوق، هكذا سيفهم جهاد الياسين وغيره.. نسيت خوفي وغادرت المكتب، طارت خطواتي، سأنظر في عيونهم غداً وسيخفضونها، سأجلس في مكتب المدير مزهواً حتى يُطلب إليَّ التشريف بالدخول..

في اليوم التالي أخفُّ في الصباح إلى مديرية التربية، وفي مكتب المدير أجلس.. دقائق قليلة بعد العاشرة تحل، أمضيها في انتظار راجف، ها هو الباب الداخلي الخاص بالمدير يفتح، يتقدم مدير مكتبه ويسأل عن الأستاذ مطيع العبّادي، أنهض إليه بابتسامة ظفر، يفتح الباب ويفسح لدخولي، تفضل أستاذ.. خلف مكتبه كان مدير التربية يقف ويحمل سماعة الهاتف، فيما يردد عبارة (أمرك سيدي)، ويمد يده الأخرى لأتقدم وأصافحه، ثم يشير إلى مكان الجلوس، يضع السماعة ويبادرني:

– أهلاً أستاذ مطيع، سيادة النقيب رسلان غال علينا وطلبه لا يرد.. كيف حاله؟.. الآن تذهب إلى الأستاذ محمود الحمصي.. أنا سأكلمه حالاً.. هو سيتدبر الأمر..

حمَّلني سلاماً إلى النقيب رسلان، شدّ على يدي، دفع بالثقة إلى كل شيء فيَّ..

في مكتبه الفخم رحب الأستاذ محمود بمقدمي، طلب إلي الجلوس، سأل عن وضعي الوظيفي وعن القدم والنشاطات والأحزاب التي انتسب إليها.. لم أكد أجيب بشيء حتى قطع كلماتي وقال:

– الآن أنت ترى فوضى الأمن، ستمر على مكتبي في نهاية الأسبوع تأخذ أمر نقلك منضداً على الآلة الكاتبة وموقعاً..

سألت:

– في مركز المدينة؟

رد:

– ستكون في مركز المدينة، في قلب المركز كما تحب..

صافحني بحرارة وخرجت بقامة مشدودة وبأس لا يقاوم.

عدت من مكتب الأستاذ محمود الحمصي بخطوات منتشيه، شعرت بأقدامي تدفعني للطيران، الأستاذ ماجد من بين الجميع يجب أن يعرف نبأ النقل القريب، على نحو سيدهشه بالتأكيد.. ستنتهي بعد أيام فترة من الضياع ومن الخوف، من حياة كموت بطيء، وأياماً سأغادرها ولن ألتفت إلى سوادها..

قطعت حارة التبانة طولاً، واقتربت من بناء المدرسة المنعزل في طرفها الأبعد، وبدأ يظهر لي أمام سورها حركة غير عادية، رأيت الطلاب منتشرين في غير وقت الانصراف، وحشداً من البشر ينضم إليهم من أطراف متعددة، وبعض أناس يتراكضون، عرفت أن شيئاً ما يحدث، لكن أي شيء في تلك اللحظات لم يكن يعنيني، ولم يكن لينغص فرحتي، ومهما يحصل لن يكون أكثر مما تعودناه: حادثة مداهمة ربما، أو اشتباك يبدو الآن في نهايته.. اقتربت أكثر لأرى من بين الأرجل وقرب الرصيف جثة ممددة، دفعني الفضول لأتقدم، ومن خلفي كانت سيارة إسعاف قد وصلت مسرعة تزعق، تلتها سيارات (جيب) عسكرية فرقت الحشود إلى الحارات القريبة، وبنظرة خاطفة متفحصة استطعت أن أتبين جثة ملقاة على دماء، سرعان ما طالعني فيها وجه المدير ماجد الصالح بعينين شاخصتين وفم مفتوح على صرخة.

* * *

١٩

لم أشأ أن أسأل أحداً عما حدث.. عدت بأنفاس تتقطع نحو البيت، أحسست بحمى تشعل رأسي، وتداعى كل ما تجمّع من فرح في قلبي منذ قليل. أقفلت الباب بالمتراس ولجأت إلى العتمة في وضح النهار، تساءلت دون أن أهتدي إلى إجابة، عن أحد ما له مصلحة في قتل الأستاذ ماجد.. غامت في رأسي الأسباب والبواعث، ظهر أشخاص واختفى آخرون، اتسعت دائرة الشك ثم ضاقت.. عدت إلى نفسي، إلى دائرة شخصي، بت على يقين أنهم سيصلون في أيّة لحظة لاقتيادي، مقتل الأستاذ ماجد شلَّ تفكيري فضعت في هواجس كانت قد تلاشت، رسمت المشهد القادم مرات ومرات.. هاهم يطوقون الحارة ويكسرون القفل ويقتادونني وسط العيون المسمَّرة نحوي.. في مرة ثانية يعتلون السطح ويستخرجونني من ظلمتي كأرنب مذعور. لا بد على أيّة حال من أن يفكروا أنني المسؤول عن مقتله، أو أنني من نفذ القتل بيديه.. مرت ساعات وبدأت قواي تضمحل، وقفت أريد أن أغادر البيت، وأحسست بساقيَّ ترتخيان، لا مفر، خذلني النوم وخذلني الصحو.. وفجأة ارتفعت في الفضاء طلقات رشاش قريب، تجاوبت معها دقات قلبي، هدأت الطلقات وساد صمت، واندفعت بغير تفكير أسعى إلى وضع حد لهذا الرعب الذي أخذ يرعف دمي، أزحت المتراس وشققت الباب.. مددت عنقي أستطلع، الشارع حتى آخره فارغ إلا من الوحشة، وضعت قدماً في الخارج وأخرى في الداخل، ورفعت رأسي لأرى ما أرى، كان ثمة عيون مصوبة نحوي،

وجدت نفسي فجأة في مرماها الصائب، عشرات العيون ضبطتني في الشبابيك المقابلة، تراجعت، زعق صوت:

– قف عندك، لا تتحرك.

اندفعوا من المبنى نحوي، عبروا الشارع هرولة، وتجمدت عروقي على بابٍ نصف مفتوح، رِجْلٌ في الخارج وأخرى في الداخل، حرت أيَّهما أقدم وأيَّهما أؤخر. في الحال شدت قبضاتهم على ذراعيَّ المستسلمتين، جررونني على الرصيف، ومن رأس الشارع اندفعت سيارة (زيل) نحونا، أحد آخر لكمني ثم فك أزرار قميصي الصيفي، بسرعة خلعه عن جسدي وجعله رباطاً على عينيَّ وشده بعقدتين، ودخلت في عتمة أليفة، غمرتني نشوتها وطار فزعي، لا أدري كيف وضعت قدمي على السلم الحديدي، ويد ما دفعت بي إلى داخل الكبين، ارتطمت بأجساد أخرى، اهتديت إلى أيد تمسكت بها، وجدت أكفاً تتحسسني وتشد علي هي الأخرى، لم ينطق أحد بكلمة، اكتفينا بلغة الأيدي المتشبثة، بعد دقائق سمعت صوت المحرك يدور، تحركت السيارة، اهتزت الأجساد وارتطمت بحديدها، هدر المحرك أقوى، وأحسست بالسرعة التي انطلقت بها (الزيل)، في الطريق دفعوا إلينا أجساداً أخرى، أنا لا أرى وهذا لا يهم، بل راحة القلب ألا أرى، ألا أمتعض وأفزع وأتيه في صحراء جنون.. تركت جسدي يعوم كيفما يشاء، وحدها حواسي الأخرى نشطت، شممت عرق الآخرين، طافت في سمعي همسات وزفرات محمومة، طال الطريق وتعرج، شممنا رائحة تراب خانق، وانصبت شمس حارقة على رؤوسنا. مرت لحظات أحسست فيها فوضى الأيادي المتمسكة التي تتشبث بما تقع عليه ثم تعود لتفلت ما أمسكت، وحدها يدان اثنتان تحسستهما، كانتا تطبقان على ذراعيَّ بإصرار، لففت الخصر وربت على الظهر، ظل الآخر يشد على الساعدين، شعرت أني ملاذ، وسرني وسط كل

هذا الخوف والمجهول أن أكون ملاذاً، تحركت لأتأكد من نية الآخر، الذي عاد فشد بقوة بعد أن هدأت حركة السيارة ثم توقفَتْ وانطفأ محركها، هيَّأت نفسي لما سيأتي، يد ما جرتني لتقذف بي إلى أرض ترابية، انسحق ساعدي على خشونتها، فيما الآخر ظل خلفي مصراً على الإمساك بي، وقع خلفي ثم نهضنا معاً، رفستنا أقدام لنتقدم، سمعنا صوتاً يأمرنا بالجلوس جميعاً على المقعدة، سياط حادة تقع على رؤوسنا، نلوذ بالأرض وسط سحب التراب.. أحدهم يفك القميص عن عيني ويقذفه بوجهي، تحسست المكان، عدت وتحسست رفيقي المتشبث بي، بعيني هذه المرة، الآخر شاب بلحية سوداء، نظر إليَّ بابتسامات فيها إشفاق، بادلته النظرات ذاتها، طفت ببصري في المكان.. أرض ترابية مترامية، مستوية وقاحلة.. عدت أتأمل ما حولي، انتشلني صوت زاعق يأمرنا هذه المرة بالانبطاح، تنسحق أجسادنا على التراب دفعة واحدة، وتبدأ أقدام مجنونة تدوس ظهورنا وترفس في أي مكان، واختلط صراخنا بشتائم العساكر وبعجيج التراب المتصاعد، ارتفعت آهات وأصوات آلام، ونزل عقب بندقية على كتفي المرتفعة عن الأرض، فيما كنت أشاهد كيف تسقط الهراوات والسياط على الظهور والرؤوس.. في لحظة تالية توقف كل شيء وهدأت الأصوات، ثم عاد صوت فأمرنا بالجلوس في المكان.. حدقت أمامي هذه المرة لأرى ضابطاً برتبة مقدم يجلس خلف طاولة وحوله مساعدوه، قال أحدهم وقد وضع كفيه على خصره وباعد بين ساقيه، ثم نظر في وجوهنا كمن يريد أن يصفي حساباً معنا:

– هذا حتى الآن لا شيء، لا شيء يا حَوَش، الآن استمعوا جيداً إلى سيادة المحقق.

المحقق صمت طويلاً، تأمل أوراقاً بين يديه، ظل ينقر بالقلم على طرف الطاولة، ثم انفرجت شفتاه ونطق بكلمات بطيئة، بدأها بحديث

قلق عن الوطن والقتل الأعمى والعصابة العميلة، تلاشى خوفي، وأدركت من لحظتها أني واحد من حشد كبير التقط من أي مكان ليصار إلى تعبئته ضد أعداء الوطن..

بعد ساعتين من كلمات ترن في الآذان، على وهج شمس تموز، أطلق سراحنا، لنعود كيفياً عبر شوارع فارغة إلا من سيارات عسكرية زاعقة، وطلقات متباعدة تئز.. الآخر حث خطواته خلفي، حمد الله مرات على نجاتنا، قال:

– لم أصدق وأنا بهذه (وأشار إلى لحيته الخفيفة) أن أنفذ.

عندما أصبحنا في منتصف الطريق إلى البيت أخذت طلقات رصاص تلعلع، حاولنا أن نحتمي، وجدنا آخرين ينبطحون، فعلنا مثلهم.. طلقة طائشة تلامس قدمي، أشعر بها كلسعة حارقة، أنظر إلى قطرات صغيرة أخذت تنز من الجرح، الآخر يجرني، ننهض ونواصل الجري.. نعود فنلوذ بجدار، الآخر يخرج منديلاً ويحاول أن يسد تدفق الدم، يصر على مساعدتي، يربط الجرح حتى يطمئن إلى أنه أوقف نزيفه، نتابع المسير، أسمع صوت لهاثنا، وأجد الآخر بعد قليل، ووسط انشغالي بالألم والذهول في داخل بيتي، سأل عن مطهر فأشرت إلى مكانه، عقم الجرح، عاد وربطه بشاش نظيف وقال:

– إصابة بسيطة، يجب أن تغير على الجرح كل يوم، لا بأس نعدها فداء ما حصل، أنا أخوك بكور مراد، سأعود لأطمئن عليك غداً وأغير على الجرح.

عرّفته باسمي وطلبت منه أن يظل ويعد الشاي، فالبيت بيته، لكن بكور فضّل أن يتركني لأرتاح اليوم، ووعد أن يأتيني في الغد.. خرج وبقيت وحيداً، فلم ألتفت إلى شيء مما حصل، بل استلقيت جثة هامدة حتى صباح اليوم التالي.

طَرَقات على الباب في الصباح أيقظتني من نوم طويل كان أشبه بغيبوبة، لم أشأ أن أتحرك من الفراش، عادت الطرقات تشتد، نهضت إلى الباب أجر قدمي الجريحة، فتحته غير عابئ بما يمكن أن أرى.. فاجأني وجه زيد المحمود، دخل سريعاً قبل أن ينطق بكلمة سلام، أغلق الباب وراءه كمن يهرب من مطاردة، ومع لهاثه انهال عليَّ بكلمات تدين ما يجري، قال وهو يحدق في قدمي الجريحة:

– أنا لم أكن أتصور أن تصل الأمور بكم إلى قتل مدير مدرسة أو بائع جرائد أو حتى سواس..

وأنا ذهلت في ما أسمع، وتحديداً بكلمة (بكم). قلت بعد أن هدأ:

– أنا أستمع إليك لأنك هنا في بيتي، لكن ما علاقتي أنا بكل ما يجري؟!.

قال زيد:

– بل كل جماعتك، عبد القادر السالم وعبد الوهاب رجب وحسون الراعي ومصطفى البيج.. هل أعدد لك أسماء أخرى، لم يعد شيء خافياً، لكن رغم كل ما جرى وما يجري، ثق أننا نمد يدنا إليكم لعلنا نستطيع أن نفكر على نحو أكثر إيجابية وفاعلية في وقت عصيب كالذي نمر به الآن، أنا لم أكن أتصور أن تصل الأمور إلى قتل الأستاذ ماجد!.

قلت:

– هل استطعت أن تقابل أحداً غيري!. افهم! لو أن لي أية علاقة لما استطعت أن تجدني.. ولو أن..

لا يبدو على زيد أنه يريد أن يسمع شيئاً من كلامي، الغالب أنه جاء ليوصل رسالة، إذ سرعان ما نهض وأبدى استعداده واستعداد رفاقه لفتح حوار فعّال، وترك تحديد الوقت والزمن للجماعة، شرط السرعة القصوى..

زيد يغادر دون سلام، في الباب يصادف بكور مراد وهو يدخل، ينظر إليه بشك، يتمهل كأنما ليكلمه ثم يغادر سريعاً، ليجعلني أدخل في تيه لم أتصور يوماً أن أدخله، فكيف بي وأنا أجد نفسي مع كلماته أحمل مسؤولية ما جرى وما سيجري مع آخرين، عدّدَ منهم أسماء بكل تأكيد وعن سابق معرفة.. وتحققت ظنوني في أن شك السلطات ومن ثم اتهامهم سيطالني، ولكني أحسست الآن بخطر زيد أكثر من أي خطر آخر.

رحبت ببكور وطلبت منه أن ينزل متراس الباب خلف الذي خرج، أدركت للحظات أني بدوت أمامه مسكوناً بالغضب. سأل بكور عن الجرح وفيما إذا كنت قد نمت جيداً، ثم وقف كأنما تذكر شيئاً، أسرع إلى الباب وخرج، فكرت أنه يمكن أن يلحق بزيد، أو أنه يعرفه بعد أن وقف يتأمل بدهشة انسحابه العاصف قبل قليل.. دقائق تمر ويعود بكور ومعه فطور الصباح، دخل وفاحت رائحة الخبز والسحلب الحار، قال:

– بالتأكيد أنت لم تأكل البارحة..

سألته:

– هل تعرف زيداً؟

– لا. من زيد هذا؟

– ألم تتبعه؟

– لماذا أتبعه؟

– حسبت أنك تعرفه.

– من هو؟ كان ينظر إليَّ وفي عينيه شر.

– دعك منه، فسيرته تصدع الرأس.. هو معلم زميل في المدرسة. لا يهم..

– أخي أنا أسكن قربك.. أتدري! البارحة كنت سندي.. شعرت بالراحة وأنا أتمسك بك..

أقبلت على الطعام ودعوته ليأكل، بكور لم يفعل، كان شارداً وأشعل سيجارة.. ثم فجأة قال:

– أنا خائف يا مطيع!.

نظرت في عينيه وقرأت ما هو أكثر من الخوف، فقلت:

– ماذا تريد أن تقول؟

رد بكور برجاء كمن ينزل أثقالاً:

– زوجتي.. عندهم.. منذ أكثر من أسبوع.

– عندهم أين؟

– لا أعرف أي شيء، في الصباح منذ أيام.. طرقوا الباب وأخذوها..

– هل هي من الجماعة؟

–.. ولها مريدات أيضاً.. كانت في الأصل من جماعة الشيخ جابر، ثم استقلت منذ فترة بدروسها في البيت.

فاجأني ذكر اسم الشيخ فقلت:

– الشيخ جابر شيخي.. ولكن هل كان حقيقةً يلقي على النساء دروساً؟

– لا.. الخوجة امرأته.. لكن هذا في القديم.. زوجتي أوجدت لها مريدات، وانفصلت عن الخوجة والشيخ، مريدات من المدرسة حيث تعلّم..

– وأنت.. ما كان موقفك؟!

– أنا يا مطيع كنت في واد آخر.. لحقني ما لحقني من سيرتها..

ازداد اهتمامي بما يقول، وتابع هو:

– مرت سنوات من الحياة المشتركة والأولاد.. أنا أتكسب من دكاني في سوق النسوان.. بياع كلف وأزرار وريبان، مع أخي.. مورد ضعيف

لكنه يستر.. بعد سنوات كثرت مريداتها وانشغلت عني، قل لم تعد تحسب لوجودي أي حساب، وشعرت حقيقة أنها تكرهني، فقد بدأت تناكدني، ثم انفجرت مرة في وجهي وهي تقول: أنت تصرف علينا من مال حرام. كيف؟! قال لأنك طوال اليوم مع النسوان.. تفضلي يا ست، تفضلي يا خانم.. ترى الوجوه والغوا والزينة وكلمة من هنا وكلمة من هناك وتجد نفسك في شر المعاصي.. أنا نظرت إليها وانعقد لساني، لم أعرف بماذا أجيب.. وأكملت: سأعيش من الآن وآكل من جني يدي.. بعد شهور وضعتني وجهاً لوجه أمام الطلاق.. لكن الأولاد.. أنت تدري.. جرحوا قلبي.. تصورتهم يضيعون بيني وبينها، لم أفعل.. أيام تمر وأجدها تصدّ عني، حاولْتُ مرة فتخشبَتْ ووصلني همسها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!.. شيء ما سقط في قلبي.. تراجعْتُ.. لكن الغريب أنها قالت فيما بعد أن الشيخ جابر هو من أفتى لها أن تفعل ما تفعل.. أنا لا أدري إن كان الشيخ جابر يمكن أن يفتي بمثل هذه الفتوى!. على أيّة حال وصلنا إلى ما ترى. ربما عدتني كافراً مرتداً.. لا أدري! علمت ذلك وأنا أراها في الأيام التالية، بعد أن يئسَتْ من مسألة الطلاق، لا تظهر سافرة بشعرها أمامي، بل أصبحت لا تكلمني، وإذا اضطرت جعلت الأولاد وسيطاً بيننا، حتى صار وجودي معها تحت سقف واحد هو الحرام بعينه كما نقل إليَّ، أخذَتْ فيما بعد تنزوي في غرفتها الخاصة، تلك التي تستقبل فيها مريداتها..

* * *

٢٠

توالت لقاءاتي ببكور، وحمل إلي في كل لقاء اللوعة المرة على زوجته وهي هناك في أقبيتهم، يقسم أنه لا يستطيع أن ينام وهو يفكر في كل لحظة ماذا يمكن أن يفعلوا بها وأين تكون و.. يخنقه البكاء كطفل، وينحني على كتفي خجلاً من دموعه.. فيما بعد أبدى رغبته في أن أعرفه على الشيخ جابر، قلت:

– الأمر هين، ستحضر الذكر والختم الليلة معي..

اصطحبته في المساء، وأدهشني في اللحظات الأولى من الذكر وأنا أراه يهيم ويخشع.. عرفته بداية بالشيخ حسيب بعد أن غادر الشيخ جابر دون فرصة للقائه، سرعان ما نشأت بين الاثنين صداقة وتعلق.. صار بكور يمضي أكثر أوقاته في الزاوية، يغوص هو والشيخ حسيب في أحاديث لا تنتهي.. هجر الدكان والبيع في السوق، قال إن أخاه يسد مكانه، وأودع أبناءه الصغار عند أمه.. الشيخ حسيب علم بقصته كاملة وخاض معه في أسرارها وتفاصيلها، وقاسمه قلقه المر على زوجته، وهو ينكر في الوقت نفسه فعلتها، وأن يكون الشيخ جابر قد أفتى لها أن تنفصل عن زوجها وهما تحت سقف واحد.. وعاد بعد أيام يقطع الشك باليقين، بعد أن حدث الشيخ جابر بقصتها.. طلب الشيخ لقاءه، وبجهد تذكَّر أنها كانت من مريداته يوماً، وقال إنه لم يعد يسمع عنها شيئاً منذ سنوات، وإنه لا يمكن أن يفتي بأن تكفر المرأة زوجها وتطلق نفسها لمجرد شكها في سلوكه أو عباداته..

أصبح بكور يلازم مجلس الشيخ ويأنس به، ويطلب في كل مرة دعاءه

بضراعة أو يبكي بين يديه. الشيخ جابر وبعد أن علم بقصته أصبح يداريه كطفل، ويخصه بالعناية ويواسيه ثم يؤمله ويدعوه لأن ينتظر فالفرج قريب، حتى إنه خصص وقتاً في ليلة من ليالي الخميس لتلاوة الصلاة النارية لكشف الغمة، وعلى نية ورجاء أن يطلق سراحها مع غيرها من الموقوفات، وعرض عليه مرة أن يتزوج، لكن بكور استبعد الفكرة أمامي، فكيف له – كما قال – أن يفكر في المرأة في ظل أيام القتل والرعب.

في صباح من تلك الصباحات السود كما سماها الشيخ حسيب فيما بعد، دخل بكور الزاوية أشبه بميت يسير.. بشفاه مزرقة قال إنه أمضى ليلة البارحة عندهم.. هم يصرون أن يعرفوا كل شيء عن أتباعها منه.. عندما قال: لا أعلم. صفع حتى أغمي.. هددوه أن يفعلوا به ما فعلوا بها.. واختنق بكور بنشيج لا يتوقف، قال بعدها بصوت يرتجف إنه كتب تعهداً بأن يزودهم بعد أيام بتقارير عن أسماء بعينها.. أظهر من جيبه ورقة فيها أسماء غريبة لنساء وبعض رجال، نشرها أمام عيوننا وقال:

– يريدون أن أحضر معلومات عن هؤلاء، من يعرف أيًّا منها؟..

عاد وانخرط في بكاء يفضح عجزه.. قال:

– أنا لا أريد أن أخلص من هذه المشكلة، أنا أريد أن أخلص من حياتي ذاتها..

هدّأه الشيخ حسيب وقال:

– إذا تخفيت عن العيون في هذه الأيام يكون أصلح.

قال بكور:

– لقد هددوني بالأولاد وبأمي، فكيف أختفي؟!

أيام تمر على بيوت وأوقات مطوقة، على طرق مقطوعة بالحواجز

والدماء، على طلقات وحرائق وزمامير إسعاف.. في يوم تال سأنهض صباحاً وأفك ضماد قدمي، سأطل على الشارع من الباب الموارب فأجد بعض المارة، صغير يحمل الخبز ويلوك قطعة منه، كل شيء عادي، أرتدي ملابسي وأغادر، قررت ألا أعود إلى المدرسة إلا للحصول على الانفكاك، فعلى الرغم مما جرى بقيت أفكر بقرار النقل، وأنه لا بد أن يكون قد صدر، قصدت مديرية التربية، سرت في شوارع ميتة، تكاد تخلو من السيارات والمارة.. انعطفت في طلعة خان الوزير ووصلت إلى أعلى الطريق، أمامي بدت القلعة جاثمة، اقتربت من باب التربية، وخلفي بدأ يعلو صوت زمور إسعاف، سبقني الصوت فانقذفت وراءه.. وأمام باب المديرية كأني كنت مدعواً لأرى ما رأيت، وقفت السيارة بفرامل سريعة، انفتحت أبوابها واندفعت من خلفها نقالة.. دخلوا بها سريعاً إلى المبنى، زمامير إسعاف أخرى هرعت إلى المكان، على بعد خطوات من الباب الخارجي، في طرف السور هناك ظهرت النقالة ثانية، ارتفعت عليها جرائد تغطي ما تحتها.. سريعاً تجمع بعض المارة، وطرق سمعي اسم محمود الحمصي، شهقت وتراجعت.. لم أكن قد استوعبت حقاً مقتل الأستاذ ماجد، وأجد نفسي الآن فاغر الفم أنظر أمامي ببله، بدا لي مقتل الحمصي كأنما يتقصدني، صحيح أن دمائي لم ترشح فتبلل أغطية من صحف، أو تشخب كالمزاريب من شاحنة عسكرية، لكنه القتل، أراه أمامي محققاً وحاسماً لا يخطئ. همس المتجمعون بأسماء قتلى آخرين هذا الصباح، هجوم على حاجز تفتيش في باب الحديد، حرائق في جمعيات استهلاكية، في مؤسسات الدولة وفي الشعب الحزبية.. أين عبد القادر حقاً!. شيء ما في داخلي سقط، تمرغ بالدماء، منذ حل الجفاء بيننا، ضعت، أصبحت في واد

آخر، لم أعد أعرف ما الذي يجري، وإلى أين يجري.. أنا لم أكد أصدق ما حصل بالأمس للأستاذ ماجد، لا أصدق أنه انتهى وخرج من هذا الوجود، بقيت أظن أني سأدخل المدرسة فأراه أمامي، الآن كل شيء يغوص في الدماء.. دماء أخرى آتية، رشاش دماء، فهل يجرني إليها عبد القادر، هل يغرقني فيها!. عبد القادر، أو ربما الآخر.. إبراهيم وجماعته!. لم أشأ أن أهوي أكثر في لغز الدماء وفي الفزع.. الدماء التي لم يغادر منظرها رأسي، في المساء وطوال الليل، ووجدت أن ما حدث قد أضاع كل شيء.

خرجت من البيت في الصباح منهكاً، مشيت حتى ساحة باب الفرج، وتناولت صحيفة الجماهير لأقرأ على صفحتها الأولى بالبنط العريض: «يد الإجرام تغتال أشرف كوادرنا الحزبية المناضل الشهيد محمود الحمصي». تغيبت عن المدرسة، عرفت أنهم سيجعلون من تغيبي حجة دامغة لاتهامي بما يجري، أو ما سيجري.. البيت هو الملاذ، الحضرة والشيخ حسيب هما الملاذ، الشوارع والأزقة والحارات هي الملاذ، ظللت أسير لا أدري إلى أين! عدت أفكر بعبد القادر، وتساءلت في سري عن دوره الحقيقي فيما يجري، أين أراه؟! همت في الطرقات، بدت المدينة شوارع مسكونة بالفراغ والهلع، قطعت حارات وأحياء كثيرة، المدينة تزداد وحشة والمحلات مقفلة، أصبحت المحطة كالعادة في مقهى السعد، هناك جلست صامتاً أنتظر أن ألتقي بصديق أسرُّ إليه بألغاز الروح..

تمر ساعة من الزمن لا تفارق رأسي تداعيات القتل، انتبهت إلى أني أحتسي قهوتي بلا سكر، أتحرك بلا إرادة وأهم بالنهوض، لحظات وأجد نفسي أتجمد في مكاني دون أن أصدق أن عبد القادر يمر من أمام المقهى، شيء ما عقد لساني، يدي وحدها ارتفعت تشير له، شاهدني عبد القادر من

خلف الزجاج، كأنما فوجئ بي، عدت فرفعت يدي أدعوه للدخول، بدا مضطرباً، تقدم من باب المقهى ودخل، سلم شارداً ثم جلس، ظلت عيناه زائغتين تعكسان ما في داخله من قلق، وقبل أن يتحدث إلي، عاد ووقف يريد الذهاب إلى موعد، قال إنه تأخر ويجب أن يذهب في الحال، قلت:

– اشرب شيئاً..

لم أكمل، زخة طويلة من رصاص ارتفعت، زخات أخرى قاصفة متتالية اختلطت بأرجل الكراسي وهي تحتك بأرض المقهى.. أراد عبد القادر أن يقول شيئاً، ظلت الكلمات محبوسة في فمه، وانسحب دون سلام مهرولاً، عندما صار على الرصيف الآخر أسرع أكثر.. احتشد باب المقهى بالخارجين.. عادت قذائف من رشاش تتناوب مع طلقات الرصاص.. أشار بعضهم إلى جهة الصوت، لحظات هدأت الأصوات وعمّ سكون، قلائل ظلوا منشدين إلى طاولات المقهى.. في لحظات أخرى بدا الرصيف المقابل فارغاً، هدأت حركة المارة، سيارات عسكرية تنطلق بجنون، تتبعها أخرى، تحركت أريد الخروج، صوت بعيد لزمور إسعاف، ارتفع أكثر واقترب، ثم عاد يبتعد حتى تلاشى.. بعده عاد إلى الشارع صمته المطبق، مالت شمس المغيب فملأت أرض المقهى، سحبت خطواتي خارجه، سرت كالقتيل نحو البيت.

أصبح ظهور عبد القادر السريع ثم اختفاؤه مصدر أرق وكابوساً لا يقاوم.. نما اللغز أكثر في رأسي، مرت ساعات بحجم الألم جعلت الروح عبئاً، أحسست كأنما أريد أن ألفظ ثقلها الجاثم على الجسد، غرقت في ماء آسن تفوح منه رائحة جثث متفسخة، غفوة واحدة، صحوت بعدها على عرق يبلل ملابسي والفراش.. ألحت على رأسي فكرة ظهور عبد القادر بهذه السرعة ثم اختفائه مع أول زخة رصاص، عادت كلمات زيد

المحمود ترن في سمعي، قلت في نفسي: الآن، الآن يجب أن أجد عبد القادر، يجب أن أفهم ما يجري، من الضروري أن أنقل إليه طلب زيد ورفاقه.. وتساءلت فيما إذا كان لا يزال يسكن في ذلك البيت، في أبعد مكان من حي الصاخور، خشيت الخروج في جوف الليل، لبثت أنتظر الصباح دون أن تغمض عينايَّ.

* * *

٢١

في أول الفجر حملتني قدماي باتجاه حي الصاخور، سرت وحيداً في غبش شاحب وأنا أعلم أني أغامر بحياتي على طرقات بات القتل فيها حدثاً يمكن أن لا يثير سؤال أحد.. وصلت على دقات قلب تتسارع.. في وسط الصمت الشامل أخذت أطرق الباب بقبضتي وأصيح باسمه، بعد طرقات عديدة ويائسة يظهر عبد القادر، بداية أطل من حافة السطح، ثم هبط الدرجات يفتح قفل الباب، ظهر بكامل ملابسه وبوجه مترب..

– ماذا تريد؟

انعقد لساني وأنا أنظر أمامي إلى جثة قد نبشت لتوّها من قبر، في وسط الوجه المعفر سطعت عينان براقتان تلتمعان بومض خفي، برؤى لا يراها غيره، الواضح أنه لم ينم من الليل لحظة مثلي أنا.. بقينا على الباب الذي سده بقامته، لم ينظر في عيني هذه المرة كعادته، بدا في دنيا أخرى، لا يريد أن يسمع حرفاً مما أقول، ظهرت في حركاته المتقطعة سيماء جنون، فقط وجدته ينطق بكلمات:

– كل ما نريده يجري حتى الآن على ما يرام.. كن على يقين أن الأستاذ ماجد لقي جزاءه الذي يستحق، سأحدثك يوماً عما جرى، الآن لا وقت.

ابتسم وأردف:

– على فكرة!. صاحبك محمود الحمصي، لم يتعبنا، غلام صغير أسند دراجته على الرصيف ودخل.. طفل كان يكفي ليملأ صدره بالرصاص.

ضحك..

– سامحنا هذه المرة، ابحث عن فرصة أخرى!.

ذهلت في أن يكون قد عرف بحكاية نقلي.. تابع يقول:

– على أية حال أنا سأغير سكني.. الأفضل أن لا تأتي مرة أخرى، حتى أن تسأل عني.. سلام.

اختفى وراء الباب شبحاً يقاوم السقوط.. صحت باسمه، كررت النداء، تراجعت يائساً وسرت في طريق العودة..

دخلت في ظلام غرفتي، ثم عبرت إلى ظلام آخر.. رؤية واحدة تتكرر، قطعت نومي ونهضت، جلست ساعة أحدق في الفراغ الأسود، ومثل هذا السواد كان يجول في رأسي، عدت فاستلقيت، تاهت نفسي بين انتباهات الصحو واختلاسات النوم، وجدتني ثانية جسداً ملقى على أرض الشارع، أحرك أعضائي فلا تستجيب، أستسلم، أتمدد بلا حراك، شلل في الجسد وفي الأطراف، العينان فحسب تتحركان، الذهن صاف، قرب الرصيف يمر بي العابرون، قربي وفوق رأسي.. على يميني ويساري، يتحاورون أو يتصايحون، جادون أو ضاحكون.. وأنا أتأمل كل هذا الصخب الممزوج بأصوات السيارات والحافلات، وتهب نسمات، ويضرب وجهي رذاذ مطر حار، أستسلم أكثر، ويتحول الرذاذ إلى مطر داهم.. أسياخ ساخنة لاسعة تضرب وجهي بوخزات، أقاوم الغرق، بعد حين يبرد وجهي وكتفاي ويداي، أحاول أن أتحرك من مكاني، تستجيب بعض أعضائي بثقل فظيع، أنهض قليلاً، أستدير، أميل على جنبي، أتزحزح قليلاً، أحاول الانتقال إلى مكان آخر، بصعوبة أصعد على الرصيف، صار بالإمكان الآن ألا تدوسني عربة بائع الخضار المتقدمة ببطء نحوي.. العربة تنحرف عني وتدوس جسداً ممدداً كان لمديري الأستاذ ماجد. أصحو وأطالع حلمي من

جديد وأتساءل كيف أستطيع الفكاك من أحلامي التي تتكرر!..

في صباح تال لبست على عجل، توجهت إلى المدرسة، دخلت الباحة لأرى المدير الجديد الأستاذ عبسي أمام الطلبة يقف بوجه حالك ويزعق، تحاشيت الاقتراب منه، لكني كنت في مقدمة المعلمين في تحية العلم، وقفت على مرأى من العيون التي أحسستها جميعاً تراقبني، المدير تقدم من منصة الباحة حيث نقف، توجه إلى الحشد الطفلي أمامه بكلمات عن الوطن وأعداء الوطن وأيدي الإجرام.. انطلقت الأكف تصفق من أمامي ومن ورائي، ارتفعت أكثر، وشعرت قليلاً براحة الاطمئنان وأنا أستمع إلى بقايا كلماته الموقعة على اصطفاق الأكف..

وتأتي الخطوة التالية، المدير يصدر أوامره وسط دهشتنا بابتداء ما سماه حملة النظافة، أخذ يجول بين الطلبة، ينقب بعينيه ويشير إلى الرؤوس المقملة، ووراءه مشى الآذن يحمل زجاجة كاز، ويبدأ يصب على رأس كل مقمل ويدعك.. قال الأستاذ عبسي يرمقنا نحن المعلمين باطمئنان:

– هذه خير طريقة لتنقية الرؤوس من القمل، فعلاً أذكر جدتي كانت تفعل ذلك.. ومهمتنا هذه حقيقة أهم من التعليم.. القمل أولاً يا سادة ويأتي التعليم بعدها أو لا يأتي، لا يهم..

الأستاذ زيد المحمود ثانية، يتأملني، يقف إلى جانبي وينتشلني من طقس النظافة وهو يقول:

– ألم تدر! الأمن كله مستنفر يبحث عن صاحبك عبد القادر، خذ حذرك! قد يستدعونك.

قلت بصوت ميت:

– أنا لم أره ولا أعرف عنه شيئاً.

رد:

– كل ظني أنه خلف ما يجري في الأيام الأخيرة، وخاصة في مقتل الأستاذ ماجد.

أسأله:

– هل علمت حقيقة أم مجرد ظن؟

وأسمعه يجيب كأنما من عالم آخر:

– ثق تماماً أن الأجدى أن تدلنا على مكان وجوده!..

تابع زيد حديثه بكلمات لم أسمع منها سوى ما انداح من ذكرى الأمس، الدم المنزلق جدولاً من مؤخرة الشاحنة.. الجثة الساكنة تحت الجرائد على النقالة، وقامة الأستاذ ماجد المستلقية هناك، نصفها على الشارع والنصف الآخر على الرصيف..

عصراً تسحبني قدماي ثانية إلى بيت عبد القادر، أدخل حارته التي يلفها الصمت، أقترب من بابه وأهم بطرقه، أتردد لحظات ثم ألتفت إلى الخلف حيث ينفتح باب قريب، أنظر إلى امرأة تحدق في وجهي، هممت بسؤالها عن جارها عبد القادر، وقبل أن أفعل تصفق الباب بشدة وتختفي خلفه وهي تردد كلمات لم أتبين ما هي، في الوقت الذي علا فيه صوت أحد يقترب:

– قف لا تتحرك!.

ألتفت وأجد مسدساً مشهراً في وجهي وأيادي تقتادني بالركلات..

في فرع الأمن السياسي لا أدري كم عدد الصفعات التي ألهبت وجهي، واللكمات التي ضربت بطني، نزفت شفتي وانكسر ضلع في صدري، لكني بقيت أنكر أي معرفة بعبد القادر، قلت:

– أنا دلال عقاري، ولي مكتب معروف في حي الصاخور، اسألوا من شئتم، كنت أعلم أن بيتاً في الحارة معروض للإيجار، وقد ذهبت إلى هناك لأسأل..

لكنهم لم يصدقوا، تقدم الليل وتناوبوا على ضربي واستجوابي، تهالكت على الأرض فتركوني أهذي، وخيل لي أني غفوت قليلاً، ثم يصفع وجهي جردل ماء وأجر على الأرض من قدم واحدة، يعودون إلى سؤالي مع ركلات تضرب في كل مكان.. وفجأة خطر في بالي اسم النقيب رسلان، نطقت بالاسم فكفوا عن ضربي، سألني المحقق:

– من أين تعرف سيادة النقيب؟

قلت:

– إنه صاحب أبي ويزورنا باستمرار في المكتب العقاري..

وكدت ألفق كلمات أخرى، لولا الظهور السريع للنقيب رسلان في الباب، فاجأني ظهوره ووجهه المتسائل، تعلقت نظراتي به، الواضح أنه تعرف عليَّ، سأل عن سبب إحضاري، أعدت الكلمات التي قلتها طوال الليل. نظر إليَّ بوجه جامد، هز رأسه كأنما يصادق على كلماتي، وأشار إليهم أن يطلقوا سراحي، أدار ظهره وخرج، لأجدَ نفسي بعد قليل عائداً مع غبش الفجر إلى البيت، ساحباً أقدامي المتهالكة وجرحي الذي عاد ينزف.

* * *

٢٢

وقعت على فراشي وغبت عن كل شيء. في المساء المتأخر أصحو وأجلس مذهولاً أفكر كيف استطعت الفكاك منهم في الصباح، تساءلت عما يمكن أن أفعله في الأيام التالية.. في تلك اللحظات أسمع صوت الباب يفتح، أمي تدخل بمفتاحها، تراني مرمياً في الفراش فتزيغ عيناها، تسأل بلوعة:

– أين كنت طوال يوم أمس؟

ثم تضع راحة كفها على جبيني وتصرخ لشدة الحمى التي تحسستها، تسحب خرقة معها تبللها وتضع الكمادات الباردة على رأسي وجبهتي، أشكو من آلام صدري فتخلع ملفحها الشاش وتلفني به.. أحدثها كيف اقتادوني، وتنظر إلى شفتي المشرومة وتبكي.. تمسح نزيزها، تعود فتضمد جرح قدمي، تصر ليلتها أن تنام عندي، وأنا أبدي أني تعافيت وأن الأفضل لها أن تذهب إلى البيت، لا تسمع ما أقول، تخرج من صرتها طعاماً وتطعمني على مهل، تتحرك شفتاها بأدعية خفية.. تغمر قلبي الطمأنينة وأعود فأغيب في نوم عميق.

في الصباح لا أجدها، أمضي الوقت ممدداً، أسمع أذان الظهر فأحاول أن أنهض للصلاة، لحظات تمر وطرقات حادة على الباب، أجر خطواتي وأفتح، فأفاجأ بأحدهم يدفعني في صدري ويقتحم الغرفة، الآخر خلفه يدخل مباشرة إلى الخزانة الوحيدة ويفتحها ويخرج ما بها من كتب.. ورَدَ إلى ذهني أني لم أكن قد جلبت من مكتبة الشيخ أياً من كتب الدين والتصوف، وابترد صدري لهذا الخاطر، التفت إليَّ ينظر في وجهي ويقلب

بين يديه بعض منشورات الحزب الشيوعي التي كانت قد تسربت إليَّ منذ سنوات، ولا أدري كيف ظلت قابعة في زاوية المكتبة مع مجموعة كاملة من أعمال لينين، كانت قد أهديت إليَّ بمناسبة افتتاح مكتبة دار الفجر في شارع القوتلي، مع بعض الكتب في السياسة والأدب بطباعة روسية.. التقطها العسكري وبدأ يتصفح عناوينها حائراً، بعد قليل أخذ يلقي بها الواحد تلو الآخر قذفاً على الجدار المقابل، ألقى بكتب أخرى، نظرت بامتعاض إلى ما يفعل، فهم منها الآخر الواقف بعيداً اعتراضاً ما، تقدم نحوي وسدد لكمة قوية إلى أنفي.. في حمى غضبي، وجدت نفسي أرفع صوتي وأنتصر لشيء عصف بكرامتي وأحسسته خطيراً لا يمكن السكوت عنه.. قلت:

– أنا لا أسمح لك!. تذكّرْ أنني إنسان تربوي..

الآخر نظر ببسمة ساخرة..

– لا.. فعلاً.. أنت قمة التربية والأخلاق.. تربوي وتسمح لنفسك أن تزور المحل العمومي..

اتسعت عيناي وحملقت به، عاد وخفض بصره، وبهدوء محايد، ومن غير أي انفعال رد الآخر:

– يوم كذا.. ساعة كذا..

عاد وابتسم..

– هل نذكر لك أشياء أخرى.. أظن يكفي الآن..

– لكن.. هذه مسائل شخصية!..

رددت..

الآخر ظل يبتسم.. وسأل فجأة:

– أين عبد القادر السالم؟

تلعثمت، لكني عدت وكررت أقوال أول أمس، وأني ذكرتها في إفادتي، وأن النقيب رسلان يعلم كل شيء عني.. الآخر أكملَ ما أقوله باستهزاء:

– ويعلم أيضاً أن عبد القادر معلم معك في نفس المدرسة؟ ومن مريدي سيدك الشيخ جابر.. لماذا لا تريحنا وتقول ذلك!.

رددت:

– أن يكون معي في المدرسة لا يعني أني أعرفه أو لي به علاقة.. ثم إني لم أعد أراه في حلقة الشيخ جابر، أنا أظن أنه انفصل عن الشيخ..

لم يعبأ بكلماتي، التقط بعض الكتب والمقالات المطبوعة على الآلة الكاتبة، حملها ونظر إليَّ في برود وقال:

– لا تظن أن حلقك للحيتك يمكن أن ينجيك!..

ظللت صامتاً، الآخر التفت إلى رفيقه وصاح:

– خذه إلى السيارة..

ها أنا في نظارة التوقيف للمرة الثانية، أمضي ساعات طويلة أنتظر أن أستدعى للتحقيق.. بعد وقت مرير وجوع يقتادني أحدهم إلى غرفة فارغة إلا من طاولة ومصباح في أعلاها، المكان قديم أشبه بثكنة عسكرية من أيام الأتراك.. يطالعني وجه المحقق بنظرة ساخرة محتقنة بالاحتقار، يلقي على الطاولة أمامي إضبارة لا بأس بحجمها، يقول:

– انظر! لم تعد تتسع، في آخر سنتين فحسب تضاعف حجمها كما ترى!.

وكأني كنت أعرف كيف كان حجمها في السابق.

– أهذه الأوراق لك؟..

سأل.

وارتفع من داخلي نسغ من إيمان يسبغ على المشاعر الرضا والتسليم، واندفعت أجيب بلسان شيخي:

– لا يهم أن تجد كتباً أو تقرأ في أوراق.. نحن أساساً لا علاقة لنا بما يجري يا سيدي! نحن أرباب العلم اللدني، نحن المشرعون، كل ما عندنا: قال الله وقال الرسول، نحن أهل الباطن، لا يهمنا من أمر الظاهر شيء، وهذا الذي فعله أولئك نحن منه براء، لا نفعله ولا نقره.

قال المحقق:

– قد يبدو هذا التفريق بينكم وبينهم يقنعك أنت، بل لنقل يريحك، أما نحن فلا فرق عندنا، المساجد كانت أماكن للتدريب، أنت تعلم، ومكانك الحقيقي إذا أردت يجب أن يكون هناك في المقابر، حيث تجلسون كل يوم عصراً، مكانكم المستحق جميعاً هو بطون المقابر، أو في أحسن الحالات أقبية السجون، وهذا حكم الشعب..

قلت ممتعضاً:

– الشعب!.. إذا كنت أنت الحاكم فمن السهل أن تطلب من الشعب ما تريد فتحصل على ما تريد، والنتائج بالتأكيد ستكون مدهشة..

ضرب الطاولة أمامه مغتاظاً، ورمى نحوي منفضة السجائر. لا يبدو أنه يريد أن أرد على ما يقول ولو بحرف، أردف بحقد لا يخفيه وبصوت كأنه الفحيح:

– يا نذل!.. هل يمكن أن تفهمني كيف ترتاد المساجد وتحضر الأذكار، وفي بيتك كتب ومؤلفات الحزب الشيوعي؟

قلت ببرود:

– وماذا في ذلك!..

رد بلؤم:

– فيه الكثير يا قَحْب، وأوله أن ذكياً مثلك بالتأكيد لا يستطيع أن يضللنا..

أقول:

– أنا لا أضلل أحداً، وإذا كنت هنا أو هناك فما ذلك إلا لأعرف، وعلى الرغم من ذلك فأنا فيما يجري لا علاقة لي!. إلا إذا كنت تريد أن تقحمني في قضايا لمجرد الظن..

قاطعني بقوله:

– انسَ كل هذا الهراء، أجبني أين عبد القادر؟ كن مطيعاً وأجب! نحن نعلم أنك منهم، لن يفيدك الإنكار، ثم إن طاعة أولي الأمر كما تعلم مسألة لها جذور في تراثنا الإسلامي، أليس كذلك؟!.

قلت:

– لا أدري لماذا تصر على أن تسمع مني ما يريحك فحسب، إنك لا تعبأ بالحقيقة!. بالنسبة للجماعة قلت لك: أنا مجرد إنسان طارئ على مجالسهم، حتى لا أقول اجتماعاتهم، وعبد القادر مجرد معلم معنا ولا أعلم عنه أكثر مما قلت، وعبد القادر هذا الذي تذكره ليس من إخوان الشيخ!. أو لم يعد من إخوانه إذا أردت الصحيح.. بالنسبة لي.. كل ما هنالك أني أحضر بعض_الأوراد وحلقات الذكر في المسجد، وكما تعلم بعض الدروس على المقابر، ثم إن جماعتنا من المتصوفة، ولا علاقة لهم بالسياسة وبكل ما يجري..

لم أكمل كلامي، عاد ونعتني بالسافل وبكلمات أخرى تحط من شرف أمي، وأضاف:

– في تعاملك مع البشر، أنا أفهم.. لا يمكن إلا أن تترك ليس أقل من عشرين بالمئة نسبة سفالة، أما أنت فأترك لك الثمانين كلها..

وأشار بيده بحركة طرد واندفع خارج الغرفة.. أحد العناصر الذي ظل يلهب وجهي بالصفعات يُنهضني لأغادر، يقودني في ممر طويل معتم، خطوات أخرى وينعطف ثم يدخلني غرفة مضاءة، أنظر مباشرة في المرآة التي ظهرت أمامي لأجد عيوناً أعرفها تحدق بي، صعقت، كانت هي ذاتَها، فتاةَ الحلم، فتاة السينما، تجمدت في المكان وهبط قلبي.. عدت أتأكد، رأيتها تنظر إليَّ ببرود وبالبسمة الغامضة ذاتها..

يطالعني ثانية وجه المحقق من بعيد، ينظر إليَّ ببسمة صفراء، فألتقط أنفاسي، ثم أعود وألتفت نحوها وخيط من عرق مالح ينسدل على وجهي.. يترك العسكري ذراعي، فيما يتقدم المحقق وينتشلني من ذهولي بلكمة في أسفل بطني، وبسؤال عما إذا كانت الفتاة قد أعجبتني. يعود ويبتسم الابتسامة ذاتها، وبصوت بارد يهددني بأن السفالة لها حدود، وبأن أموري قد اقتربت من النهاية..

أكتب إفادتي التي أكرر فيها أقوال البارحة ويطلق سراحي، أخرج، يحتويني الممر، أراها ثانية قبالتي، لم تكترث أقل اكتراث بوجودي، كانت تقف أمام المرآة تسوي شعرها والأحمر على شفتيها.

أخرج في ما بدا لي أنه خلاص عجيب، قل معجزة، لم يفتني ما بها من لطف مخصوص.. أعود إلى البيت، بينما وجه الفتاة لا يغادر رأسي، انغمس في الطريق بذهولي، وبشعور طاغ بأن كل خطوة من خطواتي باتت مرصودة، وعلى الرغم من ذلك ظللت أحاول في الأيام التالية أن أضلل عيوناً لا أراها.. فأنتقل للسكن في حي آخر، في أقصى حارات الحيدرية.. لكني سأجد نفسه أهرب من عيون إلى عيون.. وظلت ذكرى التحقيق هناك تؤرقني، استعيد طعم الصفعات وأذوق دم أسناني.. وتطور الإحساس

بالمراقبة لديَّ إلى الدخول في حالة من هذيان دائم، بعد أن بدأت أسير في الطرقات فأجد نفسي أتلفت يميناً وشمالاً وأنظر إلى الوراء عن أحد ما يتعقبني. في الغفوات القليلة تكرر ما رأيته: كنت وسط حشد من البشر، أحدهم ينقّل عينيه بين آلاف العيون، ثم يقع بنظرة مفترسة على عينيَّ، عينيَّ أنا من بين العيون، عندها يختفي الحشد وأظل أنا أمامه كفريسة تنتظر مصيرها الدامي، أحاول أن أقتلع رجليَّ من الأرض، يجب بأية وسيلة أن أهرب، أخفق في كل مرة، الآخر يقترب، يظل يقترب.. أصحو في تلك اللحظات وأنا أصرخ بصوت ممطوط في ظلام ليلة خالية من النجوم لبعيد لا يأتي: يا أمي ي ي ي..

* * *

٢٣

ظل بكور مراد ملازماً للشيخ حسيب، وكان ما مضى قد أبعدني عن الزاوية أياماً تكفي لتصير العلاقة بينهما أشد قوة وتعلقاً، أحاول وقد عدت إلى الزاوية أن أقف على جانب من أخبار بكور مما فاتني في الأيام الماضية، أحدثه وأسأل عن حالته، لكن بكور لا يجيب ويظل مقطباً، أفاجأ بهزاله وجمود عينيه، فيما يتطلع الشيخ حسيب في وجهي ويرد بأن الفرج قريب.

ظل الشيخ حسيب يتودد إلى بكور ويداري خوفه الدائم، كمن يشرف على رعاية مريض يمر بنقاهة لا تنتهي، يخصه بكل الأحاديث والأخبار وآخر أحداث الصدام الدامي، يرتجف بكور قليلاً ويصفَرُّ ثم يطلب تغيير الموضوع، لا يسمع كلمات الشيخ حسيب التالية، يسهم في الفراغ، سرعان ما ينهض ويغادر وهو يقول إنه سيعود بعد قليل أو في آخر الليل..

يعود بكور ويحمل أخباراً لا يريد أن يجهر بها، بل يمضي الليل بطوله يفضي لبيت سره بهمس أشبه بلهاث خائف.. في لحظة ما، وبعد ليال، استطعت أن أعلم أن محور حديث الشيخ حسيب وبكور كان حول إبراهيم وجماعته.

أيام تمر ويصعقنا مصطفى البيج أحد جماعة إبراهيم بدخوله المفاجئ زاوية الشيخ حسيب، يتوجه بلا سلام إلى بكور، ووسط ذهولنا يمسك بلحيته ويخض وجهه مقسماً له أنه لن ينجو بفعلته، وأن الأيام قادمة.. يخرج دون أن يلتفت إلى أحد، يبتعد وهو يتوعد، بكور يترمد ساكناً

ويرفض أن يجيب على تساؤل الشيخ حسيب الملح حول ما جرى وسببه، يدعنا للحيرة ويهرول خلف مصطفى، أتبادل النظرات المستفهمة مع الشيخ حسيب الذي يهز رأسه ويقول بكرب:

– دفع الله ما كان أعظم!..

ويعود بكور في أول المساء بعينين امتلأتا بالدمع.. لم يكن أحد يدري من أين علم يقيناً أن اسمه أصبح على القائمة السوداء.. يقول بصوت يرتجف:

– لن أستطيع الفكاك، أيامي وربما ساعاتي أصبحت معدودة..

يهدئه الشيخ حسيب ويدعوه للجلوس وهو يقول مداعباً:

– أنت في حضرة حسيب فلا تخف..

وكان الأجدى بالشيخ حسيب أن يطمئن نفسه، ففي لحظات راعبة صار كل ما حولنا يحفه الخوف والإحساس بالخطر القريب، بدت كلمات بكور متقطعة مليئة بالإنكار، يكرر عبارات بعينها، يرفض أن يكون مخبراً لهم، ثم ينكر بشدة أن يكون قد أوصل إليهم أية معلومات أو تقارير مكتوبة، في النهاية يخرج ورقة الأسماء التي طالبوه بمعلومات عن أصحابها، ويمزقها أمام عيوننا، يقول:

– مصطفى هذا لا يريد أن يفهم.. هو يصر على اتهامي.. يا ربي كيف أفهمه؟!..

ومن جوف العتمة التمع خداه بالدموع، تبدل في لحظات إلى بكور آخر.. هدّأناه، ظل جسده يرتجف، تكلم عن أشياء ووقائع، ذكر أشخاصاً وشتم آخرين، عدنا لا نفهم من أقواله شيئاً، لا نجد رابطاً فيما يقوله.. أمضى بكور ما تبقى من الليل ذابل العينين أشبه بالمخمور، يتنبه قليلاً فيرد اتهامات تتساقط في رأسه.. يدخن ويرتجف، الشيخ حسيب

قبل أن يذهب للنوم قرأ له وحصَّنه بالمعوذات، أنا بقيت أساهره، في الصباح كانت علبة سكائره قد فرغت، لم أدر من أين أحصل له على دخان في مثل هذا الوقت، أخذ بكور يهيج وبكى، اهتز جسده جميعاً، اختلج فمه وهو يلعن ويسب، ذكر اسم زوجته مرات، وأسماء أخريات معها في السجن أو قريبات أو مريدات.. بعد قليل هدأ وأصبح بالإمكان أن نخرج، قلت أواسيه:

– يا بكور يا عيني أنت جائع ومنهك وبحاجة إلى سكائر، ما رأيك أن نذهب إلى السوق ونعود بها وببعض الطعام، أنت تحتاج إلى طعام وإلى شراب، تعال.. هيا!.

أنهضته فاستكان كطفل، أمسكت بيده وسرت به، قطعنا حارات ووصلنا الفرن، وفاجأنا الزحام، تراجع بكور يريد العودة، هدَّأته ثم أوقفته جانباً وقلت:

– انتظر هنا، لا تتحرك!.

اندسست بين الأكتاف، وأفلحت بشراء كيلو واحد من الخبز، وكخلق الله الآخرين، مددت الأرغفة الساخنة على الأرض الرطبة، وشاهدت الأبخرة تتصاعد منها، وانتبهت في تلك اللحظات إلى بكور وهو يتأمل خمسة الأرغفة بعينين مفتوحتين على اتساعهما، ودون خلق الله الآخرين تهالك بجانبها، وأخرج علبة كبريت من جيب صدره، كنت أعلم أن سكائره قد نفدت، قلت له:

– انتظرْ سأجلب لك علبة دخان..

لكن بكور فاجأني وهو يشعل عود ثقاب، وفي لحظة مخاتلة قرَّبه بإصرار من أطراف ثيابه، وفي الحال سطع لسان من النار بدأ يصعد حتى كتفه، صرخت وضربت بيدي لسان اللهب الذي لم ينطفئ، تبدأ النار تتراقص

بجانب الأبخرة المتصاعدة من الخبز الساخن، صاح المتجمعون أمام الفرن: الله أكبر، من الجهة الأخرى ركض أحد ما بيده إبريق ماء، سفحه على بكور المحترق، انطفأت النار وظل الدخان ينسحب من الثياب، بكور يغمى وسط الرائحة الخانقة، أنا ألهث بقربه زائغاً، أسأله لماذا فعل هكذا بنفسه!.. أنهضَه أحدهم ونظر في عينيه المحمرتين، تأكد أن الجسم ظل سليماً، أبعد المتجمعين، عاد بكور وتهاوى إلى الأرض ثقيلاً ومبللاً.. قفز الخباز من فرنه، مسح وجهه بيديه كأنه يريد أن يصحو من دوار، ثم حوقل وقال:

– هل تريد أن تبلينا عند الصباح؟!

قفز إلى الفرن وعاد سريعاً حاملاً أرغفة خمسة وانحنى على بكور، طيب خاطره بأن باس رأسه، ربت على كتفه المحترق، ووضع في حضنه خمسة أرغفة جديدة عوضاً عن تلك التي ابتلت.. أنهضته ثانية وحملت الأرغفة وسحبته، لم يخطر في بالي ثانية أن أمدد الخبز قليلاً ليبرد.. ابتعدنا خطوات وسمعنا أحدهم يقول:

– ابن الحرام كان سيموت كافراً.

عدنا إلى المسجد، استقبلنا الشيخ حسيب مذهولاً وهو ينظر إلى شكلنا ويتساءل عما جرى، أخبرته بكلمات، استلقى بكور على الأرض وراح يهذي، يغرب بعينيه ويبوح بأشياء كالأطفال، يسأل أين تكون زوجته الآن.. خلع الشيخ عنه أشلاء قميصه المحترق وغطاه فغفا وغاص بعدها في نوم طويل صحا منه بعد العشاء، عينان غائرتان داكنتان، ووجه مصفر على رقبة نحيلة، أعدَّ الشيخ حسيب بعض الطعام، دعاه ليأكل، لم ينظر إليه، ورفض أن ينطق بحرف، حاول الشيخ حسيب أن يفهم منه سبباً يدفعه ليفعل ما فعل.. كيف يحاول شاب مثله إحراق نفسه وإغضاب الله.. لم

يستجب بكور لأي كلام، رمق الشيخَ بنظرات يائسة، تناولت أنا والشيخ حسيب بعض لقيمات ورفض هو أن يأكل، ألح عليه الشيخ، حاول أن يصر شيئاً في قطعة خبز، لم يمد يده ولم يفتح فمه، نهض الشيخ حسيب وأعد كأس بابونج، رشف منه بعد إلحاح الشيخ رشفة واحدة، ثم اندفع إلى العتبة وتقيأ، وبدأ يرسل آهات طويلة راجفة انتهت بالبكاء..

أصبح بكور أمامنا عينين محمرتين تفيضان كأنما بالدم لا بالدموع، طلب سكائر بإلحاح، الشيخ حسيب غاب قليلاً وعاد بعلبة سكائر، أشعل له واحدة، وبيده غسل وجهه، مدده بقربه، تعوذ بالله، مسح على صدره ورأسه وقرأ شيئاً، توقف بكور عن البكاء وظل يئن، حوقل الشيخ وغطاه ببطانية.. تأخر الليل وكاد الصبح يطلع، الشيخ حسيب قال:

– دعه ينام، أنت لا تدري هذا حكايته حكاية، لا بد أن أفهم كل شيء غداً، سآخذ أنا رقدة ثم سأقوم لأذان الفجر..

كان الشيخ حسيب يديم التهجد قبل الفجر، وكنت أرقبه.. لكني ليلتها ارتميت على الحشية المقابلة منهكاً، أغمضت عينيَّ وأشلاء من أحلام جعلتني بين النوم والصحو، حتى كان الصوت الذي زلزل الزاوية ومزق سكون الليل.. نهضت فزعاً لأرتطم بالشيخ حسيب، هُرعت يدي إلى الضوء، وجدنا في الحال بكور مستلقياً حيث هو، وتحت رأسه وسادة من دم.. ركضنا في اتجاهين نمد أبصارنا في الليل في محاولة لتعقب الفاعل، عدنا في الحال ونحن ندرك خطر ما نفعل، اقتربنا من دمائه الحارة وجسده الهامد، حركه الشيخ حسيب فاصطدم بحقيقة موته، جأر بلفظ الجلالة عالياً وبكى، أنا ذهلت وتاهت عيناي بين دموع الشيخ ودماء بكور.. لحظات وارتددت إلى صحوي، يجب ألا أكون هنا. أفهمت الشيخ حسيب، فهم الرجل وقال:

– اذهب أنت!.

خرجنا معاً. شق الشيخ حسيب دربه إلى محرس كرم الجبل، وأنا أسرعت إلى جهة الكروم صوب باب الله.

وصلت البيت مع طلوع الشمس، تهالكت على الفراش المغبر كالقتيل.. وإلى جانبي كانت الدماء، ويدي أسحبها من الدماء، وشعر أسود أمسح عنه الدماء فيعود ويبتل، سمعت أنيناً يرتفع ثم يخفت، صحوت فزعاً يبللني عرقي.. تقدم الصباح بطيئاً، لم أستطع المكث في البيت، قفزت وعدت إلى المسجد.. هناك شاهدت جموع الناس محتشدة أمام بابه الصغير، من الرصيف المقابل مررت حذراً، عدت أتابع ما جرى.. كانت الشرطة حول المسجد والدماء في الداخل، الشيخ حسيب رمقني من الطرف الآخر، تقدم بعدها نحوي وقال بحزن:

– هم ينتظرون الطبيب الشرعي وحضور المحقق.

بقيت صامتاً، لم أجد كلمات أقولها، تحركت مبتعداً عن المكان، طفت قليلاً في الحارات المجاورة ثم عدت، ومن على بعد يسمح بمراقبة ما يجري، وقفت لأرى سيدي الشيخ جابر يصل إلى الجموع متقدماً بعض الإخوان، وأفاجأ في تلك اللحظة بالشرطة تقتاد الشيخ حسيب، الشيخ جابر يظل صامتاً ينظر، أحدهم يدفع بظهر حسيب المحني ليصعد سيارة الشرطة التي تطير به خارجة من الزحام والغبار.

كان الطبيب الشرعي قد ترك الجثة بعد السماح بالدفن، رأيت أم بكور تنهار ويسندونها، ظلت تصيح وتكرر:

– بكير لسه على اللحاق بأبيك..

أخوته حاولوا جر أمهم خارج المسجد، استماتت هي في تقبيل رأسه، صبغت شاش ملفحها الأبيض بدمه.

ظل الشيخ جابر واجماً وعيناه تنظران إلى الفراغ. سألوه:

– ماذا نفعل؟

فكر قليلاً ثم ردد مرات وهو ينقل بصره فينا:

– بشّر القاتل بالقتل..

ثم تابع بكلمات أشبه باليقين:

– من تعرض للسلطان أرداه، وعلى كل حال ليس لنا إلا أن نردد قول النبي عليه الصلاة والسلام: «من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب». غسلوه هنا، ولتخرج الجنازة من المسجد.

صلينا الظهر وأتبعناه بصلاة على بكور، ثم حملناه إلى ترابه.. لم يقبل الشيخ التعازي في المقبرة كما هي العادة، قفل في الحال راجعاً إلى بيته، اضطرب الإخوان المتجمعون حول المسجد وفي داخله، امتلأت الحارة المفضية إلى بيت الشيخ بمن وفد يدفعه الفضول والتساؤل، انتظرنا الشيخ طويلاً، رابطنا أمام بيته.. بعد ساعات خرج، تأملنا لحظات كمن فوجئ بهذا الحشد، ثم مشى أمامنا إلى المقبرة وتبعناه، قصد قبر بكور، جلسنا حوله على القبور نقرأ الفاتحة وقصار السور، وأتبع الشيخ ذلك بالدعاء. بعد قليل لاح لنا الشيخ حسيب، ظهر في باب المقبرة قادماً إلينا، وصل إلى الشيخ جابر وقبَّل يده، قال الشيخ في الحال:

– هات ما عندك.

قال حسيب:

– محنة يا سيدي محنة.. ظللت أربع ساعات في نيابة أمن الدولة بين سين وجيم، وكل التهمة أني آويته في المسجد، قلت للمحقق: يا سيدي أسألك بالله أن ترحم شيبتي.. هذا بيت الله ينام فيه من يشاء، ثم قل لي برحمة أجدادك! إذا زارك ضيف ورغب في النوم ليلتها هل ترفض أن تؤويه، أسألك برحمة الغوالي! فكيف بي أنا أن أرفض نوم عبد من عباد

الله في بيت من بيوت الله؟!.. هنا يا شيخي يبدو أنها فرجت، شاهدت لأول مرة أسنانه المبتسمة. قال اذهب. إذا أردناك بعثنا في طلبك. دعوت له: الله يعلي جاهك ومقامك، وبصمت على أوراق المحقق، وخرجت.

نظر الشيخ نحوي، لاحت على طرف فمه ابتسامة غامضة، وردد كلمات من سورة البقرة سمعت منها: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون.» صدق الله العظيم.

نهض الشيخ وسار فتبعناه إلى المسجد، كان الشيخ حسيب قد سبق الجميع فأذن للمغرب، وصلنا وقت الصلاة، ووجدنا القاعة القبلية موحشة مسكونة بالدم والموت، وفيها جلس الشيخ جابر يتقبل التعازي ببكور، فيما ارتفع صوت الشيخ حيدر يقرأ آيات من القرآن على روحه بتلاوة أقرب إلى البكاء.

في ليل الزاوية استبد بنا الأرق، كان الإخوان قد انفضوا بينما استبقاني الشيخ حسيب بإشارة من عينيه، كان قد أوعز إليَّ أن أغادر المسجد دفعاً لأية شبهة، لكنه تجاهل ما قال في ظل وحشة أحسسناها معاً في تلك الليلة اليتيمة كما سماها. وبيد ترتجف دفع كأس البابونج نحوي، واستقرت عيناه في عينيَّ طويلاً، أدركت أن خلف نظراته البعيدة كلاماً كثيراً. عاد وتطلع هذه المرة بنظرات تنم عن ضياع، ثم قال:

– أتدري!. أنا حائر في دم بكور.. لم أستطع أن أصل إلى يقين في ما إذا كانت يده ملوثة أم لا!.

وهاهو يعود في ليل العزاء ليسرد على مسامعي ما كنت سمعته مرات عن قصة التقارير المزعومة وحقيقة التهم التي واجهه بها مصطفى البيج بالأمس.. ثم يضيف:

– على أية حال، الفتنة كبيرة.. أنت لست وحدك يا بكور! سبقك كثيرون..

وبكى بحرقة والتياع، تأملت لحظات في هيئته المهدمة، في ضعفه وحزنه، تابع يقول:

– أتصوره بيننا الآن.. ولكن أنت تعلم يا شيخ مطيع، فمن جانبه حاول أن ينهي المسألة على باب الفرن.. ترى بم كان يفكر؟.. ما الذي دفعه ليفعل ما فعل؟ فعلاً الأمر محير.. الذي يحزنني أنه رحل ومعه سره.. حكاية قتله هنا في الزاوية ستجعلني أجن..

وعاد يبكي كطفل..

الحقيقة أن حادثة مقتل بكور كانت قد هزت الشيخ حسيب من الأعماق، على الرغم من أنها وسط كل هذا القتل مرت مروراً عابراً، بل بدت أشبه بالصوت التائه في الليل للرصاصة التي قتلته. لم يعد أحد يتناول سيرته أو حتى يأتي على ذكره.. أما زوجته التي ظلت تلح على مطالبته بالطلاق وهي داخل السجن، فقد قيل بعد أن أتاها نبأ قتله إنها أطلقت زفرة طويلة أتبعتها بزغرودة لم تكن تتناسب مع شخصها الوقور كداعية دينية وقيادية، بل إنها أقسمت لكبرى مريداتها، أنها لو كانت في الخارج ساعة مقتله لأصرت أن تحتجز صالة دار الأفراح الأشهر في حلب لإقامة الأعراس، لتقبل التهاني لا التعازي في أمرين: خلاص زوجها من حياته وخلاصها منه. وحده الشيخ حسيب على عادته ظل يأتي بحكايا لا تنتهي عن بكور وسره الذي أخذه معه.

* * *

٢٤

في أول عطلة الصيف كنت قد هجرت البيت وقررت ألا أعود إليه، المأوى الأرحب والحضن الرحيم كان قرب الحضرة، وبرفقة الشيخ حسيب، الذي سبق أن دعاني مرات للإقامة معه في الزاوية، وكان الشيخ جابر نفسه صاحب الفكرة، قال يومها:

– أحببنا أن تكون بيننا فننهل من بركاتك.

غمرتني كلماته بالفضل، الشيخ حسيب رحب بقدومي وطلب أن آتي بأشيائي لأقيم معه من أجل خاطر وعيون جدي الأكبر الشيخ نوّار العبّادي..

كنت قد حدثت الشيخ حسيب بما حصل لي في التحقيق على مسمع من بكور الذي ظل يهز رأسه شأن العالِم بكل لحظات الرعب التي واجهتها هناك.. وجاءت كلمات الشيخ حسيب بلسماً لفزعي، قال:

– لن يستدعوك مرة أخرى ما داموا قد أطلقوا سراحك، أنت عندهم الآن لا تعرف أكثر مما أدليت به، دع ظنونك جانباً وسلم أمرك إلى الله.

في تلك الليلة ظل بكور صامتاً بوجهه المتجهم، فيما أدخلت كلمات حسيب الطمأنينة على قلبي، فصليت بعض الركعات شكراً لله، وغططت في نوم عميق لم أذق مثل طعمه منذ شهور.

كان قد لفت نظري في الأيام التي سبقت شاب بالملابس العسكرية وبالفلد الخاكي الطويل يلبسه على الرغم من حلول الصيف، شاهدته أول

مرة في المقبرة عصراً، ثم ظهر مرات أخرى في بعض حلقات الذكر والختم، إلى أن ضمتنا الزاوية ذات مساء، فأثارني وجوده، وهرعت إلى الشيخ حسيب أسأل.. الشيخ استغرب السؤال، رد ببساطة:

– هذا إبراهيم ألا تعرفه! تعال يا إبراهيم!.

ناداه. نهض إبراهيم واقترب منا، قدمه لي بقوله:

– إبراهيم حمّاد، عسكري يقضي خدمته الإلزامية.. أراد مثلنا أن يكون بيت الله بيته، هو يحل بيننا في الإجازات، أرجو أن يفك الله أسره ويفرح قلبه.

بدا إبراهيم قليل الكلام متقشفاً زاهداً في أي حديث يسمعه يدور بيننا، بل عزف حتى عن زيارة أهله في إحدى قرى تل الضمان كما حدثني الشيخ حسيب.. كان كأنما ينشغل على الدوام بأمر ما يجعله غائباً عما حوله، ويرسم على وجهه سمة صريحة من التعالي، فكرت في أن يكون له علاقة بما جرى وما يجري، حدثت الشيخ حسيب بظنوني، قال بدهشة:

– أستبعد ذلك، ربما.. لا أدري!.

تمر شهور أصير فيها ركناً من أركان الزاوية مع الآخر بكور، ويكللنا معاً الشيخ حسيب بعطفه، كنت قد هجرت بيتي، وأقلعت عن التفكير في الانتقال إلى المركز، لكن إبراهيم بظهوره المفاجئ في الزاوية بدأ يحرك شيئاً ما في داخلي، وقد صار بسلوكه المغاير يشكل تحدياً لي، أنا الخانع المتقاعس عن أي فعل، كانت أية كلمات يسمعها عما يجري لا تثيره، لا يفيد بشيء ولا يعلق، ربما يشارك أحياناً في حوار مقتصد، يحدد أهدافه، يبدي في أي نقاش حزماً لا تراجع عنه، يرمق بكوراً باستهانة، لكنه من ناحية أخرى بدأ مرة بعد مرة يأنس بوجودي وينفرد بالتحدث إليَّ، يساهرني، أحاوره في بعض ما أقرأ.. لا يبدو على أية حال أن قراءة الكتب

تشغله، أو أن ما أطالعه أنا يثير اهتمامه، بل ظل منشغلاً فيما لا أعلم، وبقيت أراه متسلحاً بثقة في النفس لا أمتلكها، يتابع خطواته الواثقة على درب يلفها الغموض كشخصه، طريق لا أدري أين ستفضي به.

فيما بعد، وأثناء إجازاته التي بدأت تكثر، كان يتغيب ساعات عن الزاوية ثم يعود منهكاً ومعفراً، فيأكل لقيمات مما أعده الشيخ حسيب، ويستلقي إلى وقت الفجر لينهض للصلاة أو للسفر. والواضح الآن أنه قد بدأ يرفض سيرة حياته السابقة فيما يخص علاقته بالشيخ جابر وطريقته، هذا ما بدا في سلوكه وكلماته.. قال مرة بكل هذه الثقة النابعة من عينيه:

– ما عاد يهم أن تكون حيث الكلمات بل في مكان الفعل.

أصبح يتحاشى معظم المريدين وحلقة الشيخ، لم تربطه بعبد القادر وجماعته أية صلة، أو هذا ما بدا، فيما أظهر نفوراً خاصاً من بكور، الأمر الذي وجدت فيه حذراً غير مبرر.. بدا إبراهيم في النهاية كمن يتنكر لسلوكه الذي كان وعلاقاته، وأخذ يستضيف في الزاوية وجوهاً غريبة، ينفرد بهم في طرف من أطراف المسجد أو في المكتبة، فيما يدور حديث خافت لا تسمع منه إلا أصوات الهمس. غدت الزاوية بعد حين مجرد مكان يأوي إبراهيم إليه، هذا ما لاحظه الشيخ حسيب وما حدثني به، وهذا ما دفع ببكور إلى أن يشير مرات إلى خطره القريب، وإلى مسؤوليتنا جميعاً في نسج خيوط هذا الخطر.

من جانبي حاولت أن أدخل إلى طويته مرة، فلجأ إلى التلميح عبر كلمات موجزة، فهمت منها أنه بات يشعر يقيناً بدخوله في مخاض تدفعه إليه مشيئة الله، وأنه قد بدأ يشهد عهداً جديداً في الدعوة.. أثارتني كلمة (الدعوة) فلم تكن قد وردت في أي من أحاديثه السابقة، وجدت فيها الخيط الذي أرشدني إلى ما تاه عني.. ومعها وبعدها، أخذت ألاحظ كيف

بدأ سلوكه يتغير، فحتى جلسات الشيخ جابر على القبور، لاحظت كيف أنه لم يعد يعبأ بها، فهو إما أن يتخلف عن المجيء أو يغادر الحلقة في ختم العشية منسلاً في الظلام ليعود قبيل صلاة الفجر أو لا يعود.. وفي كل ما حصل كان الشيخ حسيب الأكثر معرفة به ودخولاً في أسراره، ولدى سؤالي إياه عن أطوار إبراهيم التي بدأت تثير في كل من عرفه التساؤل وربما النفور، بدا متحفظاً، وفي الوقت ذاته كأنما يستثقل حَمْلَ سر خطير، وقد علمني أن الإلحاح طريق يدفعه ليفضي بما يعلم، ففعلت، فأخذ يسر لي همساً وبتردد أول الأمر، ليصل إلى المفيد، وهو أن إبراهيم قد أصبح المسؤول العسكري في تنظيم الدعوة، وأننا يجب أن نقف في صفه وندعم فعله بكل ما أوتينا، فعلى مثله تعقد الآمال في مثل هذه الظروف، لأنه في حقيقة الأمر يؤدي أمانة عجزْنا جميعاً عن أدائها، أما هو ففعل، فلا أقل من أن نسانده ونقدم أرواحنا فداءً له إذا لزم، وأن الساعة قد حانت لأن نؤدي ما علينا من حق للدعوة ورجالها.. أضاف الشيخ حسيب أن إبراهيم كان قد أخفى منذ شهور من مكتب الضابط المكلف بحراسته أوراقاً وكتباً رسمية وأوامر خطيرة، ثم أحرقها وألقى رمادها في مياه بردى، وأتلف معها ملفات ضرب عليها خاتم (سري للغاية). شك الضابط به، وفتح معه تحقيقاً مطولاً لم يغلق في أي مرة، ظل يدعوه ويسأله..

في أحد الصباحات الباكرة يُطرَقُ باب الزاوية، أصحو وأفتح فأفاجَأ بإبراهيم شبحاً يقف أمامي بلباسه العسكري وسلاحه الفردي وبوجه شاحب فقد دماءه.. ويخبرني بعبارة واحدة:

– شكلت فرار.

حاولت أن أستمع منه تفاصيل ما جرى، لكنه يتجاهل أسئلتي ويبحث بعينيه عن الشيخ حسيب الذي لم يكن قد بات ليلته في الزاوية،

ويؤجل الكلام، فيما يطلب إليَّ أن أتركه يستريح من سفر طويل.. وهناك في قاطع الزاوية يستلقي كحطبة مرمية ويغمض عينيه.

قبيل الظهر ينهض من نومه معتكر المزاج، يعود الشيخ حسيب فيفاجأ بوجوده، يعانقه ثم ينفرد به لحظات، بكور يعد الفطور، يطول الحديث الخافت بين إبراهيم والشيخ حسيب، نجتمع على سفرة الفطور، كان إبراهيم يأكل بلا شهية، وبدا كئيباً لا يريد أن يخرج من صمته، وشعرت أن وجود بكور على الطعام قد زاده حذراً وصمتاً، وكنت قد لاحظت أن ما بين إبراهيم والشيخ حسيب من علاقة أعمق من تلك التي بيني وبين إبراهيم رغم تقارب السن، فهو لم يشأ أن يصرح لي بشيء مما أقلقني في الفجر، لكني فهمت فيما بعد من الشيخ حسيب أن إبراهيم وصل إلى الانهيار تحت التعذيب دون أن يعترف بشيء، وكانت فرصته في الليل أن يتسلل في الظلام هارباً من قطعته العسكرية، التي أقسم أنه لن يعود إليها مهما كلفه ذلك..

أصبح إبراهيم يتخفى، وبالغ في التكتم على مكان وجوده، أوصى بأن لا يذكر أحد أنه يعرفه أو رآه، حتى أمه وأبوه استدلا بجهد على مكانه في الزاوية، فزاراه مرات وحملا إليه طعاماً مع دموع وحسرات فاضت من عيني أمه، بعد أن علمت بخطر فراره من الجيش، على أثر بطاقات البحث المتكررة التي بلغها مختار القرية لأبيه. بعد أيام يصرح للشيخ حسيب أنه دخل الآن في طريق اللا عودة، فالواجب يقضي بأن ينتقل إلى مرحلة المقاومة باليد، لأنه لا يريد بأية حال أن ينتسب إلى أضعف الإيمان، مقاوماً بقلبه فحسب، ثم إن اللسان كما بات يرى ويعتقد، لم يعد يجدي نفعاً، فكلماته أصبحت تشكل عبئاً لا يحتمل عليه، في البيت وفي الشارع، ومع الصحب، ثم في الجيش بعد أن حصل ما حصل.. وما

دام الأمر كذلك، فهو لن يقبل بأقل من مقاومة ما يراه من منكر بيده..

والحقيقة أني علمت ما علمت عن إبراهيم، وحتى عن سبب فراره في تلك الليلة، من أحاديث الشيخ حسيب، أما بحضوري فكان يبدي الحذر، ولا سيما إذا كان بكور موجوداً، فنتبادل بعض الكلمات الحذرة، ثم يلفنا الصمت، وحتى هذه اللقاءات ما كانت تستمر أكثر من دقائق، ينهض إبراهيم بعدها فيغادر المسجد، يغيب ساعات ثم يعود، يتحاشى النظر إلينا، ويدخل المكتبة فيغرق في صفحات بعينها من كتب الدعوة حتى الفجر، حيث يصلي ويستلقي في نوم لا يطول.

منذ ذلك الحين أصبح واضحاً كل ما في سلوك إبراهيم وأفكاره، أما إعلانه الصريح لي فيما بعد بانتمائه لجماعة الإخوان المسلمين، الجناح المسلح، فلم يأت مفاجئاً، ولكن الحاصل أني عدت أفكر بمقتل بكور الذي ظل علامة استفهام كبيرة، وبقيت أتساءل مرات ومعي الشيخ حسيب عمن يكون وراءه.. لكني لأمرٍ ما أيقنت أن الخوض في السؤال والبحث سيجرني إلى مصير لا يقل فداحة عما انتهى إليه بكور، فاكتفيت مترعاً بالفضل بما خصني به سيدي الشيخ جابر من بركات، وبإشاراته وكلماته التي تحتفي بلا مواربة بسلوك القول، بعمل اللسان لا بعمل اليد. وكان عبد القادر وجماعته قد كفوا بعد فترة عن ملاحقتي في الزاوية أو في مقهى السعد، لا سيما بعد أن وصلتهم أخبار ما خصني الشيخ به من فضل، أقله خروجي معه في ضحى جامع العثمانية. لكن هذا الافتراق عنهم لم يؤثر في علاقتي بإبراهيم، فرغم حذره وتباعد ما بيننا من أفكار بقيت الصديق المخلص له، وتوطدت علاقتي به، وأصبحت في سري أقره على كل ما يفكر به وما يمكن أن يفعله، وأعجَبُ بيني وبين نفسي لماذا لا يدعوني صراحة إلى الانضمام إلى الجماعة!

أصرح له يوماً بما يدور في رأسي من نزوع فيصمت إبراهيم قليلاً ليبدو أنه فوجئ بما يسمع، ثم يشتد عبوسه كأنما يستنكر كلماتتي، وأفهم منه بكل تحديد وإيجاز ما معناه أن الوقت ليس في صالحنا جميعاً، ويكفي الجماعة الآن العناية التي أبذلها أنا والشيخ حسيب به.. وهذا من أعظم الفعل وجزانا الله خيراً، ثم إن لكلّ دورَه في هذا المخاض، والله ولي الجميع..

جعلتني كلماته أشعر بفائض من الاحترام له، فلم أكن أتصور أن يزهد إبراهيم في أحد ما يبدي استعداده للانضمام إلى الجماعة، وخاصة في مثل هذا المخاض.

بعد كل هذه الأيام التي تكدست ورائي أعود بذاكرتي الآن وأستحضر صورة إبراهيم، فتبدو لي مجسمة بارزة القسمات، تكاد تنطق بمعاني الحزم والتصميم، كان قد شدني بعينيه السوداوين كأنما يخفي بهما سراً، تقربت منه في ذلك الحين بما يكفي لأعرف أكثر عن أفكاره وسلوكه، يدفعني في ذلك دفقة حب بدأت أشعر بها نحوه، حب لسيرته وسلوكه، وقد بدا لي كل ما يقوم به سديداً مبجلاً مغفوراً، على الرغم مما قد يشوبه من مشاكسة وعناد وربما سوء أدب واستعلاء.. وبت أحرص أن أداري مزاجه النزق وضيقه بل نفاد روحه. بعد مدة أخذ حذره يشتد، وصار ينفر من كل شيء، تنظر في عينيه فتجدهما تبوحان بقلق لا يستطيع إخفاءه، ربما كان الوحيد الذي لم يعبأ بنظراتي، وما أرهقتني نظراته، بل أكاد أجزم أنه لم يكن ليوجه إليَّ أيّة نظرات، كان مشغولاً بالفراغ ساهماً فيه أكثر وقته، مرات ومرات حاولت أن أحاوره فأقف على بعض ما يشغله، كان يلجأ إلى التلميح لا التصريح، على نحو أجد فيه كيف أخذ يزداد غموضاً وخطراً.. وغالباً ما كان يقطع حديثي أو حديث الشيخ حسيب

بالنهوض المفاجئ والمغادرة دون سلام.. حتى كلمات المواعظ التي كان يفيض بها الشيخ حسيب صارت تشكل عبئاً لا يحتمل.. كنت عندما التقط انطباعاته عن أي حديث يدور أراه متلبساً بالامتعاض.

وبقي في ذهني إلحاح يدفعني لأتحين الفرصة وأسأله عن بكور ومقتله، لكنني لم أجد أي مناسبة أو لنقل جرأة تجعلني أقفز إلى مثل هذا السؤال، أكان السبب أنه لم يسأل عما حدث رغم شيوع الخبر؟ أو أن الشيخ حسيب عندما حدثه بمقتل بكور في ذلك اليوم لم يعلق بكلمة واحدة، وغادر الزاوية دون أن يتم الشيخ كلامه؟.. حتى الشيخ حسيب لم يتجرأ فيما بعد كما قال لي أن يفاتحه في الموضوع، لأنه أنكر مرة معرفته بمصطفى البيج وقد ورد ذكره بشكل عابر.. وعلى هذا النحو بات وجوده في الزاوية مقلقاً ويشعرنا بالخطر، كان يتحرك دون توقع، يدخن بعصبية وتتحرك عيناه كأنما تلاحقان أفكاره، ينشغل عنا بكتب وأوراق يخفيها في صندوقه المقفل، ثم يغادرنا دون إذن أو حتى سلام.. أحاول مرات أن أطلعه على جانب من همومي ومعاناتي، عن تعليمي في مدارس الأطراف كل هذه السنوات، لم يكن يبدي حماسة فيها أقلُّ مشاركة بما أقوله وأعانيه، حتى عندما طرت إلى الزاوية في يوم الوعد بالنقل الذي مناني به النقيب رسلان، رأى كيف هنأني الشيخ حسيب وفرح من قلبه وهو يعانقني، أما هو فلم يُبدِ أي انفعال، بل على العكس من ذلك قاطع فرحتنا بالنهوض والمغادرة، لكنني ظللت ألتمس له الأعذار، وأرى ضيقه أكبر من أن يشبه أو يتساوى بالحالة المزمنة لكن المستقرة التي كنت أعيشها..

كان الشيخ جابر بين حين وآخر يزورنا في الزاوية بعيد أوقات الصلاة، نهب للقائه وجني الفضائل والبركات، إبراهيم لم يكن يبدي أي احتفاء يذكر بالشيخ، الشيخ جابر من طرفه كان كأنما لا يريد أن يكترث

هو الآخر بوجـوده.. كـان يسـارع إلى أخـذي في الأحضـان، يقبـل رأسـي ويباركني قبل أن أستطيع اختطاف يده وتقبيلها.. الشـيخ حسـيب ينظـر إليَّ بإكبار ويزداد تلطفاً، إبراهيم ينظر بصـمت مبـدياً لا مبـالاة كعادتـه، حتى فاجأني مرة في إحدى سهرات الزاوية بسؤال بدا لي غريباً:

– أنت من أتباع الشيخ جابر؟

– أجل!

– إلى أين تتبعه؟

– أسير خلفه في درب السالكين.

– وهل لمسيرك غاية؟

– لا بد لكل سائر من غاية.

– وما هي غايتك؟

– البلوغ.

– وما مقدار بلوغك الآن وأنت على ما أنت عليه؟

– شيء لا يكاد يبل عطش العطشان.

– بم بلغت ما بلغت؟

– بالصبر بعد الصبر!.

– هل الصبر منجاة؟

– أجل! وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عند الشدة.

– وهل كان صبرك يوصلك؟!

– به تعلقت.

– كيف؟

– كان صبري مشكاتي، كان بوصلتي..

– تقصد كان خلاصاً..

– وغاية كان.
– هل أوصلك؟!.
– لا يهم. السالك له فضل المسير..
– أنا أعلم أن درب السالك شاق.
– لكنه منجاة.
– وفيم كان صبرك؟
– لا أخوض في بحر خاضه قبليٍ أناس فهلكوا..
– هل يكون مجرد حديثك هلاكاً؟
– أجل!.
– حتى لو كان الحديث مجرد سؤال..
– من له وليٌّ لا يسأل.
– وأنت عرفت وليّك..
– الولي هو الله وطريقي إليه شيخي..
– هذا يعني أن الولاية للطريقة لا للشريعة!
– لا بد من طريقة. وإلا فإن أي سالك مصيره أن يضل.

* * *

٢٥

أعود من المدرسة في الظهيرة وروحي تائهة من حديث البارحة، كان إبراهيم قد أثارني بأسئلته التي تشي باستخفاف أحسسته يطال شيخي العثمان قبل أن يطالني.. وأمضي قاطعاً مسافة طويلة في طريقي إلى الزاوية، هناك حيث الشيخ حسيب هو من بات يحوطني بالحدب ويرمم ما يمكن أن ينهار من صدوع الروح، بداية وصلت منهكاً ناحية قاضي عسكر، وانتشلتني من شرودي أصوات علت الفضاء، نظرت مستطلعاً، وهناك فاجأتني الجموع. كانت الساحة تعج بالآلاف وسط فوضى من البشر لم أشهد لها مثيلاً في كل ما مضى من أيام الأحداث، كانت مظاهرة زاحفة تنبع من الحارات الجانبية والأسواق، تتكاثر وتصب في الشارع العريض الذي ينتهي بساحة باب الحديد، هزتني الأصوات والشعارات، ورأيت كيف تعاظمت الحشود خلف عدد من الشبان الملتحين أو الملفعين بمناديل لا تظهر سوى العينين.. تقطع المظاهرة مسافةً لتتوقف وتكتظ في الساحة، ومن وسط الحشد يرتفع شيخ بلحية سوداء على الأكتاف، يهتف وتردد خلفه الحناجر.. وبوصول سيارة عسكرية سرعان ما يسقط كما لو أنه عصفور تلقفته طلقة صياد. اندفعت سيارات أخرى وفتحت على البشر المتراكضين رشاشات تطايرت طلقاتها في كل مكان، هتاف (الله أكبر) يعلو، يتردد، أصابت زخة طويلة حائط جامع بانقوسا فتثقبت واجهته في لحظات، انكفأ المحتشدون أمامه إلى الداخل، جنت الطلقات بعدها فمزقت بقايا الجموع التي تباعدت مخلفة في عرض الشارع بعض

الجرحى النازفين أو الظالعين على قدم واحدة، وتجاوبت صرخات عديدة من أماكن متفرقة، عادت هتافات (الله أكبر) تعلو، فيما بدت لي جثة من كان يخطب على الأكتاف قبل قليل وحيدة ملقاة على الإسفلت وبطلقة في الجبين. نظرت من مدخل سوق الزهر المرتفع درجات عن الشارع لأرى جثة الرجل تتحرك فتصدر عنها رجفة أولى وثانية ثم تخمد أخيراً.

أصوات الطلقات التالية تفرق الحشود في لحظات، أغيب سريعاً في عمق سوق الزهر لأتوجه في طريق العودة عبر الحارات الخلفية المارة بالمقابر وثكنة هنانو، امتلأت الحارات بالفلول الهاربة، وفي الطريق المنعطف إلى كرم الجبل عادت الفلول تظهر منسحبة من الجهة الأخرى، ومن بين الوجوه ظهر إبراهيم وآخرون يحيطون به كطوق ويَجْرُون بأقصى سرعة باتجاه الشرق، وأجد نفسي أندفع خلفهم مختلطاً بالأنفار الراكضة على طول الشارع المفضي إلى قرلق ثم الكروم وصولاً إلى الزاوية.. إبراهيم يركض بسرعة جنونية، ووراءه العشرات، يقطعون سريعاً خطوات المشاة والراكضين وحتى السيارات..

أصل لاهثاً من طريق قريبة إلى الزاوية.. كان الشيخ حسيب قد علم بالخبر قبل وصولي، بدا خائفاً متحسباً كاسمه، حدثني بالفتنة القادمة وأن ما بدأ لن ينطفئ، وأن ما يجري في الحقيقة قد حُدِّثَ عنه في المسند والصحيحين، من أنه سيكون في آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم.. دقائق تمر ويسد إبراهيم باب المسجد بقامته وهو يلهث، فيما احتشد خلفه عدد من جماعته الملثمين، وما هي إلا لحظات حتى فاجأتنا الطلقات وأصوات زجاج يتكسر، صاح إبراهيم:

– ها هم وراءنا!.

تراجع والآخرين فصعدوا إلى سطح المسجد من قلب المئذنة، شخصت

عينا الشيخ حسيب وهو يشهد ما يجري بذهول، من السطح اعتلوا سطحاً آخر، وانطلقوا عبر الستارات القرميدية يتنقلون على أسطحة المنازل المجاورة، في تلك اللحظات صحا الشيخ حسيب إلى أمر، التفت إليَّ وأمرني أن أغادر حالاً، أنا لم أتردد، خرجت ثم انطلقت في الاتجاه الآخر، مشيت في غبش المغيب نحو بيتي الموحش في طرف الحيدرية.

لكن السؤال عما حدث بقي يأكل رأسي طوال الليل فلم أنم، من أين نبعت المظاهرة، كيف تنظمت وانطلقت، وما كل هذا التحدي الصعب؟!. هزتني الحشود، وارتعد قلبي للدماء التي سالت، وبقيت صورة صاحب اللحية بالدماء التي تصبغ جبينه تعذبني. تركت الفراش، قلت سأصلي الصبح في الزاوية، وأرى الشيخ حسيب فيحكي لي كعادته ما جرى، بعد أن يكون سأل وعرف.. خرجت كمن يسير في نومه، وتقدمت في عتمة الليل نحو المسجد، وصلت وأبصرته مطوقاً، واثنان من عناصر سرايا الدفاع يعتليان سطحه، كان على باب المسجد اثنان آخران، أحدهما وجه إلى صدري فوهة رشاشه، عرف أني أتيت للصلاة.. الآخر فتش جيوبي وحرك كفيه ماسحاً ملابسي إلى أسفل القدمين، ثم سمح لي أن أدخل المسجد.. في القبلية حيث تقام الصلاة وجدت بعض المصلين من سكان الحي، وحده الشيخ حسيب كان يقرأ أوراده، تقدمت وسألته بهمس:

– ما الذي جرى؟

وكأنما فوجئ بحضوري يرد باختصار وبصوت راعش:

– لاحقوهم حتى المغيب وطوقوا الحارة إلى ما بعد العشاء، ثم رحلوا بعد أن أبقوا بعض العناصر كما ترى للحراسة.

– الحراسة ممن؟

– ألا تعلم أنهم يلاحقون منظم المظاهرة في قاضي عسكر، من غير إبراهيم؟!

عاد الشيخ حسيب يستحضر ذكر إبراهيم مستشعراً الخطر بمجرد التلفظ بحروف اسمه، وظل يدعو له ويختلج ببكاء خافت، لمستُ كتفَه وقلت:

– ما الذي يبكيك يا شيخ؟

رد الشيخ حسيب:

– إبراهيم لن يعود، بمجرد صعوده السطح علمت أنه ذهب ولن يعود.. لا أدري! ماله وللسياسة؟! أنا أتصور حال الدنيا يا مطيع، وكيف يندفع بعضنا إلى الموت لإحيائها، مع أنها في النهاية دنيا فانية، وكلنا سنصير إلى الفناء، أتذكّر قول شيخ أشياخنا الإمام الدندراوي رضي الله عنه عندما قبض من تراب المقبرة مرة وقال: اسمعوا يا أولادي، نحن لو كنا نريد الدنيا، لتحول هذا التراب الذي ترونه في يدي إلى ذهب.. وألقى بالحفنة على رؤوسنا، فخرَّ كل من كان حاضراً مغشياً عليه. آه يا شيخ مطيع! تلك كانت أيام كرامات، ولن تعود..

وانخرط الشيخ حسيب في بكاء أعمق.

قلت:

– الكرامات موجودة دائماً حيث الرجال..

غرَّب الشيخ حسيب بعينيه المبللتين لحظات كأنما غاب عني ثم مضى يسأل نفسه:

– ترى ما الذي كان إبراهيم يسعى إليه، إلى أين كان يريد أن يصل؟! ما الذي يمكن لمظاهرة أن تفعل وسط كل هذا القتل.. أليس مزيداً من القتل؟!.. ألم تكن تكفيه بركات سيدي الشيخ جابر حتى يمضي وراء

بركات أخرى؟!.. ثم ألا يكفي الواحد منا جهاد النفس؟!. لكن لماذا أقول ما أقول؟! الأجدى أن نركن إلى مشيئة الحق، فلا حيلة بأحكام الله!. أنا لا أستطيع في النهاية إلا أن أدعو الله له ولجماعته باللطف، أتدري!. من أجل شبابه.. قل من أجل أمه.. روح إنسان هذه.. لا أدري كيف يمكن لطلقة أن تزهقها!..

عاد وطلب إليَّ همساً أن أغادر المسجد بمجرد انتهاء الصلاة.. والأفضل ألا أعود في الأيام الآتية على الأقل..

سرت باتجاه المدرسة وقد اقتربت ساعة الدوام الصباحي، هناك استمعت همساً إلى أحاديث تتكرر فيها أسماء من يقف خلف الأحداث الأخيرة وأحداث أخرى سبقت، والقاسم فيها ذكر اسمَي إبراهيم وعبد القادر.. ازداد قلقي وأنا أعود وأستعرض ما جرى يوم أمس، لكن الأيام التي أعقبت برَّدت كل شيء، فالحقيقة أن المظاهرة وما حدث فيها من قتل، ثم هروب إبراهيم ومن كان معه، كل ذلك كان قد مر مروراً عابراً وسط أيام عصفت بكل شيء وذرته كرماد. بات القتل اليومي حديث الناس الاعتيادي، وما دام في كل يوم ضحايا جدد فلم يعد أحد يعيد السؤال عما سلف.. على هذا النحو لم يعد أحد يتناول سيرة إبراهيم وجماعته، أيام تلت وانتهى كل شيء.. كان قد اختفى مثلما ظهر.. وحده الشيخ حسيب ظل يقص عليَّ في كل مرة حكايا لا تنتهي عن إبراهيم ومعجزاته.. أستمع إليه وأنا أجزع من حكاية أخرى باتت قنبلة موقوتة لا أدري أين وفي أي وقت تنفجر.. الآخر عبد القادر المتخفي بات يظهر لي في صحوي ومنامي، عملي في المكتب العقاري لم يكن إلا محاولة يائسة للهرب، لكنه هرب محاصر، بدا كل شيء في حياتي قد أخذ ينهار بسببه.. زواجي وأملي المعقود على النقل، باتا رجاءً لا طائل من

ورائه.. الآن تساوت الأمور.. أصبحت أطراف المدينة بالنسبة إليَّ كأوساطها، كالمركز سواء بسواء.. معلم في مدرسة، وماذا بعد؟!.. الأحلام الوردية التي دفعتني لتحسين الحال تهاوت.. زهدت في كل شيء، لكن وحدها المرأة ظلت التحدي الأكبر في حياتي، أذكرها وأذكر ما خلفته، أو ما بقي لي من عذابات وقهر، من مقت وانتظار ما لا يأتي.. المرأة المخلوقة من ضلع آدم، إنها في النهاية من ضلعي أنا، لكنها من ضلعي المكسور، أحس بعدها كما لو أن ضلعاً من أضلاعي قد فقد، سعاد تتركني فيما مضى، وها هي أمي ترحل.. كانت لهفةٌ ما قد دفعتني لأزورها بعد انقطاع طال أثناء التخفي في الصيف.. أضمها إليَّ، أقبل يدها، تعد عشاءً فنأكل، أنام عندها، في الليل توقظني، أقف أمامها أقاوم النعاس، تقول:

– اجلس هنا أمامي.. أنا الآن سأموت!.

أقول:

– لا داعي لمثل هذا الكلام يا أمي، الإنسان لا يعرف متى سيموت!..

تقول:

– أما أنا فأعرف، أنا سأموت الآن، لكن بقي لي شيء واحد من الدنيا آخذه وأمشي..

أقول:

– ما هو؟ اطلبي يا أمي!

تقول:

– أن ألفّك وأشمّك!.

ووجدت نفسي أقترب منها بفيض من الحب يغمرني فتضمني وتدفن أنفها في عنقي.. شمت شمة طويلة، أبعدتني قليلاً ثم عادت فشمّت من المكان ذاته شمّة أطول، أبعدتني بعدها كأنما ارتوت وأطلقت زفرة واحدة

طرحتْ معها أنفاسَها الأخيرة. فاجأتني أختي وهي تقف خلفي وتقول:

– أمك نامت.

قلت:

– ماتت.

قالت:

– نامت.

قلت:

– ماتت.

ونظرت إليها ووجدتها تبكي.

بعد رحيل أمي أنغمس في حزن غامر، حزن يخالطه إحساس راعب من حدث داهم يقتلع كل شيء.. لكن تنقضي أيام محوطة باللطف، فأرى في سلامتي مغنماً، فأقول ثمة أمل.. فالشيخ لا ينسى أصفياءه.. وازداد شوقي لرؤيته والإفضاء بوجع الروح في حضرته.. فهو ضالتي التي ظللت أتيه في البحث عنها طويلاً.. وأصبحت عندما أستحضر صورته أجدني على يقين بأن هناك مفازة أخيرة، أملاً في منجى لا يرد من لاذ والتجأ، صخرة عظيمة أستند إليها وقت الشدة بكل وثوق.. لا تفارقني الآن نظرات الشيخ جابر.. نظرات لا كالنظرات، شيء من فعل خفي يسحر قلبي.. كلماته كانت قد وقعت في القلب موقع اليقين.. شيء ما كان تائهاً في نفسي ثم وجد وجوده، لأعلم أن الأرواح حقاً جنود مجندة، ما اتصل منها ائتلف، وما تفرق اختلف.

* * *

٢٦

في الفراش الذي يلفظ جسدي حاولت أن أغمض عينيَّ فلم أفلح.. كانت نظرات شيخي ملء الجفون لا تبارح.. صرت أتلهف إلى ساعات ظهوره التي شحت حتى كادت تنعدم، ولا سيما بعد تطويق المسجد وتفتيش كل عابر في الحارة.. كان ما جرى كأنما دفع الشيخ سنوات نحو العجز والنحول، بدأنا نحن مريديه نحس بالخسران بينما نراه يغيب ويندر ظهوره يوماً بعد يوم، فيما كانت حاجتنا إليه تزداد في حلك أيام القتل وكل ما يزعزع وينسف..

وصلت المسجد في الصبح بعد غياب أيام.. تاقت روحي لرؤية الشيخ جابر وسماع أخبار ما عن إبراهيم من الشيخ حسيب.. دخلت الزاوية، ومن ركن الموضأ في طرفها سمعت صوت الإبريق ورشاش الماء الصباحي من وضوء الشيخ حسيب، نشطت بدوري للوضوء، جلست بعدها في الحضرة أتلو ورد الليل، فيما أخذت أنتظر من ظلَّ يقصد المسجد من سكان الحي القلائل، يغمرني السكون والضوء الأخضر الآتي من كُوى ضريح الشيخ سعد المارعي. تطلعت إلى الشيخ حسيب، وكان غارقاً في تسبيحاته، شعرت بحاجة ملحة إلى كلماته، إلى صوته المؤنس قبل الكلمات.. قلت سأكلمه بعد الانتهاء من الصلاة.. عدت فنظرت إليه على أنه خلاصة ما تنطوي عليه الحضرة من جلال وبركات، كبر مقامه في عيني وعوضني عن مرارة اختفاء سيدي الشيخ جابر.. تأملته من بعيد وقلت في نفسي: ليس ثمة ما هو أعظم من شعلة متصاعدة من قلب طاهر.. الله.. الله يا شيخ

حسيب!. ثم توجهت إلى ذاتي وتساءلت: أين أنا الآن مما كنته فيما مضى!. فرغم كل ما جرى ويجري أجد نفسي في نعمة غامرة، أرجو ألا تزول.. وتذكرت قولي للشيخ في أول عهدي بالحضرة:

– عادت العيون تحاصرني يا سيدي، روحي مطوقة بها..

وقتها نظر الشيخ في وجهي ملياً ثم قال بصوت واثق:

– أنت تهرب.

– أنا لا أهرب!.

– بل يجب أن تهرب!. افهمني يا بني!. يجب أن تهرب من فسق العيون وقهرها، من جحيمها ولؤمها.. اهرب إلى الهدأة، إلى عيون السَّحَر، في جوف الليل تنظر إليك، في جلال الحضرة تحضنك، سترى وقتها أنه أجمل نظر، وأحلى من الشهد، في صلاة التهجد، أدم النظر هناك، إلى عين الهداية تطلع، إلى عين الحقيقة، عين ليست كالعيون، تغمرك بالصفح فتسرح أنت في ملكوتها، تشرب من رحيقها، وتفيض نفسك بالامتنان، وفي كل الأحوال العبّادي جدك الأكبر، قدس سره، يجب أن لا يغيب عن باصرتك.

تذكرت كلماته وتلهفت أكثر إلى رؤيته.. وأدركت حقاً أن ترشيد البصر أسمى عبادة، وكان الشيخ قد فاجأني يوماً بحديث من أحاديث المقبرة نزل في نفسي منزل اليقين عندما قال:

– وقد كان الناس يجلسون إلى أحمد بن رزين فما يرونه يلتفت يميناً ولا شمالاً، فقالوا له في ذلك، فقال: «إن الله تعالى إنما خلق العينين للاعتبار، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة».

ومنذ ذلك الحين كأنما بات أمر العيون لا يعنيني، لم أعد أعبأ بنظرات ناظر، ولا سرحان ساهم، أصبحت عنهم جميعاً في شغل شاغل،

وفي كل مرة كانت تدهمني فيها النظرات أردد: اللهم ارزقنا النظر إلى وجهك الكريم.. وأدركت ماسحاً من خاطري كل همزات العيون أن من رفع نظره إلى الحق أسقط نظره عن الخلق. وبات النظر إلى الحبيب مهوى الأفئدة، وكم من مرة أخذني الهيام وشط بي الحال وأنا أستمع إلى الشيخ حيدر يترنم بأبيات تقول:

عيني لغير جمالكم لا تنظر وسواكم في خاطري لا يخطر
فإذا نطقت ففي حديث جمالكم وإذا سكت ففيكم أتفكر
لا صبر لي حتى يراكم ناظري وعلى محبتكم أموتُ وأحشر

وأستحضر متحسراً كيف كان الشيخ ينظر نحوي بعين حالمة، في النور الناعس أراها، فتنهمر الدموع من عينيَّ.. يتلاشى خوفي وقلقي، وألملم كل هذا الحب وأنهل، ويطيب لي السنا في قلب العتمة، فهذا الحب نوراني..

رجوت الشيخ حسيب أن يصحبني في زيارة إلى سيدي الشيخ جابر في بيته، فقد انفطر قلبي لرؤيته، لكن الشيخ حسيب استبعد الفكرة لأن الشيخ رفض أن يستقبل أي إنسان.. وبيده الراجفة وضع أمامي كأس البابونج وقال:

– حتى أنا لم أفز برؤيته.

ابتلت عيناه بالدموع ثم سهمتا في عينيَّ طويلاً، أدركت أن خلف نظراته البعيدة كلاماً كثيراً. عاد وتطلع هذه المرة بنظرات تنم عن يقين.. وهاهو يعود ليسرد على مسامعي نتفاً من أخبار إبراهيم ويتساءل:

– أين يمكن أن يكون الآن، إلى أين يأوي وكيف يعيش؟.. فها هي ملابسه وحاجاته لا تزال هنا. وأشار إلى الخزانة التي تحتويها، وإلى صندوقه القابع في الركن.. ثم قال كمن يؤبن إبراهيم:

– أنت لست وحدك يا إبراهيم! سبقك كثيرون.. رجال ذوو بأس صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. ودمعت عيناه، تأملت لحظات في هيئته المهدمة، في ضعفه وحزنه، تابع الشيخ حسيب يقول:

– أتدري يا مطيع! إبراهيم هذا يا عيني دَوَّخَ قائد المنطقة الشمالية والجنوبية، دوّخَ لواءً بكامله، أنت لا تدري، حكوا لي أن أحد قادة العمليات في الجيش قال: أدفع عمري وأعرف من أين يحصل الجماعة على كل هذه الأسلحة وكيف!. إبراهيم هذا ولي من أولياء الله، أرسله نجدة من عنده، أتدري! لو لم يكونوا يعلمون بخطره لما لاحقوه طوال الأيام الماضية.. القصة ليست قصة أوراق وملفات.. هذه أمرها بسيط. هناك ما هو أكبر من ذلك بكثير.. لا أدري!.. ذخائر وأسلحة متعددة تخرج بأوراق رسمية عليها أختام وتواقيع.. وإلا في ظنك من أين كان للجماعة أن يحصلوا على كل هذا السلاح!.. إبراهيم من البداية كان الرأس المدبر، وضع دمه على كفه، فعل ما فعل واختفى الآن، لا أدري أين، وجوده بيننا كان محطة، هذا رجل بألف رجل، محنة يا مطيع محنة.. أتدري!. أنا لا أظن أنهم يمكن أن يتركوه!. هم جادون في البحث عنه، أنا أتصور أنه لا يهمهم أحد مثل إبراهيم.. بالأمس طوقوا ضيعته.. هكذا وصلني.. لا يهم!. المحقق يريد أن يعرف كل من يلوذ به، جرجر كثيرين للتحقيق، الأهل والأقارب والمعارف حتى البعيدين في الضيع الأخرى، أصَرَّ أن يعرف كل شيء، كتب محاضر كثيرة، لا يهم!. الجميع لا يعرفون شيئاً، وإبراهيم من جهته، كان إن فرمته لا يدلي بحرف عن كل ما فعل ويفعل.. من أين لهم أن يعلموا إذاً!.. أتدري؟. سمعت أنه كان يدفعهم إلى عمليات وهمية، فينصبون كمائن في ظنهم، وما يدرون إلا وهم أنفسهم قد أصبحوا فخاخاً لهذه الكمائن.. في أي حادثة

تريد، وفي أي حي؟. منذ أن وقعت الواقعة، كان إبراهيم الرأس المدبر، كان وراءها حتى وهو في الشام.. أنت رأيت.. الرجل لم يكن سهلاً، كان يبخل بأي حرف، في عينيك لا يتطلع، كأن النظرة صارت سراً يخشى كشفه. حكاية وجوده لأشهُر معدودات هنا في الزاوية أذهلتني يا عيني، غيرت كل تفكيري، لكني أعود فأقول: إلى أين يريد أن يصل؟ وما هدفه من كل ما يفعل؟.. القتل ليس أمراً سهلاً يا مطيع، الواحد منا لا يطاوعه قلبه على قتل عصفور، فكيف به يقتل إنساناً؟!.. يا حسرتي عليك يا مسكين يا بكور! الرجل راح وضاع غريمه.. إبراهيم من طرفه لم يشأ أن يصرح بكلمة واحدة عن مقتله.. ومن كان أصلاً يتجرأ أن يسأله؟!. هذا في النهاية رجل منذور لقضية.. ويبدو لي بعد كل ما يمكن أن يقال أن المسألة مسألة إلهام رباني، أنت لا تعرف وجهة القلب.. كأن إبراهيم أراد أن يقول: هذا ما أمرت به يا ألله، وها أنا اليوم أسعى على درب رسمته لي وكتبتَ كلَّ شيء فيما يخصني في لوحك المحفوظ. أتدري!. يخطر لي أن عبد القادر وجماعته ربما يعلمون شيئاً، لكن أين عبد القادر هذا!. أنا لم أقل لك.. سمعت أن كل عائلته وأقاربه في التحقيق، داهموا قريته أيضاً وألقوا القبض على إخوته وعدد من أعمامه، رهائن، لكنها مسألة أيام ويخرجون.. لا يهم!. لكن مصطفى البيج هذا.. هل هو من جماعة إبراهيم أم من جماعة عبد القادر؟ لم يخطر في بالي هذا السؤال من قبل.. إذا استطعنا أن نعرف نكون قد وصلنا إلى الإمساك برأس الخيط فيما يخص بكور!. نعود إلى إبراهيم، أنا واثق أنهم لن يصلوا إلى شيء بشأنه، هذا متاهة وقعوا فيها، في ظنك ماذا يعرف كل من استنطقوهم أصلاً!. إبراهيم لم يكن يبوح بحرف مما يفعل، السرّ يا عيني سرّ.. انظر بربك إلى فراشه!. لو كان له أن يحكي لحكى.. هذه وسادته التي حملت

رأسه المفكر، وهذه كتبه وأوراقه، هذا صندوقه وأشياؤه!.. هل تراها تتكلم!.. فمن أين لك أن تعلم.. لكن كل ما قلته لك أخبار موثوقة، هكذا سمعت.. أنت لا تأخذ مني إلا الكذب.. في النهاية الله عليم بعباده.. لكن ما أعلمه أنا أن إبراهيم ليس سهلاً، هو كبير أكثر مما تظن، وأكبر مما نظن جميعاً، الحاصل أنه اختفى ليواصل سيرته في مكان آخر.

* * *

٢٧

بقيت أمني نفسي برؤية الشيخ جابر بعد غياب طال، حتى كان ذلك الصباح غاية المنى التي تاق القلب إليها.. كان العسكر قد غادروا المسجد منذ أيام، وها هو اليوم الأول الذي يظهر فيه الشيخ، التففنا حوله وغمرنا أيديَه بالقبل ونحن نذرف الدموع.. نظرنا إليه كأنما ننظر إلى عهد غال ضاع في الماضي وهاهو يعود، تبادلنا الفرح والعناق، ومكثنا أمامه نأبى أن نغادر المسجد، حتى وعدنا وسط فرحتنا بلقاء العصر في المقبرة.. وطرنا إلى فرحة أكبر، انتظرنا مرور يوم صيفي طويل، لنصل إلى عصره مع لهفتنا الساخنة..

مرت أيام عاد فيها شمل المريدين يلتئم حول الشيخ، في المسجد والمقبرة، عادت البركات ونجاوى العيون الصامتة.

وها هو عصر يوم قائظ آخر يحل، ترتفع فيه سحب الغبار، لكنها لا تفلح في حجب لهيب الشمس اللافح.. مشينا سحابات تترقرق خلف الشيخ، لم نأبه لوهج الظلال ونحن نحس الحرارة المتسللة إلى أسفل أقدامنا من الإسفلت الذي امتص حرارة النهار.. كان الشيخ حسيب وآخرون قد سبقونا إلى المقبرة مع أباريق الماء يرشونها على القبور والمصطبات حيث نجلس كل يوم علّها تشيع برودة ما..

حتى ذلك الحين لم تكن حارة الشيخ جابر قد اقتُحِمَتْ أو تم تفتيشها أو اقتيد أحد من أبنائها، حتى ما جرى في المسجد سواء ليلةَ مقتل بكور، أو يومَ هروب إبراهيم وجماعته، لم يصل إلى اتهام الشيخ جابر أو

استدعائه لأي تحقيق أو مساءلة.. وقد نظر الإخوان إلى الأمر على أنه ولاية كبرى للشيخ، إذ استطاع أن يكون في منأى عما يجري حوله دون أن ينقاد إلى حبائل السياسة أو ينجر إلى فتنة.. وقد سارت الأمور فعلاً على نحو من جليل العناية الإلهية، بحيث بقي الشيخ في مأمن وحرز دائمَين، وعزز ما وقر في القلوب من ولايته وبركاته الظاهرة. كل ما حدث أن بعض المريدين انفضوا من حوله، وآثروا أن يسلكوا طريقاً آخر للدعوة، لم يسعف هدوء الشيخ جابر وميله للتفكر والتروي في تعبيده لهم.. وماذا في ذلك؟!. بعضهم أعلن عن رأيه صراحة، وآخرون آثروا الفعل لا القول.. ويأتي هروب إبراهيم وما تبعَ من تطويق للمسجد وتفتيش ومداهمات، ليعود من عاد إلى التفكير فيما يفعل، والنظر إلى موطئ قدمه وأين يسير، وبعد ظهور الشيخ جابر عاد كعادته إلى التلميح لا التصريح وهو يشير مرات بطرف خفي إلى من يوقدون شعلة الفتنة في كل يوم، وإلى من ينصّبون أنفسهم قضاة مشرعين ينزلون بالجناة حكم الله غيلة وسفحاً للدماء على الطرقات وفي الأماكن العامة.. ويخلص في كل مرة بعد تلميحاته إلى أن يردد ببصيرة نفاذة قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة..»

في عصر ذلك اليوم انتظمت خطواتنا خلف الشيخ نحو المقبرة، حين بدأت أصوات طلقات وأعيرة نارية مختلفة تتجاوب من بعيد، انطلقت أصوات تستعيذ بالله وأخرى تدعو باللطف، كنا لا نزال نسمع إلى ذلك الحين عن دوريات مؤللة لمجموعات من سرايا الدفاع تلاحق فارين أو تنصب كمائن في حارات أو على الأسطحة في أحياء كثيرة جرى تمشيطها بالكامل داخل السور وخارجه، ولم تكن عودة موكب الشيخ في الأيام التي مضت إلى ارتياد المقبرة في عصاري الصيف الحارة لتثير أي

رد فعل أو شعوراً بخطر ما، لكن ما بدا من قفر الطريق ووحشته في ذلك اليوم كان غريباً ومقلقاً لكن ليس إلى درجة يمكن أن تدفعنا إلى التفكير في العودة، أو ربما كنا قد تركنا الأمر كله بيد الشيخ يدبره كيف يشاء.. استمر الشيخ جابر في المسير، ومن خلفه تزاحمت خطواتنا، عندما اشتدت أصوات النيران رأينا الشيخ يتمهل قليلاً ثم يتوقف، يستدير وينظر صوب الطلقات ويتحير، تعلقت أعيننا به، انتظرنا أمراً ما.. لحظات أخرى تمر تتبعها أصوات رشاشات سريعة ومتلاحقة، يرتفع إحساس بخطر داهم يترصدنا.. بدا أن الشيخ يفكر فعلاً في العودة، جمد في مكانه قليلاً، ثم إذا به ينفتل ويعاود المسير ثانية باتجاه المقبرة، ويسمع الملأ في ذلك الحين قوله: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..» ومضى يتقدم إلى الأمام. بعد قليل وجدنا أنفسنا على القبور والشيخ حسيب يستقبلنا وهو يرسم ابتسامات على وجهه محاولاً أن يخفي ما بداخله من قلق، وكان قد جهز بعض الحشايا والتكايا لجلوس الشيخ وإخوانه المقربين.. وخلدنا إلى راحة بعد خشية عددناها عابرة ونحن في ظلال الشيخ نسير وفي كنفه وتحت ألحاظه، لا سيما بعد أن تحققنا فعلاً من أن الأصوات حولنا قد هدأت ولن تعود.. التففنا حول الشيخ جابر ونحن أحوج ما نكون إلى نفحة من نفحاته تصلنا بحبل الأمن والسكينة.. ووسط لهفتنا وجدنا الشيخ يغيب عنا في رابطة حملته بعيداً، ليعود إلينا الإحساس بخطر اللحظات التي تمر بطيئة ومفعمة بالخشية من خطر غامض عاد يلوح في أفقنا.. بدا لنا الوقت عصيباً، وأصبح الصمت أبلغ من أيّة كلمات تقال.. بعد قليل يرفع الشيخ جابر وجهه إلينا ويمسحنا ببصره جميعاً، بدا لنا في حالة من الضعف والذهول، أخذ يحوقل ويدعو الله باللطف، تجدد إحساسنا بالخطر، لحظات أخرى

تمر ويظهر في باب المقبرة بعض الفتيان، نعرف منهم عدداً من إخوان الشيخ، وفي مقدمتهم أتبين قامة إبراهيم، نظرت نحوه بذهول وأنا لا أفهم ما يجري.. أخذ الجميع يتقدمون نحونا، تعلقت أبصارنا بهم، وباللهفة والسؤال، أسرعت خطواتهم أكثر، أخذوا يتراكضون فوق القبور، بقينا نتابعهم وهم يتقدمون باتجاهنا، لكنهم فجأة، ووسط حيرتنا، ينعطفون إلى جهة أخرى، تتحول خطواتهم إلى تقافز مجنون فوق القبور، وفي الحال عادت أصوات الطلقات فاندلعت من جديد، واخترق الجوَّ الحافل بالترقب صفيرٌ مجنون، انهال الرصاص بغزارة هذه المرة يقصف الشواهد حولنا فتعلو شظايا الحجر، خرق الأزيز الآذان وتطاير نثار القبور، طوقنا الشيخ كأنما نفتديه، فيما نهض بعد تردد، ثم تحرك يجر قدميه باتجاه الداخل حيث المنفذ الخلفي للمقبرة، تعلقت أعيننا بالفتيان من بعيد يتمترسون خلف الشواهد، في الوقت الذي وجدنا فيه المقبرة وقد امتلأت بالعسكر من ذوي الألبسة الموهة من سرايا الدفاع، وهم يتقدمون بحذر وتنهال منهم العيارات النارية، أحدهم يقترب سريعاً ويطوح بقنبلة يدوية بعيدًا، الفتيان أوغلوا في عمق المقبرة، تتابعت طلقات الرصاص تنهمر خلفهم، بعد قليل ردوا على مصادر النيران بقنابل يدوية.. الشيخ جابر يمد خطواته سريعاً ويتحرك بنا في الاتجاه الآخر، أصوات النيران المتبادلة تطغى على كل شيء، في اللحظات التالية بدا وكأن المقبرة كلَّها قد أصبحت جحيماً يشتعل، وارتفعت من بعيد أصوات (الله أكبر)، امتزجت بأصوات الطلقات والرشاشات.. تسارعت خطوات الشيخ باتجاه الخارج البعيد، تبعناه نحمي ظهره، تمتم الشيخ بعبوس وغضب:

– يا أنذال! حتى المقابر جعلتموها تضيق بنا..

وكان الهول الأعظم قد بدأ، وشهد الجميع كيف انطلق رشاش مدفع مثبت على مصفحة يقصف المقبرة ويطيح بأرتال الشواهد بعد أن نسفت جرافة عسكرية جزءاً من سور المقبرة فانكشف الهدف لمزيد من المدافع التي انطلقت بدورها تقصف كل شيء.. وكنا قد استطعنا أن نتجاوز السور من فتحة فيه وندخل سريعاً في الحارات القريبة، وبالسرعة ذاتها تفرقنا، لكني لذت بجدار ووقفت أتابع ما ستنجلي عنه الواقعة، ووسط ذهولي شاهدت كيف وقفت سيارة (جيب) عسكرية بفرامل ساحقة على مقربة من الشيخ جابر الذي اقترب من بيته مع بعض إخوانه.. هبط من السيارة رجال من فرقة السرايا، امتدت أيديهم إلى الشيخ فاقتادوه، أمسكوا بمن تبقى معه وتوجهوا بهم جميعاً إلى شاحنة عسكرية تقترب.. تراجعت إلى حيث أستطيع أن أرقب كل شيء أمامي من زاوية ميتة لا يكشفها النظر، وابتلعت غصة وأنا أرى كيف امتدت يد أحدهم إلى عمامة الشيخ فانتزعها وألقاها بين قدميه وداسها، حُشر الجميع في الشاحنة التي قفز الجنود خلفها وزأرت منطلقة في الطرقات الفارغة أشبه بقذيفة.

في تلك اللحظات أحسست بعجز يشلني وأنا أنظر في داخلي فلا أراني أملك سوى دمعات أذرفها على سيدي وأنا أشهد كيف اقتادوه مع عدد من أخلص مريديه.. ألتفت إلى الجهة الأخرى فأنتبه إلى السكينة التي حلت في المقبرة، مسحتها عيناي من أعلى بنظرة شاملة، فبدت فارغة ومسكونة في الآن ذاته بالموت والدماء.

في أول الشارع المفضي إلى المقبرة ظهرت جرافتان عسكريتان ضخمتان تتقدمان في مواجهة السور فترتطمان به وتتابعان التوغل على أنقاضه التي انهارت على طول عشرات الأمتار، بدأت الجرافتان تحصدان الشواهد بخطوط تمضي طولاً ثم تراكم ما تجمع من أحجار القبور وترابها في

الأطراف، ظلت الجرافتان طوال ساعة أو أكثر تحرثان المقبرة حتى انكشفت ساحة كبيرة لا يمكنها أن تخبئ عصفوراً. انعطفت الجرافتان أخيراً فخرجتا من المقبرة، وانسحب من تبقى من العسكر، في الوقت الذي بدأ فيه ظلام المغيب يهبط، في دقائق تالية امتلأت المقبرة ببشر الأحياء المجاورة، بدا كما لو أنهم تناسلوا من باطن الأرض ووقفوا يشهدون ما حل بالقبور وسط سكون الموتى الذين دهشوا بدورهم لما جرى في ساحتهم من خراب.

* * *

٢٨

ذاع في الحال خبر اعتقال الشيخ جابر، ضجت المدينة في اليوم التالي بالواقعة، الناس البعيدون تناقلوا أخباره في الصحف والإذاعات قبل صحبه وإخوانه.. ويظل موقوفاً لأيام عدة، لا أحد يعرف أين، ومن الجهة الأمنية التي أوكل أمره إليها، ليصير سيرة كل مجلس.. وكان لا بد أن تمر أسابيع ويتدخل عدد من الكبار بالتوسل والوساطات، وقيل عن وصول برقيات من الديوان الملكي السعودي تناشد بإطلاق سراحه.. إلى أن يتم الإفراج عنه أخيراً، ونزوره في بيته جماعةً، فيخرج للقائنا بعد حين زائغ النظرة، مريضاً مذهولاً لا يتكلم إلا أقل الكلمات، وبدت عليه علائم شيخوخة ينوء بحملها، كان كأنما كبر في أيام أعواماً.. في ما تلا من أيام أصبح البيت مأواه أكثر ساعات الليل والنهار، وصار يتخلف عن المسجد، وعن الورد والذكر، وحتى في المرات القليلة التي خرج فيها من البيت رأيناه يسير في الطرقات وحيداً، لا يريد أن يصحبه أحد، بيده يشير إلى كل من يعترض سبيله جاذباً يده للتقبيل، أن يبتعد ويمضي إلى شأنه، ووصل الأمر لأن يُشاهَد مرات يسير في دربه بطيئاً، كل شيء فيه قد تهدّل، وبفردة حذاء واحدة، حتى كان يوم، هز الجميع صباحاً نبأ رحيله..

كان وقع النبأ مؤلماً وإن لم يكن مفاجئاً، نظرت إلى رحيله كمفصل مهمّ في سيرةٍ من ترتيب المشيئة الإلهية، لا بد أن تتكامل أحداثها وفصولها، وتنقلت عيناي في ذلك الصباح بين إخوان الشيخ أو من بقي منهم، هامت خواطري وتساءلت عمن يمكن أن يكون جديراً بخلافته، وعدت من كل

هذا الطواف إلى حقيقة جدارتي أنا دون غيري، فأنا من تبع الشيخ في ضحى جامع العثمانية، وأنا قيم الختم والأوراد، وأنا نزيل الحضرة وخادمها، حتى صرت المقرب الأكبر فيما أعلم بين جميع من أرى، أنا الذي نال من الحظوة ونهل من الكرامات ما لم ينله ويحظى به غيري.. بقيت أحدث نفسي، وصحوت على صوت الشيخ حيدر في تلك اللحظات وهو ينتشلني من أفكاري، منادياً باسمي، لأكون الوحيد الذي يغسل الشيخ جابر كما قُرِئَ في الوصية..

المسجد اكتظ بالباكين، والحارات لم تعد تتسع لاحتواء الوافدين من المشيعين، احْتُفِرَ قبرٌ في المسجد عند الطرف الشرقي للقبلية، بجانب ضريح الشيخ سعد المارعي، بحسب وصية الشيخ، واستمرت الحشود تتدافع، بينما عيوني تشهد من خلال غلالة الدمع ما لم تشهده من قبل.. غرفة الشيخ حيث سُجّيَ شعت بنور لم أر مثله قط، دخلت الغرفة وانغمست في النور، امتدت يدي راجفة تلامس جسد الشيخ، ثم تحمل الإبريق وتهيل الماء الحار عليه، دفعوا إليَّ بالمطيبات فأزحتها جانباً وقلت:

– الطيب منه نبع يا إخوتي فلا حاجة لنا بطيب..

ومسكٌ فاح فعَمَّ، وأريجٌ فَغَمَ الأنوف، وأخذني هيام العبق، وفجأة تحوّل حزني على رحيل الشيخ إلى غبطة رحت أنهل منها، فوجدت حقيقة أن الشيخ لم يرحل، بل لم ينته شيء منه أبداً، وهذا المسجى أمامي كجبل متقشف وزاهد صار يقيناً يفيض بالتجليات..

بدأت مراسم الدفن، ووفد شيوخ الطرق، فغصّ المسجد بحشد من كبار أعلامهم في مشهد راح يجلو لي مقام شيخي في النفوس، واشتد هياج الناس، وفاض الحزن فغمر كل شيء. عندما تم الدفن أمسكت حفنة تراب وألقيتها على مثواه، ووقفت مع الإخوان المقربين أتوسط الحضرة وأتلقى

التعازي، انصبت العيون عليَّ، قدمت كلمة موجزة، ذكرت فيها مناقب السيد الأجل الشيخ جابر العثمان، وخنقتني في آخرها غصات بكاء.. قدم آخرون كلمات، رثاه بعضهم بأشعار.. عاد صوت القارئ الشيخ يرتفع.. ثم يختتم بقوله تعالى: «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» صدق الله العظيم. ورفعت يدي بالدعاء، أجاب المعزون برفع الأيدي والتأمين على الدعاء، في تلك اللحظات حاولت أن أقاوم حقيقة فقده، لكني أدركت على نحو صادم أن كل شيء قد انتهى، وتأملت الجدران من حولي والأثاث وفضاء الحضرة فوجدتها تشاركني إحساسي بالفقد، كانت كأنها تعلن يائسة نفض يدها من الشيخ، وبدت لي حزينة مثقلة بالفقد بعد زمن من العشرة طويل..

في ذلك اليوم المشهود، وقبل الدفن، تبادلنا نحن إخوان الشيخ النظرات المسكونة بالحمرة والذهول، تلمسنا حزننا الضاغط كألم في الجسد والروح، وارتفعت أبصارنا بالدهشة والعجب لحظات إلى سماء صحن المسجد، ونحن نرى طيوراً كثيرة بحجم النسور تحلق فوقنا وتطيل المكث في الفضاء، تسبح في زرقته رائحة غادية، علواً وهبوطاً، وفي لحظات كادت تتكون في الأعلى مظلة سوداء كبيرة، أو خيمة خيالية تحجب ضوء الشمس، كان مشهدها عجيباً، فلم نكن قد رأينا طيوراً كهذه قط.. صاح الشيخ حيدر صيحة عظيمة وبكى، ثم رفع وجهه إلى السماء ونادى:

– يا طيور الرحيل ترفقي!.

ردد شيوخ آخرون كلمات أشعلت ما في النفوس، بكى آخرون، واشتد صياحهم مختلطاً بزعيق الطيور، ولا سيما عندما أخرج النعش إلى ساحة المسجد لنقله إلى القفص الحديدي الذي ضم ضريح الشيخ سعد، في وقت اكتملت فيه العجيبة، لترسم صورة متكاملة لرحيل الشيخ، حيث ثار في

ذلك اليوم غبار عظيم أحمر، وعواصف عمت المناطق حتى الجزيرة، وكان مما رأيناه وخشيناه، اضطرابٌ وأمرٌ غير عادي ظهر على حيواناتنا الأليفة، وسماع أصوات لها تشبه البكاء..

في ثالث أيام العزاء اجتمع الإخوان وحشد من كبار مشايخ الصوفية ومريديهم، امتلأ المسجد بهم، وتساءلت عن الآتي، ووسط ذهولي رأيت كيف تم ترتيب كل شيء، ها هي الخلافة العلنية تنتقل إلى الشيخ محمد ابن الشيخ جابر، وفجأة تنهار كل أحلامي، وأنتبه إلى ما نسجته من أوهام فيما مضى، وتشتد خيبتي أكثر، وأنا أفكر أنهم لم يعلموني حتى بما كان سيتم في ذلك اليوم. الشيخ حسيب رأى الدموع في عينيَّ، وحده قرأ فيها مرارة الخيبة، عانقني وهو يهمس في أذني:

– لا تبتئس يا مطيع، المكان ليس مكانك، يظل ابن سيدنا أولى، أنت مُنحت الإذن فلك أن تنطلق في الآفاق.. الدعوة لا تحدها جدران..

* * *

٢٩

في الأيـام التاليـة لم أعـد أطيـق أن يحتـويني البيـت ولا المسـجد ولا الطرقات، تمزقت نفسي بين حزني وخيبتي والفزع، فزع لا ينقضـي مـن لحظة أجد فيها نفسي بين أيديهم، أقول لا بـد أنهـا آتيـة، تاهـت بـي الظنون في المصير الذي انتهى إليه فتيان المقبرة، لم يعلـم أحـد عـنهم أي خبر.. من سقط بنيران الواقعة ومن هرب ومن حوصر وألقي القـبض عليـه أو ربما سلّم نفسه..

عدت أفكر بأن أحلام المشيخة التي راودتني بالأمس ما هي إلا وهم في وهم، فكيف يستقيم لي أن أكون شيخ حضرة وأنا – كما بت أجـزم – في رأس قائمة المطلوبين؟ كانت كل الظنون تقود إلى نتيجة واحدة: ستجرني أقوالهم لا محالة، من في الداخل سيستدعي من في الخارج.. في لحظة مـا رأيت نفسي تسعى بدفع لا يد لي فيه، شـيء مـن حـذر وخـوف دفعـني لأرتدي القميص والبنطال وأتوجه نحو المدينة، أهرب متخفياً، أمعن النظر في مشاعري فأراني في حضن التلاشي.. ضـيق ويـأس مـن كـل شـيء، إلى عهد قريب كنت أقول: وصلت إلى حافة اليأس.. وها أنا اليـوم أرانـي في قعره، أتمدد بكامـل جسـدي في قعـر اليـأس، في هوتـه البعيـدة، وفجـأة يتراءى لي اليأس نعمة، وجدت فيه الامتلاء بعد فراغ، محطة راحة طالما حلمت بالرسو فيها.. أمدني يأسـي بـالقوة حقـاً، مـا دام السـاحل الـذي أرمي عليه أحمالي، أصبح السحابة التي ستمطر عـالمي العطـش.. اليـأس

يكسر الأبواب، يقتحمها، اليأس جارف ومحطم.. اليأس عاصفتي التي نضجت على وهج المقت والوجل والغثيان.. بت وقتها أطوف في أرجاء المدينة، لا أعبأ بالعيون التي ترمقني، الشارع هو المنجاة، والسير هو الخلاص، السير هو الراية التي تسلمتها من شيخي، طريقة وطريقاً.. فلمَ التواني؟!. استبعدت فكرة العودة إلى البيت، قلت: لا بدّ أنهم قصدوه مرات وربما اقتحموه.. أخيراً المقهى في الليل، المكان الذي يضم الوحيدين والبائسين، المقهى مكان الوحشة، وحضن اليأس الأخير.

في مقهى الملا خانة جلست زاهداً في كل شيء، يائساً وحزيناً، تأخر الليل، انفض الجالسون حتى فرغ المقهى من آخر زبون، بقيت جالساً إلى طاولتي وحيداً، ألقيت بالجريدة وتثاءبت، أبو عبدو النادل اقترب مني وبدأ يحرك الكراسي والطاولات ويسحب مكنسته بينها، وعندما نظر إليَّ مستفهماً دسست في يده قطعة نقود، فهم مهمته، أفلت المكنسة من يده، خرج فأغلق أبواب المقهى، عاد إلى طاولات فقرب ثلاثاً من بعضها، فيما خلعت حذائي ثم وضعته تحت رأسي على سرير الطاولات ونمت.

كانت ليلة لا تنسى، كل ما فيها وحشة وهواجس، أصوات ذكر المولوية من الجامع الملاصق للمقهى تصلني، فكرت في أن أكون بينهم بدل هذا المبيت، عدت وتذكرت عهدي لسيدي الشيخ، حيث لا يجب أن أكون إلا في حرزه وحضرته ما دام شيخي.. وشيء من خشية وذنب داخلني حتى وأنا أستمع، وظللت أنتظر أن يلامس النوم أجفاني، لكن أي غفوة كانت سرعان ما تنقلب إلى كوابيس.. في الصباح يفتح أبو عبدو باب المقهى، يصر حديده بقسوة، وفيما يدخل غبش الفجر أنهض من نوم يثقل أجفاني، أجر خطاي إلى الماء، أرى النادل أبو عبدو أمامي، أرد على صباحه، أشرب

فنجان القهوة الذي وضعه أمامي ثم أجر قدمي وأغادر المقهى.

أين أتوجه؟ تساءلت.. إحساسي بالمطاردة ظل يلازمني، قادتني خطواتي إلى البساتين القريبة في منطقة بعادين، حنين إلى الطفولة دفعني لأن أكون قرب ضفاف قويق الذي يعبر البساتين.. تذكرت عمي الحاج أحمد جمّال قريب أمي.. قلت: أمضي بعض أيام الصيف عنده.. الرجل رحّب بي، أخبرته بموت أمي، تأسف وترحم عليها، قلت: أنا ألجأ إليك.. وفاتحته بالسبب، عرضت أن أساعده في أعمال الجني والعلف.. خجل من أن أكمل كلماتي، ووافق على كل ما أقول، وتركني أفعل ما أشاء كما أشاء، فأنا من رائحة الأهل..

مرت أيام هاجسة، تصفحت خلالها الماضي وازداد يأسي، اتسعت الهوة بيني وبين الحياة الأخرى، حياة البشر.. أنام وحيداً آخر النهار، أنهدُّ من التعب في الغرفة المنفردة في طرف البستان، في الصباح أنهض على صوت الديكة، أجمع البرسيم للأبقار، في الظهيرة أسبح في البركة الأشبه بالحوض، تتجمع فيها مياه الغرّاز ثم تتوزع لتسقي المساكب.. أملؤها فتشرب الدواب.. لكن أياماً أخرى تمر يتهيأ لي خلالها فيض من السلام الداخلي، فقد وجدت أن البستنة بحد ذاتها تجربة روحية، يمكن أن تهدئ الأعصاب المتعبة وتطرد الخوف وتقاوم ضعف الذات.. على أية حال كان صيف من التخفي التام قد مر، في نهايته سأعود إلى المدرسة محتقناً بالفزع والترقب، أعود كمن يساق موقناً إلى نهايته، فها هو الأستاذ عبسي يقول بمجرد أن يراني:

– يا رجل!. أهذا أنت!.. أين كنت طوال الصيف؟ لا أدري إن كنت قد سُئلت عنك مرة، أو عن غيرك ربما..

وتوجه إلى المعلمين:

– على كل حال أرجو أن يفيد كل منكم في المرات القادمة عن مكان إقامته الدائم، سواء في أيام الفصل الدراسي أو أثناء العطلة الصيفية، هذه دواع أمنية ولصالحكم بالطبع..

شكرته فيما كانت ساقاي ترتجفان، مستاءً ومرتعباً من تلميحاته، دخلت الصف.. لم أعرف كيف أبدأ وماذا أقول! ثم ما جاء بعد أفظع، عندما وقفت بين زملائي المعلمين غرقت في بحر العيون، في لطمها ورشاشها مثل الإبر، حاولت ألا أقترب منهم متحاشياً أي كلام أو سؤال حتى عن الحال.. أنهيت دوام اليوم الطويل وخرجت، أطلقت ساقيَّ للطرقات، تعبت، تعبت وجعت، جلست في مقهى، طلبت وجبة من مطعم قريب، بقيت منغمساً في ضياعي حتى أمسى المساء، خرجت إلى الليل، وسرت في الظلام محاولاً أن أجد وجودي في سيري..

أمضي ليلتي في البيت متوجساً، إنها المرة الأولى التي أعود فيها إلى غرفتي منذ شهور.. كان كل شيء هناك ميتاً ومغبرّاً.. قلت: ليكن ما يكون، يبدو أن كل شيء قد انتهى، أو ربما نُسي..

في اليوم التالي أنا في المقهى ثانية، كنت على موعد مع الأستاذ زيد المحمود، الذي كان قد تلقاني في الصباح على باب المدرسة، وقال بعد السلام برجاء:

– أرى أن نتحدث على انفراد في أمور تخصك وتخصنا جميعاً في هذه الظروف.

جلست أنتظر قدومه، فكرت أن أمضي فلم يعد بي رغبة أو طاقة على تحمل الانتظار، لكن ها هي عيون تكاد تأكل من عيوني، أحد الجالسين على طاولة قريبة يغرس عينيه في وجهي، يحرك كرسيه

ليكون قبالتي، كأنما بقصد أن يكون منصب النظر عليَّ بكل تلك الصفاقة، لم أعد أفكر بالأستاذ زيد، تساءلت من يكون هذا الذي لا يريد أن يرفع عينيه عني؟ لكن زيداً وسط فزعي فاجأني بحضوره، انتشلت نفسي قليلاً من نظرات الآخر وأنا أرحب به، يجلس، قبل أن يسأل عن الصحة والأحوال، يلاحظ:

– تبدو قلقاً!.

أبتعدُ عما يشغلني في تلك اللحظات، وأعود فأرحب به وألملم أفكاري المبعثرة لأحدثه، لكن لا حيلة فالآخر يظل يشغلني..

رشفت من قهوتي، عدت ورفعت عينيَّ، رشقني الآخر بنظرة أكثر تحدياً وحِدَّة.. تهت عن حديث الأستاذ زيد، لحظات قررت بعدها أن أتجاهل تماماً نظراته الوقحه المهددة، أنشغل مع زيد بحديث ما.. لكني أعود.. وكان الأسوأ قد حل، أدار الشاب كرسيه ولف رجلاً على رجل وصار كأنما في مواجهة تحد.

بدأت أتساءل عما إذا كان منهم، لكن لماذا لا يبادر إلى اعتقالي، عدت فقلت: لعله يشبّهني بأحد أو ربما هو مجنون أو طالب ثأر أو مهووس جنسي!.. أصبحت نظراته الملحة تشي بسر مكتوم، شديدِ التخفي والإلغاز، فجأة ينهض، يضع في يد الجرسون نقوداً والعينان مشدودتان نحوي، يمضي.. أعطاني ظهره، عاد فالتفت مسدداً نظراته، ابتلعه الباب، اختفى وراءه، اختفى اللغز.. وكنت قد انقطعت تماماً عن حديث الأستاذ زيد، كدت أصارحه بما يقلقني، إذا كان حقاً يهتم بي، فلا أقل من أن يعرف ما أعانيه في هذه اللحظات، من وخز العيون والملاحقة الصريحة. أتطلع إلى الخارج ثانية فأراه من الرصيف الآخر ينظر نحوي

بتصويب لا يخطئ. السر يصير الآن بحجم قلقي، أبعاده باتت كأبعاد روحي الملتاعة.. حاولت أن أتذكر شذرات من كلمات الأستاذ زيد فيما يخص شخصي، ضاعت كلماته في دخان المقهى فيما كنت أتيه في نظرات الآخر المفترسة. بصعوبة استعطت أن أنتشل نفسي وأفهم فحوى كلمات زيد التي ترجوني أن أبلغ جماعتي التأكيد على ضرورة إصدار بيان مشترك يوضح الموقف مما جرى ويجري حتى الساعة.. عدت أحاول إفهام زيد أن صلتي بعبد القادر وإبراهيم باتت مقطوعة، وأني لا أستطيع حقيقة أن أفيده بشيء، لا بل إن ظنونه تذهب بعيداً إذا عدَّني على علاقة مهما صغرت بالأحداث الجارية.. ينسحب زيد وهو غاضب يرميني ورفاقي المزعومين بالتزمت وضيق الأفق والسلوك الأرعن الذي لا يحسب أي حساب لمصلحة الوطن..

فيما بعد دفعني الحصار لأن أسير طويلاً في شوارع المدينة فأحس بروحي تختنق، ووصلت لأن أطوف في الشوارع والمنعطفات وفي الأحياء القديمة بلا غاية، كل ما يهم ألا أمكث في مكان ما، ألا يعرف أحد عنواناً ثابتاً لي.. ثم في مرة أعود فأتذكر وصية شيخي القديمة، فأدخل مقهى السعد بعد غياب وساعات من التسكع الطويل، وبحكم الارتياد المتواصل فيما مضى، صرت أعرف بعض الوجوه، أشاركها الطاولة، في كثير من المرات أتشاغل عن الحديث والوجوه المستطلعة بالنظر إلى الخارج عبر الزجاج العريض، اليوم دخلت في الزحام وفوضى الأصوات والدخان، كالعادة صوبت الأنظار نحوي، أما أنا فمسحت الرؤوس المظللة بالسحب والأوهام وحرت أين أجلس.. استدرت برأسي أبحث عن مكان، تحاشيت النظر في العيون، استدرت وهممت بالخروج، الأفضل أن أقصد مقهى

آخر.. لكن في اللحظة الأخيرة هاهو المكان يشير إليَّ، يـدعوني، تقـدمت من الطاولة المنفردة ومن جليسها الوحيد، نظرت إليه بدهشة الظفر، اتسع التطامن في قلبي، كأني أمام هدف سعيت إليه، نظرت في النائم أمـامي، مَحْنيّاً على الطاولة ينفث أنفاس الغفوة، أطلـت النظـر كأنمـا لأتأكـد مـن سباته، وبثقة أزحت كرسيًّا أمامي، جلست، عدت وتأكدت أن جليسـي ما زال نائماً، وأن نومه ربما سيطول، وحدَّثت نفسي: فليطل نومـه أكثـر وأكثر، هذا ما بحثت عنه، وقد وجدته الآن. فبالنسبة لي إذا كان لا بـد من صحبة فما أجمل صحبة النيام!.

* * *

٣٠

وجه أمي لا يفارقني، أراه في كأس الماء التي أشرب، كنت عندما أتخفى أحرص أن يبقى مكاني مجهولاً حتى عنها، وأظنها طوال تلك الفترات كانت تتعذب وتسأل طويلاً أين أكون، كانت قاصمة ظهري، أسرق اللحظات التي أراها فيها ثم أختفي.. أما بعد أن رحلت فقد صرت لا أعبأ بشيء، حتى نفسي وجدتها رخيصة، فلماذا الحرص ولماذا العذاب وفي مشيئة الله كل شيء قد حُسم.. وعلى أية حال كانت الإقامة في البستان قد حمتني طوال الصيف، أما الآن فبت في خط المواجهة، فأنا في المدرسة كل يوم، وكل يوم يمضي أجده غنيمة أضيفها إلى غنائم سبقت، لا لشيء سوى أنه مر بسلام، وأكثر أوقاتي بعد الانصراف صرت أمضيها متسكعاً في الشوارع أو في المقهى أو ماكثاً في بيتي على السطح أتوقع ظهورهم، كاشفاً منطقة الحيدرية بالكامل، ومستعداً للهرب عبر الأسطحة.

ظل وجه النقيب رسلان يظهر لي، أمضيت الأيام الأولى بعد اختفاء إبراهيم خائفاً استرق النظرات، عدت أرسم صوراً لاعتقالي، كأن أهُمَّ مرة بصعود الباص المتجه نحو المدينة، فإذا باثنين من ورائي يدفعان بظهري، أحدهما يهمس في أذن السائق، فيتم إنزال الركاب في أول الطريق، ويقود السائق الباص إلى مفرزة الأمن السياسي.. النقيب رسلان سيظهر في المفرزة وينالني بلكمة عاجلة، سرعان ما سيواجهني بأكاذيبي، بإنكاري أي معرفة بعبد القادر، سيلعن الساعة التي حاول

فيها أن يساعدني، وسيكون التهديد لي ولأبي صاحب المكتب العقاري، ووعد بأن أذوق ما ينسيني حليب أمي، وسيضيف وعداً آخر يمنيني فيه بقبو لا يرى شمس الله.

أو أتصور أن أستدعى إلى الإدارة ذات صباح، فأجد ثلاثة منهم في انتظاري، سأرتجف وأنا أنظر في وجه المدير الأستاذ عبسي مستفهماً، سينظر إلي بوجه جامد ويظل صامتاً، وأسمع أحدهم يقول:

– أستاذ مطيع إذا سمحت أرجو أن نغادر المدرسة بهدوء..

هنا أفهم أني مطلوب لتقرير صلتي بعبد القادر الهارب، ومعرفتي ببكور الذي قتل في الزاوية على بعد خطوات من فراشي، وعلاقتي بإبراهيم الذي اختفى، وملابسات وجودي في الزاوية برفقته ورفقة الشيخ حسيب، هناك سأقول ما أقول، ربما ستمر لحظات كأنما يجد المحقق أني لا أختلف معه في شيء لأني أساساً لا أخفي شيئاً، أنا مجرد مريد من أتباع الصوفية، لا أرفع سلاحاً في وجه أحد ولا أهدد نظاماً أو دولة، وإذا كانوا قد وجدوا أن سيدي الشيخ جابر رحمه الله متهم فأنا متهم!. بالتأكيد سأقول كل ما أعرفه عن بكور مراد، وسأملي إفادتي عن إبراهيم، لا جديد، كل ما أعرفه أنه من قعدة المساجد، وهؤلاء منتشرون بكثرة يا سيدي، لا يكاد يخلو مسجد من واحد منهم أو أكثر، سيسعفني ما أفيد به عن صمته وانزوائه، والحقيقة أن الشيخ حسيب كان قد حدثني عن إفادته، سيكون منفذ النجاة لي عندما أكرر الإفادة ذاتها، ولم يكن بالتالي ما يمكن أن نعرفه عن أفكاره أو أفعاله، أما عبد القادر الذي ما عاد يظهر أو يصل أي خبر عنه منذ الأحداث الأولى، فسأنفي أن أكون قد التقيت به، أو حتى كنت على علاقة به من أي نوع، وإذا كانوا يعلمون شيئاً آخر فليواجهوني به.. سأقول تحديداً: إن معرفتي به لا تتعدى

معرفة أي من الزملاء المعلمين، فلماذا أنا بالذات عليَّ أن أعرف وأدلي بمعلومات عنه.. ربما سيمضي على اعتقالي أيام، لكني سأخرج بعدها لأجد روحي قد تحررت، وامَّحى الخوف من قلبي.

أقول ربما ستجري الأمور على هذا النحو وربما بصورة أخرى، وأطير في الحال إلى الزواية، حيث الشيخ حسيب يقبع وحيداً، أشعر أنه كل ما تبقى لي هناك بعد رحيل سيدي الشيخ جابر.

في مكانه على البساط وجدته أشبه بالمريض، برزت في أيام عظام وجهه وغارت عيناه، كان كمن يتجرع خوفه. قال حتى قبل أن يرد سلامي:

– يبدو أن الأمر يكبر كل يوم يا مطيع، الآتي أعظم!

أخبرني أنه عاد اليوم في الصباح من التحقيق، وعدَّ مرات ثلاثاً دعي فيها، ويظن أن الأمور لن تنتهي عند هذا الحد.

كانت كلمات الأسى التي فاض بها قد غزتني فعاد الوجل يلازمني، ووجدت نفسي بعد أيام من زيارته أذوي بعد أن فقدت شهيتي لأي طعام، بدأت أوثر الصمت، أتغيب عن المدرسة أياماً، أقول في نفسي فليكن ما يكون! أعود فأنتشل نفسي من الغرق في أوحال الخوف، وألتجئ إلى الزاوية مؤثراً القرب من الشيخ حسيب، وتشتد رابطتي بشيخي الراحل على الرغم من الوحشة التي أحسست بها وأنا أحضر ختم العشية وذكر الخميس وأنظر بعين الأسى إلى الصدارة التي حل بها الشيخ محمد بعد رحيل سيدنا.. إرادة ما تعود لتنبت في أعماقي، تتفتق ناعمة ثم تورق.. أعود فأهجر الزي المدني الذي كنت قد ارتديته، وأدخل الحضرة بالجلابية، ثم أطلق لحيتي وأستر رأسي الأجرد بمنديل أبيض..

تمر أيام وأحس أنني بدأت أتخفف من رعب مقيم، يجالسني في غرفتي الوحيدة، يصحبني إلى المدرسة، يتناول طعامي معي، يسبقني إلى الفراش دون أن ينام أو يتركني لأنام، ثم يكون ما عددته مفاجأة عظيمة عندما يستدعيني الأستاذ عبسي ذات صباح ويبلغني قرار مديرية التربية بنقلي إلى ريف المنطقة الشرقية. في الحال تغمرني راحة كبرى، فقد خرجت من ضائق لم أكن أتصور إمكان الخروج منه على هذا النحو، أتلهف لمضي يومي في المدرسة، ثم أسرع بعد الانصراف إلى الشيخ حسيب أخبره، فيبتسم بوهن معبراً عن فرحته بتباشير نجاتي، ثم يستوقفني قبل الوداع ويغمض عينيه يتذكر، ثم يذكر لي اسم أحد أهم مريدي الطريقة هناك من نظراء سيدي الشيخ جابر العثمان في المنطقة، ليكون شيخي وسندي.

في صباح اليوم التالي أحصل على قرار الانفكاك وأغادر حلب سريعاً، حتى دون أن أودع أبي وإخوتي، ويسعف الحظ حقاً بأن ألتقي هناك بسعدي الباهر الشيخ نجيب العندمي، الذي يرحب بمقدمي، ويعدّني عبقاً من أثر شيخي جابر العثمان رحمه الله.

أنزل أيامي الأولى في ضيافته، فيبدي لي من الحفاوة والكرم ما أدهش له، وأرى جلياً كيف بدأ تربيتي بالعناية ودوام الملاحظة.. وتمر أيام أخرى فأحسه بكل جوارحي يسري فيَّ فيتبدل حالي، وتعود إليَّ روحي التي تاهت مني بعد فراق شيخي..

أمضي أوقاتي أنهل من بركات الشيخ نجيب، بعد أيام أفوز بالإجازة عندما يعطيني الإذن من لدن علومه، ويدفع بي إلى ريف آخر أبعد، بما يسمح لي بالطبع أن أظل على صلة بمدرستي المتنقلة خلف العرب الرحل. أمضي الشهور الأولى أرود مجاهل قرى لا أعرفها ولم أسمع بها،

وفي مرة يخرج الأهلون لاستقبالي مصطحبين جملاً خصص لركوبي، ويروي أحدهم رؤيته المبشرة بظهوري، وأبدأ بالدخول في الحالة الصوفية الخاصة بي المميزة لطريقتي، وهي التنقل والسير المتفاني في البوادي وبين القرى، وأعرف من حينها بالعبّادي السيّار، وتبدأ بعد ذلك رحلتي الأهم، كشيخ طريقة في العقد الخامس، أبدو بجلالي مصدر كرامات لا يجب التفريط بها من كل من رآني، ويأتي سديداً رأي شيخي العندمي، بأن يقر قراري في مكان يجعل أمر الصلة بي ميسراً، فأعكف في الأيام التالية على تلمس الهدي، حتى يتيسر لي العثور على ما كنت قد بحثت عنه طويلاً، فها هو المكان الذي وجدت فيه المرام، إذ طابق ما نشده القلب ورسمه الخيال.. ففي ناحية منعزلة من قرى الشمال الشرقي، وقرب شجرة ضخمة، وقفت أمام مقام وليٍّ فارغ من أي ضريح، وقفت أنظر، وتملكني الذهول وأنا أرى الفراغ يناديني لأملأه.

في بضعة أيام أصلحت المكان، ورششته بالكلس الأبيض، وأقمت فيه بلا تردد، وبدأت ألمُّ حولي الأتباع من القرى القريبة والبعيدة.. أعلمت شيخي العندمي بصنيعي، فأعطاني الإذن بالدعوة والسلوك، ومن حينها ابتنيت على رأس تلة قرب المقام ما يشبه التكية، وفيها الزاوية لإنشاء الأذكار والخلوة، ساعدني في ذلك حباً وكرامة عدد من أحبتي وأصفيائي، بذلوا الأموال بلا حساب، تفانوا في أيّهم يكون المقرب والمحمود عندي، والحقيقة أن كلماتي لم تكن السبب في ما نلته من حظوة ومكانة عند كل من رآني وعرفني، الغالب أن الإلهام الرباني هو ما دفعني لأفعل ما فعلت، فضلاً عن بركات جدي وأشياخي، نفعني الله بهم وأجزل فضائلهم..

البركات التي أعني كانت مفروشة أمامي، شهدتها ناصعة تشير إلى

أمانة تلقى في عنقي، وقد بدأ الأمر على هذه الصورة.. كانت الشجرة الوارفة عند المقام قد جذبتني في يوم وصولي، فقلت في سري: من خضرتها أبدأ. جلست أول الأمر تحت ظلها وانتعشت ببرودة الصباح، ولا أدري ما إذا كانت المصادفة وحدها، أم مشيئة الحق في ذلك اليوم قد جعلتني أصل في وقت وافق يوم الشجرة المبارك، حيث علمت أنه يومٌ تتقاطر فيه جموع الناس من كل مكان في الجزيرة لينهلوا من رحمات ضافية غامرة، ويطلبوا ما يشاؤون فيُعطوا..

بعد ساعة من وصولي بدأ خلق الله يتوافدون، كان الوقت أول الخريف، ولكن الواضح أن الشجرة كانت من النوع الذي لا تفنى خضرته، وقفت أمام جلال الأوراق الغضة وهِمْتُ، ولا أدري بعدها كيف امتدت يدي فقطفت ورقة، وتذوقها فمي، نظر إليَّ الآخرون، تجمعوا حولي وتهامسوا، ويبدو أنهم وجدوا ما فعلته جديراً بالاقتداء، إذ شهدتُ الأيدي بعدها تتسارع في خطف الورقات الخضر، تنتزعها عن جسد الأغصان التي راحت تتخفف من أوراقها وتتعرى، فيما كانت الأيدي لا تزال تتخطف ما تبقى، والأفواه تتذوق رحيق الخضرة المكنوز في أوراق الشجرة، لتصير بعد أقل من ساعة عارية الأغصان كما لو أنَّ جراداً مرَّ عليها.

من ساعتها حف بي المريدون وتحدثوا بفضلي، ولاحت لي بسمات شيخي العندمي كطيف رحيم، فتلقيت البشارات الأولى وهام قلبي..

وها أنا في مفازتي البعيدة، في منقطع قاحل، وقد طاب لي المقام، هذا ما أراده شيخي ووجهني إليه.. صحيح أني أصبحت في أقاص منسية، لكن ما كان للبعد أن يحجب المحب عن الحبيب، عن أتباعه ومريديه، فهو دائم الحضور، يساندهم بروح القوة وقوة الروح، وكان

شيخنا العثمان كثيراً ما يقول: البعد والقرب عندنا واحد، من لم ينفعك بعده لم ينفعك قربه.

والحقيقة أنني على الرغم من ارتحالي بأمر الشيخ العندمي إلى هذه الأماكن، وعلى الرغم من كل ما لقيته في ضيافته من فضل العناية والكرم؛ بقيت أستشعر نفحات جدي العبّادي الأكبر، موصولة برضا شيخي جابر وبركاته الحاضرة.. فوجودهما ظل ماثلاً في كل ما أفعل وما أقول، بل بت أحس أنهما معي أينما حللت، فلا يظنن أحد أني كنت أفعل ما أفعل بهدي عقلي ووحي خاطري، هذا إن حصل فبفضل عميم من الله، وبهدي من جدي الأكرم وسيدي الشيخ جابر، وبوصل وملاحظة لا ينقطع خيطهما مهما طال وامتد.

* * *

٣١

تمر شهور وتصير الأحداث التي شهدتها في حلب مجرد ذكريات تنأى وتلبس أثواباً من الحجب، في وقت بدأت أستشعر فيه الطمأنينة، بل الحكمة الكبرى في كل ما حصل. يزورني الشيخ العندمي في الزاوية وتحصل بحضوره ليلة من الأنوار والبركات الطافحة، يتحدث على الملأ عن سيرة أشياخي، ثم يخصني بكلمات تجلو مقامي في الأعين والقلوب، كَوارثٍ مبارك لفضائل العبّادي الأكبر.. في النهاية يتمنى تمام الاستجابة والبركات بدعاء الختام مني، وأقول في نفسي: تلك ساعات نادرة في عمر الزمن، لا يجود بمثلها إلا كما تجود السماء بغيث في رابعة الصيف..

تتالت زيارات العندمي لي، وأصبحتْ الوعدَ الأحلى، فقد وجدت فيها الرعاية الكبرى والعناية الموصولة، وعلامة ذلك أن اسمي بدأ يعلو في الآفاق، بينما يتعاظم في كل يوم المريدون حولي، ويزورني أرباب الطرق الأخرى، ويحصل الأنس، وتفيض الساعات بعذوبة النفحات، أوقاتي امتلأت، فأنا أشهد الولائم مع إخواني، ويتخطفنا السادة والوجهاء وشيوخ العشائر وتجار الماشية، يكيلون لنا من العطاء ما يجعلنا نرفل بأثواب الرخاء.. وتغدو أيام المدرسة بالنسبة لي ذكريات لا أحب أن أستحضرها، وكنت قد أوكلت أمر عملي إلى خضر العليوي، وهو أحد أتباعي المتفانين في حبي، وكان يحمل الشهادة الإعدادية، وقد أبدى حماسته ليقوم بالمهمة عني.. والحقيقة أنه كان كفؤاً فقد عرف كيف يتابع تنقل الرعيان والبدو فيكون بينهم معلماً يلقن أبناءهم ما تيسر من دروسي أنا وما أوصي به أو يجري على لساني..

وأتساءل وأنا أفكر في ما حصل بعدئذ: هل يمكن للدهر أن يسلس قياده لابن امرأة؟! وهل بمقدور كل تدبير أو حرص أن يرفع بلاءً أو يرد مشيئة! وتحضرني الآن ابتلاءات الصالحين ومحن الرجال، فأنظر إلى ما دهمني وتحصَّل لي على أنه فضل عظيم لا يرقى إلى نيله إلا المصطفَوْنَ ذَوو الأهلية والهبات، إنها الإرادة العلية نزلت حروفها في اللوح المحفوظ، وبات علينا أن نشهد فصولها وتتابُعَ حلقاتها، من ذلك أن يشاء الله أن تلاحقنا الفتنة أينما حللنا، إذ تمر شهور أخرى ويصبح شأننا مفضوحاً وساحتنا مرصودة، حتى يكون ما يكون، عندما تداهم قوات من مخبريهم المقام فتذْرُونا كالهشيم، متحسسة الخطر في أي التفاف من أي نوع.. فينفرط عقدنا، ويوقع المختار تعهداً بعدم السماح لأي تجمع إلا بتصريح مسبق من الأمن.

تغزوني الخيبة وأعود فألجأ إلى وحدتي، أحاول فيما بعد أن أرمم ما انصدع بيني وبين الناس، لكني لا أفلح، يبقى لدي بضعة أنفار من المريدين، ظلوا يزورونني سراً، بل أقول بقوا ملازمين لي سائرين على هديي، وأنا جعلت منهم الأرض الصغيرة التي أحرث، رحت أبث فيهم أسراري الخفية، وأرويهم من طيب ما أنهل، بعد أن وجدت فيهم الرمق الأخير والصلة التي تصلني بفضل الرسالة وعظيم الأمانة، فيسري السر فيهم الواحد بعد الآخر، وتهيم قلوبهم بي، وتضيء بمشربي، وتطيب بحبي، فآمل أن يتسابقوا – على قلتهم – في تكثير سواد أهل الحق في زمن المحنة، وتكون لهم مني اللحظة الطيبة والنظرة المسعفة، ثم المدد كل المدد من الحق سبحانه، وبهدي من رسوله.. ثم الرعاية والعناية من لباب سري ومن غياهب عتمتي.

وكل ما حصل بعد ذلك بدأ من تلك الليلة.. كنت أجلس مع من تبقى

من أصفيائي الخلص أتلو أوراد ليلتي، أنتهي بعد قليل لأدخل في رابطة تجمعني بشيخي العثمان، عدت أفيء إلى ظله الظليل، وتحصَّل لي من النفحات ما هزَّ جسدي كورقة وحيدة على شجرة، وها أنا أنهض إلى الذكر فأغيب وسط العتمة في أسرار علوية، أوقع اسم الله على هدي المحبة المصفاة، وتتصاعد الأصوات من حولي ثم تشتد وتعلو، تتوحد جميعها في ترديد الاسم الواحد، يصير وقعه في سمعي أزلياً، يتصاعد أكثر فأكثر حتى أصل به إلى النهاية بنبرة عالية تستجيب كل الأصوات لها، لحظات قليلة تتوقف في أعالي الخشوع السرمدي، ثم تسطع أضواء الفوانيس فأرفع بصري فتقع عيناي على إبراهيم.. لم أستفق من الخشعة بعد، لكني أنظر وأديم النظر غير مصدق، شيء ما يحل ساقيَّ، ينظر إبراهيم في عينيَّ ببسمة غامضة، أرفع يدي بالتحية، فينحني إبراهيم بالابتسامة ذاتها، يتقدم مني ونتعانق، كان في صحبته عدد من الشبان، قدموا التحية بتقشف، عرفت من بينهم مصطفى البيج، نظر إليَّ بحذر، وقفزت إلى رأسي صورة بكور مراد مقتولاً.. وغرقت في ذهول للحظات، ثم عدت أحدق بإبراهيم، تسأله عيناي دون الكلمات، نظرت إليه كمن بعث بعد موت، عدت وتساءلت: ما الذي دفعه خلفي، كيف تعقب أثري؟ أرحب به وبرفاقه ثانية، أسأله كيف عرف الطريق إليَّ.. يجيب:

– كيف لا أعرف واسمك صار علامة كل طريق!

نمضي أول الليل في حوار تنفتح فيه صفحات كنت أظن أنها انطوت، لكن شيئاً من ذلك عند إبراهيم والشبان لم يكن قد انطوى.. كانوا ما يزالون يعتصرون آخر ما تبقى من نزيف تلك الأيام..

انتهينا من العشاء وعدنا إلى الأحاديث، جماعة إبراهيم سرعان ما خلدوا إلى نوم عميق، أنا وإبراهيم نظل ساهرين، هو يستفيض في ذكر ما

جرى، ويقف عند قصة التخفي التي قادته أخيراً إلى هذه المجاهل، قال إنه سأل عني طويلاً حتى وصل، بعد أن عرف خبر نقلي من الشيخ حسيب.. تاهت بنا الأحاديث، ونهلنا من الأعماق الصادقة لكلينا، هذا هو إبراهيم، وهذا ما كان شدني إليه.. يكلمك فيضع قلبه أمامك.. في تلك الليلة لم يكن مجرد إنسان يتحدث، يحاورك وتحاوره، يؤثر بك وتؤثر به.. بدا حينها أن الكلمات قد أصبحت أدوات قادرة على صهره وتطويعه وتشكيله، فاض بها من أعماق مستلبة ومقهورة ومشبعة بالألم والخيبة.. أصبحت كلماته مرعبة وفاتكة، وإذا كانت قد جرته إلى ساحتها فقد عرف هو بدوره كيف ينعطف بها في أولى تباشير الفجر إلى ساحته، حيث اللوعة وحافة الجنون، بدت كلماته حادة مؤثرة، محفوفة بالألغاز، وفي زحمتها ضاع السؤال عن بكور. استوقفته مرات لأني تهت عن المرام.. في لحظات ما أحسست بخطر وجوده مع جماعته هنا.. سألته فجأة عما إذا كان ينوي أن يغادر في الصباح، تجاهل إبراهيم سؤالي، وفي لحظات أخرى راعبة صار كل ما حولنا يحفه الخوف، الإحساس بالخطر، تحدث إبراهيم عمن خانوه عندما قذفوا به في هذا المخاض ثم اختفوا، استطاعوا أن يجدوا من يشق لهم طريقاً إلى الأردن ثم السعودية، هو يعلم يقيناً أن كل شيء قد انتهى الآن، فلماذا يظل هنا هو ومن معه، هل يبقون في انتظار الموت؟ المشكلة أن الخلايا التنظيمية تمزقت، وأصبح كل اتصال ممتنعاً، وكل هذه البوادي الممتدة أصبحت سجناً كبيراً، فإلى أين يمضي؟ ومن جوف العتمة لاحظت ابتلال عينيه، هدّأته وظل جسده يرتجف، تكلم عن أشياء ووقائع، ذكر أسماء لا أعرفها، امتدح أشخاصاً وشتم آخرين.. أفهمني أخيراً أنه يطلب مساعدتي في أن ينتهي من هذا الرعب الذي يطوقه، قال إنه اتفق مع بعض البدو والرعيان ووعدوه بأن

يسهلوا هربه إلى العراق، عبر الحدود من جهة الموصل، هؤلاء أخذوا نقوداً واختفوا، طلب مني أن يكون في ضيافتي أياماً، قلت بتوجس:

– أنت تعلم! الخطر يحاصرنا جميعاً، ووجودك هنا ربما يثير الشبهات..

في الصباح يزورنا المختار، ويطلب أن يتعرف على الإخوان، بدا متحفظاً وهو يسأل عن الضيوف، إبراهيم قدم نفسه مستعيراً اسماً آخر.. لا يبدو على المختار أنه ارتاح لوجود هذا الجمع يحل في القرية على هذا النحو الغامض، صمت قليلاً كمن يلوك الريبة في رأسه، ثم عرض بتكلف أن يكونوا عنده على الغداء، لكن إبراهيم بدا حذراً ونهض معتذراً ومستعداً للرحيل، وتأتي اللحظة الحاسمة عندما تقع عين المختار على الأسلحة التي ظهرت على الخصر تحت الثياب لمرافقي إبراهيم.. وفي الحال يوجه المختار سؤاله:

– ما عرفنا الجماعة من وين جاي ولوين تقصد؟

ارتبك إبراهيم للسؤال المفاجئ، لم ينتظر المختار جواباً بل نهض وأسرع في الخروج.. دقائق أخرى تمر، نحس أننا أصبحنا في قلب الحيرة والخطر.. أنظر في عيني إبراهيم، أتفاهم معه دون كلمات، ينهض هو ويعد أشياءه مع الشبان للمغادرة، أود أن أسأله إلى أين، لكني عرفت ما كان يعانيه في تلك اللحظات فأحجمت عن السؤال. أودعهم، وأضم إبراهيم إلى صدري طويلاً، يرمقني هو بحسرة تقول كلاماً، ثم يلتفت ويغادر.. أتابعهم وهم يبتعدون.. وفي تلك اللحظات، ومن الجهة ذاتها، تلوح في الأفق سيارة عسكرية تشق الطريق مسرعة باتجاهنا، أرى إبراهيم يتراجع مع الفتيان، وفي الطريق القادم من القرية الشمالية تظهر سيارة أخرى تتقدم، إبراهيم يصيح:

– إنهم يحاصروننا.

يسرع مع الشبان نحو بيوت القرية، وقبل أن تحتويهم الدروب الضيقة ينهمر الرصاص من السيارتين سريعاً وغزيراً خلفهم.. إبراهيم يلتفت، يخرج مسدسه ويطلق، الجميع يردون على مصدر النيران، تصل قوة من جهة أخرى، يندفع إبراهيم مع جماعته نحو حقل محصود ارتفعت فيه بعض أكوام التبن، ينكشفون للحظات للطلقات المجنونة، يسقط بعضهم وترتفع صيحات، أصبحت تلات التبن متاريس تصد القذائف المستعرة، يتم تبادل الطلقات في لحظات تقترب من الهلاك.. تظهر سيارة مجهزة بمدفع رشاش، يطيح قاذفها بأكوام التبن التي تطاير منها النثار والغبار، ومن خلفها بدت أجساد الرجال هي الأخرى تتطاير، وانهمرت طلقات أخرى استقرت سريعاً وبتصويب لا يخطئ في جسد إبراهيم.. في لحظات تالية يتساقط الآخرون، ثم يهدأ الرصاص ويتبقى اثنان من الجماعة يرفعان أيديهما وسط الأرض الجرداء ويتقدمان، المختار يتقدم مني ويسأل عن معرفتي بإبراهيم والشبان، أنكر أن أكون رأيته قبل اليوم..

* * *

٣٢

أمضيت اليوم التالي أتخبط بكل هذا الموت والدماء التي سالت في الحقل، أحاول يائساً أن أستبعد شبحاً ما بات يحاصرني بعد مقتل إبراهيم والشبان، وبدا أن الأمور قد سارت في طريق منسدة.. أمضي بقية النهار وحيداً، في الليل لم أنم، لم تؤنسني أحلام، رسمت صوراً للنهاية التي تقترب.. يأتي أحد المريدين منسلاً في الظلام، ويخبرني بأنهم مازالوا يحاصرون القرية ويفتشون البيوت ويمنعون التنقل أو المغادرة، ثم يسر في أذني بأنهم اقتحموا الزاوية وفتشوا المقام، من هذه اللحظة أوقن أن ما سمعت نهاية النهاية، وأحس بطوقهم وقد أخذ يطبق على عنقي قبل يديَّ.

لم أفعل شيئاً، جلست أنتظر قدومهم، وكل شيء كان محسوباً كأنما بالدقيقة. أول الصباح يطل، أقرأ في نفسي عطشاً إلى كأس ماء، وأقول موقناً بأني سأتناولها في مكان آخر، أنهض وأتوجه خارج الغرفة في لحظة محسوبة، هناك يفاجئني الصخب، خرجت لأرى حشود أهل القرية، الصغار والكبار، النساء والشيوخ، ومن بينهم برز وجه المختار، نظرت نحوه ساهماً وغامت عيناي، ومن الجهة الأخرى رأيت سيارة (جيب) عسكرية تقترب، تتوقف ويندفع منها جنود ومدنيون يشهرون السلاح في وجهي، أتقدم نحوهم مرفوع الذراعين، وفي سيارة أخرى تصل أشاهد الأستاذ خضر الذي أوكلت إليه أمر تعليم الصبية، كان شاحباً ينظر نحوي بحزن. أسرعوا في وضع القيد في يديَّ، أنا أبدي استسلاماً كاملاً لمشيئة الحق، المختار يبدو مبتهجاً وهو يعلق على فمه بسمة ظفر.. أحدهم يخلع عباءتي

ويلقيها على رأسي فتغطي نصف قامتي، أتذكر في الحال القميص الذي عصبوه على عينيَّ في المرة السابقة.. أحدهم يدفع بظهري لأصعد السيارة التي تزمجر ثم تنطلق بي. عسكري يزيح العباءة عن عيني ويقول:

– يا با ودعْ الأرض والسما، الحين ينزلونك بجب ما له قرار.

عند وصولنا، لا أدري إلى أين، خرجت من ظلام العباءة إلى ظلام زنزانتي هذه، لم ألتفت إلى كلماتهم وشتائمهم، ولم أعبأ بأقدامهم وهي تتقاذفني، ثم بأيديهم وهي تدفع بي في البهو ثم تسحلني في الممرات المعتمة.. أنزلت إلى أسفل قبو، ولم تشأ عيوني أن تلتقط ما حولي، سوى رؤيتي لباب حديدي ينفتح، ويد تقذف بأشلائي إلى الداخل المعتم، تتبعها بالعباءة، وجدت نفسي وحيداً، لم أعلم أين اقتادوا خضراً.. بحثت عن ألفة ما، كما يحدث لي عند الحلول في أي مكان، ووجدتها في الظلمة، ففيها كانت هدأتي، وفي عتمتها وجدتني أشرق..

لحظات تمر في ظلام الزنزانة وتصلني أصوات واهنة، كانت تأوهات في الظلام، أو أصوات آلام، وتهيأ لي أنها أصوات الشيخ حسيب، انطلق صوتي ينادي باسمه، وفعلاً أسمعه يرد بصوت نحيل:

– أنا هنا يا مطيع، إبراهيم سيأخذنا معه حيث رحل..

وصمت.

في صوت الشيخ حسيب كانت ألفتي الثانية، وما عادت تغمرني وحشة، تلمست الجدران القريبة، تهالكت على الأرض أحدق في الظلام، تحسست بكفيَّ حشية من جنفيص خشن، تمددت فوقها وخلدت إلى راحة طالما نشدتها، إنها الوحدة من جديد، الوحدة المشتهاة، الوحدة الحلم، أثيرتي، ظلامي الأنقى والأعلى، وصلي وصلتي.. وحلَّ ليل من بعد ليل، وحملني الظلام على مركبة الذكرى، ثم حلق بي في سماوات

بعيدة، ووجدتني مرة أطالع وردي، وتسعفني الأحوال فأوغل في غيبوبة من فرح طاغ لا أدري باعثه، وفي لحظات نادرة، هلَّت علوية، تهيّأ لي وأنا في غمرتها السنية هاتف يدعوني أن أمحو سطور حياتي الماضية، ثم أخط صفحاتها من جديد، على النحو الذي أحب، وتهيأ لي أني الآن في قلب الحقيقة، حيث الظلام سلواي الكبرى، نعمتي المصفاة، وهبتها لي الأرواح التي سلفت، ووجدت سواي لم يعرف سوى الأوهام..

ها أنا أبحر في حلمي، فأرى كل ما سلف لا يستقيم لي، عليَّ أن أبدأ بداية أصنعها على هدي خواطري الحرة، كما يليق، أو كما كان يجب أن يكون.

ومن البداية أدرك كهدي ساطع أن حجرة الظلام هذه لم تكن يوماً عثرة في درب السالكين، ولن تكون بالنسبة لي، وفكرت حينها أنه لكي أسير وأرتقي عليَّ أن أحقق نصراً حاسماً على شياطين لا أراها حقيقة لكنها موجودة، أحس بها على الدوام تغزو حياتي، تسممها.. وعدت أفكر في يوم مسجد العثمانية، سرعان ما دهمتني الخيبة وإحساس مرٌّ بالخسران، قلت: لو أسعفتني الظروف وقتها كانت الخلافة في طريقها إليَّ.. وتذكرت تلك الأيام المعدودة التي بات الشيخ فيها ضعيفاً يندر ظهوره في الحضرة، بعد عودته من أقبيتهم، ورنوت إلى تلك اللحظات الحاسمة التي نشدتها طويلاً، كانت ستمر أيام لا يظهر الشيخ خلالها في المسجد أو في ورد العشاء، ثم في مساء ما – لو أني لم أختر الابتعاد أو لنقل الهرب – كان سيقدمني الإخوان لأكون مكانه، سوف أتردد ويلحفون في الطلب، ثم سأقف موقف شيخي، فتمتد الأيدي تتخطف يدي وتقبلها.. أو كان يمكن للأمر أن يحدث بطريقة أخرى، فأتصور أنه في مساء ذلك الصباح من يوم جامع العثمانية كان الشيخ سيفاجئنا بحضوره، ونحن نقف حشداً هائلاً في الحضرة ونشخص بأبصارنا

نحوه، لكنه يتجاهل الجميع ويتوجه إلى الشيخ حيدر، يطلب منه بعض الإنشاد، وقبل النهاية كان سيقف ويوقف الإنشاد بحركة من يده، يتقدم نحوي، سأنهض وأقبل يده، وسيمر بها على رأسي، ووسط النظرات المعلقة وانحباس الأنفاس، سيرفع الشيخ دمباكيته الخضراء من على رأسه ويلبسها رأسي، وهنا سيصيح الجميع: الله أكبر.. سيعرفون مغزى الدعوة، ففي لحظات ستكون الخلافة لي، ويتقدم الجميع على مرأى من الشيخ فيقبلون يدي عربون الطاعة، الشيخ يبتسم بارتياح، ثم يمد يده في صدره ويخرج خرقته الصفراء، يسبلها ويرفعها عالياً على مرأى من العيون، يقدمها إليَّ كتتمة للخلافة، بيديَّ الاثنتين سأتسلمها برفق، أطويها وأنقلها مرات ما بين شفتيَّ وعينيَّ، ثم أودعها صدري، وأخرّ إلى الأرض بين قدميه أبكي من الحال.. أو أتصور أن الشيخ كان قبيل رحيله بأيام قد خلفني على النحو الذي سبق، ثم وجهني إلى مكان ناء وقد أحس بخطر أن أكون مطلوباً أو يلقى القبض عليَّ فعلاً فيكون ذلك بمسؤوليته، وهذا حقاً أمر الوصاية والرعاية، بما يقتضي الحماية والإجارة، وإلا ما معنى أن يكون لك شيخ!.

أعود فأفكر في الخلافة التي تمت بطريقة لم تخطر لي ببال، عندما فوجئت بالشيخ محمد يلبس العمامة الخضراء، وتنهال القبلات على يده المدودة.. الشيخ محمد لم يكن أمر توليه في الحسبان، بل لم يكن حضوره بيننا حتى ذلك الحين يلفت الأنظار، لكن الذي حصل حصل..

على أية حال إذا لم يختر شيخي أن يرحلني للدعوة فسأظل مقيماً في المسجد، وستمر أيام تالية يبدأ الشيخ فيها بالتغيب عن بعض الأذكار، وسأجد نفسي وأنا أتلبس حال الخلافة، مدعواً لأن ألقي حكمة أو موعظة أو نادرة، وربما بدا لي أني وُضِعت في مواقفَ تستدعي مني فتوى أو شرعة، فأخشى أن لا أنهض للمهمة في وقت علمت ما كان ينتابني فيه

من فيوضات، وما كنت أنغمس فيه من لذائذ، فأرى أن أحدث إخواني وأجول في سير العارفين، أقطف لهم ثمار المواجد والبركات، سيحلو لي أن أقول لهم مرة جازماً:

– دعونا من القيل والقال، دعونا من كل ما يصدع الرأس في البحث والغوص والفهم، في التأصيل والتفصيل في المراتب والمقامات، إني أميل إلى دقيقة ذكر، خفي أو معلن، إلى لحظة تأمل وفكر، واستشعار نعمة وشكر، أكثر من ميلي إلى بذل جهد لفهم مصطلح، أو غوص عقيم في منزلق.. ألم تعلموا أن التصوف هو علم أذواق لا علم أوراق؟

ثم سأتبع ذلك بكلمات أختم بها جلسة العصر فوق القبور:

– هذه طريقنا وهذا مبلغ ذوقنا، والناس أذواق ومشارب، ولله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.

في مرة تالية سأقول:

– يا أبنائي إنه علمنا اللدني، أو لنقل الرباني، وإني أرى الناس ثلاثة، على ما رآهم عليٌّ كرم الله وجهه في حديثه لكميل بن زياد: «عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق.» وفي مقابل اللدني هناك الدنيوي، وهذا تحصيله حق وواجب إذا كان في الصالح العام، لكن لتعلموا أن العلم ليس في أن يشقشق المرء بفن يطيعه فيه لسانه، ويكذبه بضرر الناس فعله، إنما العلم ما رفع صاحبه بنفع الخلق على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وإلا فهو سلاح السارقين وقطاع الطرق.

ولا بد في كل مرة وعقب كل لقاء أني سأجد الاستحسان في وجوههم، بعد أن تكون كلماتي قد سرت فيهم واستقرت في الحشا.

بعد أيام أو شهور أو سنوات ربما، ستحين اللحظة الفارقة، سيدفعني أمر ما إلى حافة النهاية، لا يهم، فبالنسبة إليَّ ما دام الرحيل قد أزف فلا

بد من خلافة أعقدها لغيري، وسأجد خير من يستحقها الشيخ كامل أو الشيخ صلاح، سأعقدها لأحدهما وسط سرور جمع من المريدين الصادقين..

على أيّة حال، فكرت أنه من البداية لو حصل ما أريد فيجب ألا أبدو كمحدث نعمة في المشيخة، بل سيد القال والحال..

يمر الوقت هنا، لكن إحساسي به يكاد ينعدم، أصبحت رهن مشاعر منداحة في النفس، لا يحدها حد وليس لها أول ولا آخر.. أصبحت أحس هنا وسط سري المعتم بقوة لم أكن أتصور يوماً أنها يمكن أن تكون في روح كروحي، أحسستها تفد إلى قلبي على شكل أمواج لا متناهية من القدرة والجبروت، وهذا ما سأجده حقيقة يعكس مهابتي الحقة كإنسان لا متناهي القدرات، إنها مهابتي الخرساء السرمدية، مهابتي التي لا بد أنها ستكون موصولة بحبل من سبق من أشياخي العظام.

أعود وأفكر أنه لو كان تم لي ما أردت حقاً فسوف أحظى بأتباع كثر، وكنت سأستعرضهم وهم يمرون بي، وليكن تحت شجرتي الخضراء، شجرتي الموعودة بيوم عري في كل سنة، فهي التي ستشهد بفضلي، يوم الشهادة بالفضل، سوف تتصفح عيوني وجوه أتباعي، وربما سيبدون لي أشبه ببضاعة زهدت فيها، سأقرأ فيهم بلحظة واحدة كل أمراض الباطن من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية وحب ظهور ونفاق ومداهنة، وخضوع للمادة والقوة، وحرص على الجاه والمنصب، وربما سأقرأ في الآن نفسه خيبتي وفراغ يدي، فأتلهف حينها أن أفوز بواحد فحسب أجعله خلفاً لي، فذاك المراد، وأقصى الغاية والوداد..

وأمام هذا الفيض من القدرة التي عادت تدب في الجسد الذي لم يعد

كالجسد، لا أعدم أن أفكر أحياناً أنه قد قطع بي هنا حقاً، لكني لا أستسلم، وأجد نفسي مرات أتوجه إلى من لا أرى بصوت أردده في داخلي، كأن أقول:

– إنها البداية، وكل ما سبق من أيامي زيف وبهتان، بداية لمسيرة ستبدأ الآن ولن تنتهي، فبالله عليكم لا تكونوا مغفلين فتحسبوا أني انتهيت، عندما ألقوا بي بين جدران أرادوا لها أن تكتم أنفاسي، الحقيقة أني أصبحت الآن في برزخ آخر، غادرت دنياهم ولن أندم، عدت لأعيش الآن كما أشتهي وأحب، لن أهزم أو أتراجع، ولن أنحني للحظة ضعف بعد اليوم، فسحقاً لكل من يظن بي الظنون، أنا لم أخسر يوماً معركتي، صحيح أنني أفنيت عمراً في السعي الخائب، لكن لا بأس، ها هي الحياة تبدأ الآن، خواطري ما تزال كعيوني متفتحة وقادة كما عهدتها في كل حين، إذا لم تكن قد نفعت في الماضي فهي الآن نهر عطاء، كل المكنونات في داخلي، قلبي منجمها، وروحي أثيرها..

بهذا حدثني شيخي العثمان، حضرني وحدثني، فطرت من الفرحة، بكلمات قليلة وجدته معي يدفعني إلى أحلام علوية، لم يهجرني في محنتي، وقفت بفضله على بوابة أمل مشرعة على الكون كله، مضيت في أحلامي، أصبحت حياتي في أحلامي، وسأظل أسعى وراءها، ليلاً بعد ليل، أخلقها في الصحو إن لم تسعفني في المنام.. وقلت في نفسي ذات عتمة: أنا العبّادي. لم أنل من الدنيا ولم تنل مني، ها قد بان كل شيء وانجلى، بتنا عدوين أبديين، بل نحن منذ الأزل عدوان، تحقق لي أنه مهما بدا لي من حلوها وطيبها، فإن شرخ العداوة سرعان ما يتسع بيننا.

* * *

٣٣

لا أدري كم من الأيام كان قد مر عندما أصحو ذات صباح على صوت السجان يوقظني، يفتح باب الزنزانة فأخرج، يدفع بي للتنفس، هناك في الساحة..

وفي أول خروج فعلي من الظلام صافحت عيناي النور، وبدأت أتلمس صورة ما حولي. بداية، تأملت الساحة الواسعة، مددت بصري في الفضاء، تشرّبت الزرقة وأنفاساً جديدة، سرت بطيئاً أحرك أقداماً ليست لي، انعطفت حول البناء، بدت في الخلف ساحة مهجورة، ترتفع جدرانها عالية مكسوة بالاسمنت الخشن، عبرت الساحة التي أفضت بي إلى ساحة أخرى تحتجزها أكداس من الأسلاك الشائكة، ترتفع عن الساحة المهجورة بضع درجات، ظلَّلت عينيَّ بكفي أنظر، رأيت من على بعد بعض السجناء يجولون بخطى متقاعسة، ودققت النظر، ها هما عينان مسددتان نحوي.. هتفت: عمر!.

عادت أيام بعيدة كانت قد غفت تصحو من جديد، ابتسمت له، قرأت اللهفة في عينيه، ولما كانت المسافة لا تسمح بأن أكلمه تأملته لحظات ورفعت يدي ملوحاً، هز رأسه وابتسم، امتزجت الذكرى التي كانت غائبة بحب طافح شعرت أني أكنه لعمر، عدت فتذكرت أروى، في لحظات ارتسمت صور من الماضي مجللة بالعذوبة والأسى معاً، وصحوت على الحارس يدفع بي نحو زنزانتي..

فاجأني وجود عمر هناك، والتبست الخواطر في رأسي، أعود وأتصور

ما جرى، وكيف كانت النهاية، وأصل إلى ضياع وحيرة، شغلني عمر طوال تلك الليلة، وتساءلت عمن يمكن أن يكون معه هنا.. استحضرت أيام دار المعلمين التي جمعتنا، ثم سنوات خدمة العلم، وما تلا من لقاء.. أضيق بأساي وأفقد أي أمل في إغفاءة ولو قصيرة، فأفتح بوابة على ذاتي، ذاتي التي استلقت هنا في العتمة، كوهن عاش مديداً، وتبدأ أفكار من نوع آخر تقفز إلى رأسي ثانية، أرجع كما في كل مرة إلى ألفتي الهاجسة، أرتبها على هواي، وأقول في نفسي: الآن يجب أن يبدأ عهد جديد، عهد أمحو فيه كل ما كان، ثم أخط ما سيكون.. سأغرق من ليلتها في الأحلام، ستختلط غفواتي بيقظاتي، ستلازمني صورتي وأنا أسير على الدوام في الطرقات، ودائماً أصحو فأفكر أن هذه الرؤيا ما هي إلا نفحة مخصوصة عليَّ أن أقرأ ما فيها على أنه أذن صريح من أشياخي بالطريقة، وأن السير ما هو في حقيقته إلا علامة طريقتي الفارقة، ففيه سأجد بغيتي من هبات الحق للخلق، إذ إن أول ما أحصله في السير أني سأكون عرضة للنفحات، أغنم منها ما يتيسر لي، أو ما يخصني به صاحب الفضل الأعظم.. ولا أدري كيف اهتديت لأن أجعل من السير ذاته ورداً رحت أردد فيه اسم الله وأمضي في الطرقات، وجعلت أسير في دروب أختارها طويلة وممتدة ومتشعبة ومتعرجة، استعدت بذاكرتي كل ما عرفته من أماكن وطرق وحارات، وعدت فسرت فيها، وأشرقت الصور في رأسي وأعادتني إلى أيام مضت، ثم تطول الأوراد طول تلك الطرقات التي لا تنتهي حتى أعود إليها مرة أخرى..

في مرة أغمضت عينيَّ بعد وردي، ودخلت في رابطة جمعتني بجدي العبّادي الكبير، فإذا بي أحس بقوة خفية تدفعني في قلب الحضرة،

ووجدت نفسي أمام سر الأسرار مولاي الشيخ الدندراوي، شيخ سيدي جابر العثمان، وقفت أمامه ونظرت إلى قامته القصيرة وحدبته البادية، بعد لحظات رفع وجهه إليَّ ووضع راحتيه على كتفيَّ كأنه يتعلق بي، ثم تمتم وباركني بعينين مغمضتين، ومسح براحتيه بعد ذلك وجهي، ثم أدارني أمامه ودفعني لأسير.. وعندما التفت وجدته يتبعني.

وأراني ليلة أمس وقد امتدت خطواتي في الطرقات ثم حطت بي في جبانة الصالحين في آخر باب النيرب، أدخل على أصحاب المكان بالسلام واللهفة، فأرى كأني أقبل على أحبابي الخلص، ويطوف دمع في عيني، وأحسّ للحظات أني ضائع في المقبرة وبين شواهدها الكثيفة، وأنني ضائع أيضاً خارج المقبرة في زحمة خلق الله، فينتابني الوجل، وأنظر على مرأى مني لأشاهد كيف امتدت تلال البازار خارج سور المقبرة تضج بالبشر، فأقف وأتأمل، وأداري دمعة وأسير، فيتبعني خلق كثيرون يرددون قولتي: حسبنا الله ونعم الوكيل. وتردد شفاهي هذه الكلمات:

– ها هي الغفلة تأخذ بالخلق وترميهم على النفايات في الأسواق.

أخرج من جبانة الصالحين وأنعطف في طريق باب النيرب، ومنها يخطر في بالي أن أدخل حارة جب القبة، حارة زوجتي سعاد، أومن كانت زوجتي، أتساءل للحظات ما الذي حلَّ بها، وأفكر أنها لو كانت هنالك فبالتأكيد ستراني، من باب بيتها الموارب أو من على السطح، ألتفت ورائي وأرى موكباً خلفي يتعاظم، أطوف في المكان وأدخل حارتها بموكبي مرات ومرات، أقول لعلي أستطيع أن أحظى برؤيتها، والأهم أن تراني هي، وكل هذا الحشد من المريدين خلفي. وفي غمرة سروري وأنا أسير، أتوقف قليلاً وأستدير إلى الوراء، فأرى أتباعي بعيونهم الشاخصة، ووجوههم الموجهة نحوي، وأرى خلفهم من سميتهم أحبابي وأصحابي،

أرتالاً كثيرة، بعضهم بأسمال بالية، وبعضهم صبية مرضى نصف عراة، وآخرون عاجزون يزحفون على الأرض أو يجرجرون أجسادهم على عكاز، فأتملى لحظات في سروري، وعندها تعانق الطمأنينة قلبي، وأنظر إلى وجوه من اصطفوا أمامي، فأرى أعداداً من المتسولين والعاجزين والعاطلين وأبناء السبيل، فضلاً عن الهابطين لأول مرة من قرى بعيدة، فأفرح بهم، وأديم النظر في وجوههم المتهللة، أراها وقد طغى عليها فرح مثل فرحي، فيحلو لي ساعتئذ أن أخصهم وحدهم دون سواهم بنظم أحفظه لشيخنا أبي مدين التلمساني، فأنشد:

ما لذةُ العيشِ إلا صحبةُ الفقرا ... هُمُ السلاطينُ والساداتُ والأمرا
فاصْحَبْهُمُ وتأَدَّبْ في مجالسِهِمْ ... وخلِّ حظّكَ مهما قدَّموكَ ورا

وفي تلك اللحظات أفكر وأتفحص في حقيقة مشاعري، فأجد أن أكثر ما كان يشدني من الناس الدراويش والمجاذيب والبهاليل، ومن أوتوا حظاً من الفقر أودى بهم إلى الجهل، وأدخل في مخاض اللحظة، وأشعر كأن دوراً للغناء قد مر على صحبي ووصل إليَّ الآن.. وأراني بنشوة حاضرة أرسل نشيداً خافتاً، يبدأ في العلو رويداً رويداً... «يا أهل ودي.. يا أهل ودي.. أنتُمُ ذخري..» في تلك اللحظات أرى كيف بدأ الهيام يتسلل إلى أفئدتهم، فيذبلون عيونهم، وترتسم على وجوههم المطمئنة بسمات انشراح وغبطة، ويرددون النشيد معي، وتنتظم أصواتهم وتصحو هي الأخرى، ثم تعلو فأزيدهم بشدوي:

دارِ حبًّا قد بـرى ... أنفساً وتخيَّرا
نهرُ حبي قد جرى ... فانهلَنْ وارقَ الذُّرا
واجتنبْ أهلَ الورى ... واقْطعَنْ كلَّ العرا

وأتوقف عن النشيد، فيجيبني في الحال صوت طالما أحببته، إنه

صوت الشيخ حيدر، ملك الطرب في حضرتنا أيام شيخي جابر العثمان، وترتسم صورته الحانية أمام ناظري وهو يقف في قلب الحضرة يترنم بهذه الكلمات:

واعلمْ بأنَّ طريقَ القومِ دارسةٌ
وحالُ من يدَّعيها اليومَ كيفَ ترى
ولازمِ الصمتَ إلا إنْ سُئِلْتَ فقلْ:
لا علمَ عندي، وكُنْ بالجَهْلِ مستترا

وتهيم القلوب بإنشاده، وتنعم وتطيب فيزداد التثني والتلوي، وإذ ينتهي فصل الطرب يحل صمت قصير، أراني أستلهم فيه وحي خاطري، ثم أبث على مسامعهم كلمة قصيرة موجزة، فالوقت لم يعد يسعف، وأمامنا مسير لابد أن يبدأ...

تتكاثر الأحلام وتزدحم، وتختلط الغفوات بالصحو، ثم تمر ليال عديدة لا أجد فيها للنوم طعماً، ولم أعد أهتدي في كل محاولاتي إلى غفوة واحدة، وأفكر: ما الذي يمكن أن يؤرقني فتبقى عيناي على اتساعهما مفتوحتين وسط الظلمة؟! أكتب ما أكتب الآن وتنتابني أوجاع وأوجاع، أسميها كوابيس اليقظة، وأغفو مرة للحظات فيحضرني شيخي الدندراوي، أكلمه في آلامي وأحزاني، أجده يصمت ويهز رأسه، فأنتظر وأصبر فلا يحير جواباً، حتى أجد في نفسي اليأس من نفحاته، لكنني أخجل من إلحاحي في الطلب، وأفكر أنه لو قدر لي أن أكون غير ما أنا عليه فكيف ستكون حياتي؟! وما هي صورتي وحقيقة شأني؟! وانتبه إلى أن ما بي سببه الوحشة والانفراد، لكن هذا الشعور ليس جديداً، فأنا طوال عمري ظللت أشعر بالوحدة، بل بوحشة لا تفارق كياني، في

لحظات هيامي العالي بالوجود وخالق الوجـود، أنـا وحيـد، في لحظـات كآبتي واسوداد الدنيا أمام عيني أنا وحيد، وحيد مهما أحاط بي الناس، في صبري وفي وجلي، مهما تبعني المريدون وتهافتوا على يـدي وأثـوابي، سأظل وحيداً، وحيداً حتى رجفـة الأسـى المريـرة، لكـن وحـدتي سـتظل وحدة نبيلة، وحدة غامرة، ستغدو أبداً أليفة إلى قلبي، وسأقول لدى كـل وحشة، وعند كل غرق في وحدتي، وفي غياهب ليل كليلي: مـن كـان لـه كل هذا السواد ليس وحيداً.

ليس الظلام، بل آلام الوحدة والشجن سيقضان مضـجعي، في سـكينة الفجر يتهافت جسدي وينال مـني الأرق، لكـني في غمـرة آلامـي أهجـع قليلاً فيتهيأ لي شيخي الدندراوي وقد حضرني، فأصيح:

– مـولاي يـا مـولاي!.. أيـن أنـت يـا إمـام الحضـرة؟ أيـن أنـت يـا دندراوي؟

فيأتيني صوته من ورائي قريباً يقول:

– أنا في موكبك يا عبَّادي!.

أنظر إلى حيث الصوت، فتأخذني الدهشة عندما أرى شـيخ أشـياخي الإمام الدندراوي يقف أمامي وقد شد قامته فاستقامت حدبته قلـيلاً، أراه حقيقة الآن ينظر إليَّ بعيون فاترة محمرة، ثم يجلس على الأرض ويقول:

– إيش بيك يا عبّادي؟!.. الزلزال ما يهز رجال، هذا أول الغيث..

– داخل عليك يا شيخي!. أنا ضعت وضاع من معي.

– أدري، أدري، وسِّعْ دربْ.

ينهض الشيخ ويسير فأتبعه، الشيخ يسرع مبتعداً عني فأسـرع خلفـه، أميل إلى قامته الصغيرة المنحنية أمامي وأقول:

– جتلونا يا شيخ، إيش نسوي؟
– النوبة الجاي نجتلهم.
– وأتباعي يا إمام؟
– الساعة ساعتكم يا مطيع! خذهم صوب العدا..

فأتركه وألتفتُ خلفي مستعرضاً من هم ورائي، فأرى صبية المدارس، فأعود لأتذكر أني هجرت التعليم منذ زمن بعيد، وأفكر أني سأظل ألوب وسط أفكاري السوداء، فأعود لأنده شيخي وأردد بعده اسم سيدي الشيخ جابر واسم جدي العبّادي، صرت أستغيث وأبكي، وصحوت على دموعي تبلل وسادتي.

ويغمرني وسط الظلام والسكون شعور طاغ بالعجز والضياع، وأقول إنها النهاية، هذه هي النهاية يا مطيع! وأفكر أني كنت طوال حياتي التابع المطيع حقاً كاسمي، وأذكر في الحال أني قرأت يوماً قول العارف الكبير والولي الخطير، الإمام الرباني سيدي أحمد الرفاعي في البرهان المؤيد: «حالة الشيخ كمالاً أو نقصاناً تظهر في أتباعه ومريديه، فإن كانت حالةَ كمال علا بها حال الكامل، وزاد بها حال الناقص، وإن كانت حالة نقص، نقص بها حال الكامل، وذهب بها حال الناقص، إلا إن وهب الكريم، فلا تأثير للأحوال». وأضيف إلى ذلك قول سيدي الشيخ منصور البلخي: «صحيفة حال الشيخ أتباعه، لهم من حاله وخلقه شيمة لا بد أن تفعل كيف كانت، إلا إذا غلبها حال سماوي اختص بها التابع فربما يعلو منزلة شيخه». أبكي، وفي لحظة ما أشعر ببعدي البعيد عن كل شيء، هاهي الخيبة تعتصرني، وهاهم أشياخي لا يكترثون لبكائي على الرغم من كل مشاعر الخسران والرجاء في نفسي، لكن خشية ما تستبد بقلبي فأقول:

– عذراً يا أشياخي ويا أسيادي! عذراً يا أحبابي، فقد فاض بي الكيل هنا، لم أعد أطيق أن أخفي ما بين جوانحي، ضقت بالصبر فالصفح الصفح. أنا أعلم أن الصبر صبران، صبر على ما تحب وصبر على ما تكره، وأنا ضقت بالصبرين معاً..

وينازعني الحنين إلى أيام العيون، إلى الطرقات الفارغة أسير عليها وحيداً، فأقول: يا ألطاف الله أعينيني، أزيحي عن صدري عبء السنين الطوال.

هل ثمة ساعات للحزن الأكبر؟! أجل! إنها تلك التي أمر بها الآن، ساعات قاتلة لن ينفع معها عزاء في شيء، ووالله لو أطبقت الأرض جميعاً على أنفاسي وأخمدتها مرة واحدة، لكان ذلك أهون علي ألف مرة من ساعات الحزن التي أحياها. المقابر التي صرت أراها في أحلامي تبدو رياضاً حقيقية، وأصبح يبدو لي جميع من تحتها يرفلون بأثواب النعيم، لا لشيء، بل لمجرد أنهم موتى.. مرارة الأسى في نفسي بلا مقاوم، ولكن هل سأصير إلى الشكوى بعد كل ما قدمت، فيا هول النهاية، على أية حال ليكن ما يخفف العبء عن روحي الموجعة، الشكوى بلسم الروح.. والمغتم إذا لم يتروح بالشكوى قتله الكمد.

وأفكر من جديد أن العمر أقصر من أن يحتمل التردد، فأعود لأستحضر قوى تحتضنني، فأنا على أية حال العبّادي السيار، وهذا شعاري الرباني ومنحتي الإلهية، السير أولاً والسير أخيراً، لن أستسلم إلى قعود، ولو حجزتني الجدران، ويجول في خاطري مرة أخرى على نحو أشبه باليقين أني من لحظة ولدتني أمي، تلقفت قدماي الأرض وسرت، لم أزحف ولم أتسند إلى جدران، السير أزلي وأبدي معاً، إنه ظاهري وباطني، ومحياي ومماتي، أكثر أحلامي مشي على الصراط، صراط طويل

لا يكاد ينتهي، وأنا أكثر ما ابتهج له طول الصراط، وكل سيري في يقظتي دربة ومران على مشي الصراط.

وأفكر طويلاً فأصل إلى أن مقام السير هذا قد أوجدني فيه الحق وخصني به، وقد علمت ما علمت من رؤيا، نهضت مرة من نومي أجتليها في ظلام زنزانتي، فأرى فيها إشارة تصلني من لدنه.

وجدت نفسي أقصد بيت المقدس فأضل الطريق، فإذا أنا بامرأة قد أقبلت إليَّ، فقلت لها:

– يا غريبة أنت ضالة؟

قالت:

– كيف يكون غريباً من يعرفه، وكيف يكون ضالاً من يحبه؟

نظرت إليها ولم أنطق بحرف، فقالت:

– خذ رأس عصاي وتقدم بين يديَّ!.

فأخذت رأس عصاها ومشيت بين يديها سبعة أقدام أو أقل أو أكثر، فإذا أنا بمسجد بيت المقدس، فدلكت عيني وقلت:

– لعل هذا غلط مني..

فقالت:

– يا هذا سيرك سير الزاهدين، وسيري سير العارفين، فالزاهد سيار، والعارف طيار، ومتى يلحق السيار الطيار؟

ثم غابت عني فلم أرها بعد ذلك.

أرضى كل الرضا بمنزلة السير، وأتوق إلى ما بعدها، وأشكر الخالق إذ أتحسس الألم فأستدل على العافية، فأقول يا عظيم الإنعام تمم لي الصحة، وأمسحُ برفق على لحيتي وصدري، فتهدأ نفسي وتتطامن كرامتي الجريحة، وتنبثق قوة خارقة من أعماقي، فأتلقى بشاراتها مسروراً.

وأحـدّث نفسـي الآن فـأقول: مادمـت أسـير بـأمره فلـن يـدعني في محنتي.. سيحضرني هاتف علوي، يهبط إلي متخطياً أكداس هذا الظلام والطلاسم السود، هـاتف يـأمرني فـأأتمر، سيضـوع عبقـه مـع ورد الليـل المتفتح في قلـبي، ولحظتهـا سـأعرف أن أتبـاعي وأحـبتي وصـحبتي لـن يكونوا سوى أولاد الحـواري النائيـة في القـرى البعيـدة، حيـث أراض لم تطأها قـدماي، ولم تشـهدها باصـرتي، أحـبتي وصـحبتي سـيكونون مـن الصبية الصغار والفتيان قبل سـن البلـوغ.. بهـذا سـيكون الأمـر فأنصـاع، وأرجو أن يبتهج قلبي بصبيتي ويبتهجوا بي.

من خاف أدلج، وأنا سأنطلق في جنح الظـلام، بـاكراً سأمضـي إلى مـا نُذِرْتُ لأجله، سأنطلق في سيري وأخرج إلى أطراف البلدة وحيداً، وستتيه عيناي وقدماي في طرق كثيرة، ومن ثم سأصـل إلى قـرى ميتـة تـنهض في أنحائها بعض بيوت الطين، وبجانبها زرائب، ستدب فيها الحياة، وأول ما سيلقاني فعلاً عدد من الصبية الحفاة والبنات مشعّثات الشعور، سوف تتسمر عيونهم فيَّ، فأبتسم لهم ثم أجمعهم حولي، وأبدأ بالحكايا الساحرة التي ستشدهم إليَّ، وسوف أقيم فيهم أياماً، حتى تكون الإشارة اللاحقة، فأدعو إلى نفسي حقيقـة، وأشـرع أردد الأناشـيد الـتي سـأنظِمُها للمهمـة الجديدة، وسرعان ما سألقى الاستحسان وأقابل بالحب، وأنـا أهـب مـن نفحاتي ما أهب.. ستتقاطر جموع الصبية من قـرى أخـرى، فتنـتظم عـن يميني وعن يساري وأرتالاً بالعشرات خلفي، أقول ما أقول فيرددون ورائي بأصوات حادة صاعقة ترج الآفاق فيسمعها الكون كله، تصافح أسماع مـن هب ودب، وسأمضي بهم صعداً في طريق انفتحت علـى بيـداء، سأمضـي نحو الآفاق، وأنا أرفع عصا طويلة أتخذها لمسعاي الجديد، بعـد أن آمـر صبيتي فيقتدون بمثل ما فعلت، فيحمل كل منهم عصاً أو حجراً أو نقَّافة..

ويتهيّأ لي أني في تلك اللحظات فحسب سأنظر فأرى موكبي وقد لفته سحابة غبار، تصاعدت من أقدام صغاري التي تحث الأرض بقوة، فأسمع وقعها يتعاظم، وأتقدم في سيري بدافع غضب، أتشهى أن أقاتل كل من أراه في سبيلي، وجيشي هذا لن يتخاذل في مهمة، إلى الأمام سأمضي، والصبية يسرعون خلفي، أنا أوسع خطواتي وهم يتراكضون، وكأننا سنغدو في سباق طويل لا ينتهي، وسأبدأ حقيقة أحس بالرضا وأنا أعود إلى نفسي الحبيبة وأقطف ثمار التعب، لكني أظن أن الأحزان ستعاودني، وأن الكآبة ستغزو قلبي وأنا في غمرة نشوتي وأقصى سعادتي، فلا بأس عندها أن أنظر في موكبي العظيم من الصبية، وأحس بعبء السنين الطوال التي عشتها، وآسف لمجرد تفكيري بقرب زوال كل هذا، فأجلس مهدوداً يائساً، وقد أيقنت أن دوام الحال من المحال، فأقول مع من يقول: لو دامت لغيرنا ما انتهت إلينا.

حلب/ أواخر ٢٠١٠

المؤلف:

– ولد في حلب عام ١٩٥٥

– إجازة في اللغة العربية وآدابها ١٩٧٩

– دبلوم الدراسات الأدبية ١٩٨٠

– ماجستير في الأدب العربي الحديث ١٩٨٤

– درّس في ثانويات حلب منذ عام ١٩٨٠، وفي جامعة زايد/دبي مابين ١٩٩٩–٢٠٠٢

– كتب الرواية والقصة القصيرة والدراسة الأدبية والقراءة النقدية.

– نشر بحوثاً وقصصاً قصيرة تباعاً في كل من الصحف والدوريات التالية: الجماهير، الثورة، تشرين، تشرين الأسبوعي، الموقف الأدبي، دراسات اشتراكية، الحياة، قرطاس، الصدى، منار الإسلام، البلاد، ثقافات، البيان الكويتية، البيان الثقافي، بيان الكتب، الخليج الثقافي، النور، شرفات، أبواب.

– شارك في إعداد الموسوعة الإسلامية الميسّرة.

– شارك في موسوعة أدباء من حلب، فكتب دراسات عن كل من: فاتح المدرس، محمد أبو معتوق، فيصل خرتش، محمد فؤاد، عمر قدّور، صلاح داوود، نذير جعفر.

– قدم عروضاً وقراءات لعدد كبير من كتب النقد والدراسات الأدبية والفكرية.

- صدر له:

– طوق الأحلام/رواية – درا الإنماء الحضاري – حلب ط١، ٢٠٠٤، ط٢ ٢٠٠٨.

– القصة القصيرة في أعمال رابطة الكتاب السوريين/وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٥.

- قيد الصدور:

– مجموعة قصصية بعنوان (السائرون نياماً).

– تجارب إبداعية من حلب في الرواية والشعر والفن.

– مراجعات في النقد والدراسات الأدبية.

- هاتف: ٠٠٩٦٣٢١ ٥٢٦١٤٣٤ – ٠٠٩٦٣ ٩٣٧٠٩٦٢٧٨

- بريد إلكتروني: **chouihni@hotmail.com**

إصدارات

عنوان الكتاب	المؤلف	مادة الكتاب	سنه النشر
البنيه الجماليه في الفكر العربي/الإسلامي	د. سعد الدين كليب	دراسه فكريه	٢٠٠٦
إمبراطوريه المجانين الديمقراطيه العليا	خطيب بدله	قصص	٢٠٠٦
حلب بورتريه بالوان معتقه	وليد إخلاصي	قصص	٢٠٠٦
دراسات في الحضارة العربيه الإسلاميه	د. فؤاد المرعي	دراسه فكريه	٢٠٠٦
الصبابه المغربيه	سرغون . ت . س	نصوص	٢٠٠٧
الصفه معتقل سياسي	كامل مسقاني	قصص	٢٠٠٧
سيكولوجية المراهقة (جزءان)	د. ناظم الطحان	دراسه تربوية	٢٠٠٧
ابدا كنت انا	سعيد رجّو	مذكرات	٢٠٠٨
اسرار النجاح	محيي الدين محروس	دراسه	٢٠٠٨
إسماعيل مظهر من الاشتراكيه إلى الإسلام	د. أيوب أبو دية	دراسة	٢٠٠٨
الإمبرياليه الامريكيه خصم تاريخي للحريه والديمقراطية	د. مصطفى أمين	دراسه سياسية	٢٠٠٨
التراجيدي في اساطير الشرق القديم	عبد الرحمن العابو	دراسه	٢٠٠٨
الحركه الشيوعيه السوريه (الصعود والهبوط)	د. عبد الله حنّا	دراسه سياسية	٢٠٠٨
السكون بعد العاصفه	احمد جدعان الشايب	قصص	٢٠٠٨
العلمانية/ وجهات نظر	يوسف سلامة، ماهر الشريف، عطية مسوح	دراسة فكرية	٢٠٠٨
الماركسيه والماركسيون في عصرنا/طاولة مستديرة	مجموعة من المؤلفين	دراسة فكرية	٢٠٠٨
الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام	د. فؤاد المرعي	دراسه	٢٠٠٨
باب الجمر	وليد إخلاصي	روايه	٢٠٠٨
تحت سقف واطئ	نذير جعفر	روايه	٢٠٠٨
ثلاث تفاحات	محمد ابو معتوق	روايه	٢٠٠٨
جبل السيدة	نيروز مالك	روايه	٢٠٠٨
حب بعد الخمسين	خطيب بدله	قصص	٢٠٠٨
حديقه الرمل	عازي حسين العلي	روايه	٢٠٠٨
شمسها سيدة الاوقات	سعيد رجّو	شعر	٢٠٠٨
صهيل الصحراء وحمحمتها	احلام يحيى	دراسه ادبيه	٢٠٠٨
مرايا التلقي	نذير جعفر	نقد	٢٠٠٨
عفرين اواخر الاربعينيات - اوائل الخمسينيات	جمعة عبد القادر	مشاهدات	٢٠٠٨
فراشه الليل	كمال فجه	شعر	٢٠٠٨
احترامي سيدي المواطن	خطيب بدله	قصص	٢٠٠٩
اقتصاد السوق الاجتماعي	مجموعة من الباحثين	دراسه اقتصادية	٢٠٠٩

الاسير الحر - ابو فراس الحمداني	احلام يحيي	دراسه ادبيه	٢٠٠٩
الشاطئ الاخر	إياد محفوظ	قصص	٢٠٠٩
الفلاحون يروون تاريخهم	د. عبد الله حنّا	دراسه اجتماعية	٢٠٠٩
المعونات الإنمائية العربية الثنائية	زياد عربية	دراسه اقتصادية	٢٠٠٩
المنجد في الكيمياء اللاعضويه	طوم سمعان	معجم	٢٠٠٩
لا دين لفقير	محمد حسن العثمان	دراسه دينيه	٢٠٠٩
لا يضير السحاب نباح الكلاب/ليس في الإسلام إرهاب	محمد حسن العثمان	دراسة دينية	٢٠٠٩
محمود أمين العالم/مفكراً وناقداً	مجموعة من الباحثين	دراسه فكريه وأدبية	٢٠٠٩
اعلام العقلانيه والتنوير ومجابهه الاستبداد	د. عبد الله حنّا	دراسة	٢٠١٠
الإسلام واصول الحكم	علي عبد الرازق	دراسه	٢٠١٠
الجواهري - كلاسيكي ضد الكلاسيكية	محمد علاء الدين عبد المولى	دراسة	٢٠١٠
الروايه بين التلغيم والتلغيز	هيثم حسين	دراسه	٢٠١٠
العنانه (العجز الجنسي عند الرجال)	د. رياض جودت	دراسه طبيه	٢٠١٠
المستطرف الأزرق	خطيب بدلة	ديوان الطرائف المعاصرة	٢٠١٠
الوابل المدرار	احلام يحيي	دراسه	٢٠١٠
امراة تكسر الظهر	خطيب بدلة	قصص	٢٠١٠
تجليّات التناص في شعر فايز خضّور	بتول دراو	دراسه	٢٠١٠
حكي لي الاخرس	خطيب بدلة	قصص	٢٠١٠
رؤية علمانية للإسلام	أُبيَ حسن	حوار مع د. محمد شحرور	٢٠١٠
سوريا المبتدأ والخبر	أُبَي حسن	مقالات متنوعة	٢٠١٠
صباحات مشرفه	مصطفى النجار	شعر للاطفال	٢٠١٠
طلقه فناص	كامل مسقاني	قصص	٢٠١٠
في اللغه والتفكير	د. فؤاد المرعي	دراسه	٢٠١٠
فن الحب	إريك فروم ترجمه محمود منقذ الهاشمي	دراسة	٢٠١٠
كالدي يرسله السحاب	سعيد رجو	شعر	٢٠١٠
كما لو انني احلم	فوّاز حجو	شعر	٢٠١٠
مدينة الورد	طه حسين الرحل	قصص لليافعين	٢٠١٠
معلقات ليست بماء الدهب	محمّد بسّام سرميني	قصص	٢٠١٠
من تاريخ الدراسات اللسانيه في الشرق (١) (الصين - اليابان)	د. مصطفى عثمان	دراسة	٢٠١٠
هكذا يسخر الشعراء	عبد القادر حمود	دراسه	٢٠١٠
اساور الورد	نذير جعفر	روايه	٢٠١١
البنى الليبرالية النظرية للتغيير الاقتصادي	أيهم أسد	دراسه اقتصادية	٢٠١١
الروايه والتاويل/حدود ومرجعيات	نذير جعفر	دراسه	٢٠١١
رجل من نخيل (عبد الله واثق شهيد)	محمد جمعه حمادة	سيرة حياة	٢٠١١

سلطان الفيلة	بيشار كمال/ترجمه فاروق مصطفى	رواية	٢٠١١
كلام ما لا يستطيع الكلام	زياد كمال حمامي	قصص	٢٠١١
من اخبار الملك مجد الدين اوزون في الدنيا والآخرة	توم سمعان	اخبار وحكايات	٢٠١١
ميدان الزيزفون	نيروز مالك	رواية	٢٠١١
هبوط اضطراري (قراءة في صندوقي الأسود)	د. عبد القادر المنلا	شهادات	٢٠١١
اركيولوجيا السرديات النسويه الإماراتيه	الرشيد بو شعير	نقد	٢٠١١
صراع الاجيال في الروايه الإماراتيه	الرشيد بو شعير	نقد	٢٠١١
عبد الله خليفه كاتبا روائيا	الرشيد بو شعير	نقد	٢٠١١
مساءله النص الروائي في اعمال عبد الرحمن منيف	الرشيد بو شعير	نقد	٢٠١١
هواجس الروايه الخليجيه	الرشيد بو شعير	نقد	٢٠١١
حياة البوذا	دايساكو إكيدا/ترجمه محمود منقذ الهاشمي	سيرة مفسّرة	٢٠١١
عصفورية	خطيب بدلة	قصص ساخرة	٢٠١١
النظريه السلوكيه التعزيزيه لدى كلارك هل	د. ناظم الطحان	دراسه تربوية	٢٠١١
الطلقاء يحملون اغصان الزيتون	الرشيد بو شعير	مسرحيه	٢٠١١
الماركسيه واسئله العصر	عطيه مسوح	دراسه	٢٠١٢
الماركسيه من فلسفه للتغيير إلى فلسفه للتبرير	عطية مسوح	دراسة	٢٠١٢
المجتمع السوري في العصر الإمبراطوري	تاليف إيليا شيفمان ترجمة زياد الملا	دراسة	٢٠١٢
ضحيه مثلث برمودا	ترجمه خالد داود	قصص	٢٠١٢
السبعينية ترجمة التوراة الإغريقية	ترجمه د . خالد اليازجي	تراث ديني	٢٠١٢
الديمقراطيه والنهضه في فكر الشيخ خالد محمد خالد	عطية مسوح	دراسة	٢٠١٢
سيرة الحب	خطيب بدلة	نصوص ساخرة	٢٠١٢
سعد يكن «مرايا الازمنه الضائعه»	محمد جمعه حمّادة	دراسه	٢٠١٢
إسهامات الحضارة العربيه الإسلاميه في الحضارة الأوربية	علي جمعة الخويلد	دراسة	٢٠١٢
حكايات تروى في جبل العرب	ثائر زين الدين وفوزات رزق	قصص	٢٠١٢
الاحزاب والهيئات السياسيه السوريه في القرن العشرين	مسلّم الزيبق	دراسه تاريخية	٢٠١٢
حكم وامثال كرديه من منطقه عفرين	عبدو محمد	امثال	٢٠١٢
الحروف التائهه	وليد إخلاصي	روايه	٢٠١٢
نبض السنين	فاطمه فنديل	دراسه	٢٠١٢
قبو رطب لثلاثة رسامين	مصطفى تاج الدين الموسى	قصص	٢٠١٢
انتظار الفراشات	عزوان بزي	قصص	٢١٠٢